دانيال ستيل

زويا

رواية

ترجمة: د. علي حداد

* زويـا
* دانـيـال سـتـيل
* ترجمة: د. علي الحداد
*الطبعة الأولى 2007

* الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع
سورية ـ دمشق ـ ص.ب:5953
هاتف: 2248560 - 4418202
* التوزيع في جميع أنحاء العالم:
الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع

الفصل الأول

ـ سان بطرسبورغ

الثلج يتساقط والعربة تسير. زويا مغمضة العينين، تصغي إلى رنين أجراس الخيول وكأنها موسيقى حالمة. منذ صغرها وهي تحبُّ هذه الأصوات، وتحلم أن يأتي من يكتشف موهبتها في رقص الباليه ويضمُّها إلى فرقته، متناسية أن والدها هو ابن عمّة القيصر، وإنه من العار على فتاة من الأسرة المالكة أن تحترف الرقص.

فتحت زويا عينيها وطلبت من ڤيودور، سائق العربة العجوز، أن يحث الخيول على الإسراع،لأن عليها أن تكون في المنزل قبل موعد العشاء كما وعدت أمّها التي، لو علمت بأمر هذه الزيارة إلى القصر الأمبراطوري. لوضعتها في الحجر الصحي؛ فالكل هناك مصاب بالحصبة باستثناء ماري ابنة القيصر الصغرى، الأغلى والأحب إلى قلب زويا.

أمام القصر، أوقف الحرّاس القوزاق، بثيابهم الخضراء وقبعاتهم الصوفية المغطاة بالثلج، العربة؛ وما أن وقع نظرهم على زويا حتى أشاروا إلى ڤيودور بمتابعة الطريق.

تابعت العربة سيرها نحو كنيسة القصر المفضل لدى الأمبراطورة.

التي أشرفت على زخرفته، غرفة غرفة، فرصعت غرفة الجلوس الأرجوانية اللون بحجارة الأويال. وأضفت على غرفتها الخاصة جواً رومانسياً يزرع الدفء والإستراحة في النفس. لذا، لم تكن عائلة القيصر تستعمل القصر الشتوي في سان بطرسبورغ إلا في المناسبات الرسمية أو لإقامة الحفلات الراقصة.

توقفت العربة أمام مدخل القصر وترجّل ڤيودور فيما كان إثنان من الحراس يمسكان بلجام الحصانين، ومد يده لزويا ليساعدها على النزول من العربة، فيما كان الثلج يتساقط على معطفها.

ترجلت زويا ودخلت القصر وهي تأمل أن يكون لديها الوقت الكافي لشرب الشاي. أما ڤيودور فقد أدخل الخيل إلى الإسطبل وجالس أصدقاءه فيه.

داخل قصر ألكسندر، تقدمت خادمتان لمساعدة زويا على خلع مِعطفها، بينما هي ترفع قبعتها المصنوعة من فرو السّمور عن رأسها، تاركة شعرها ينسدل متماوجاًعلى كتفيها؛... حتى ألكسي، ولي العهد، الذي لم يتجاوز الثانية عشر من عمره، كان يبدي إعجابه بلون شعرها... ولم تكن زويا بالنسبة إلى ألكسي إلا بمثابة واحدة من شقيقاته، فهي على غرار أولغا وتاتيانا وأنستازيا وماري، شاركت في تربيته، جميعهن ينظرن إليه كطفل. ما إن أخذت زويا طريقها داخل ممرات القصر، حتى سألت الخادمتين عن صحته: و جاء الجواب مقلقاً: إنه يعاني من الحصبة والسعال الحاد. وهو تحت رعاية السيد غيليارد ليل نهار.

أما صاحبة السمو الملكي فهي تهتم ببناتها الثلاث: أولغا وتاتيانا

وأنستازيا اللواتي انتقلت إليهن الحصبة من أخيهن ألكسي ولهذا السبب مُنعت زويا من زيارة القصر، لئلا ينتقل المرض إليها.

كانت عينا زويا الخضراوان تشعّان فرحاً وهي تعبر القاعة دون إحداث أي ضجة. لئلا تزعج الأمير ميشكيرسكي، كبير مساعدي القيصر أو تثير انتباهه. مشت على رؤوس أصابعها رغم أنها تنتعل حذاء شتوياً، وصعدت الأدراج متجهة نحو غرفة ماري. قرعت الباب، فجاء ها صوت ماري الناعم والرقيق:

ـ نعم، من الطارق؟

فتحت زويا الباب وأدخلت رأسها أولاً، سامحة لخصلات شعرها أن تتدلى على كتفيها لترى رفيقة عمرها واقفة بهدوء قرب النافذة، تراقب تساقط الثلج بعينيها الزرقاوين الواسعتين. وكان اللقاء عناقاً وقبلات وابتسامات، قطعتها زويا بصوت ملوّه الشوق: «ها أنا أتيت لانتشالك من وحدتكِ يا حبيبتي ماشكا».

وضعت ماري يديها على كتفي زويا وهي تحدق إليها بفرح عظيم وقالت وهي لا تكاد تصدق أن زرويا هي التي تقف أمامها:

ـ شكراً لله... اعتقدت أن الضجر سيقضي عليّ... أنا سجينة هذه الغرفة لا أغادرها ليلاً أو نهاراً... الكُلّ مصابٌ بالحصبة... حتى المسكينة "آنا"، صديقة والدتي، تمضي نهارها تهتم بشقيقاتي الثلاث، تعد لهن الحساء والشاي، وتتأكد من تناولهن الدواء في مواعيده... وفي الليل، تنتقل إلى قصر كاترين المجاور الذي تحول إلى مستشفى بعد إندلاع شرارة الحرب، لتشارك فريق الصليب الأحمر في العناية بالجرحى... وتحث الجميع، بما فيهم أنا، على أن يحذو حذوها.

ومضت فترة من السكوت، أمضتها ماري وزويا تزرعان أرض الغرفة جيئةً وذهاباً، وأخيراً جلستا قرب المدفأة... وعادت ماري إلى الحديث قائلة:

ـ تأكدي زويا... حتى أمّي لاتعرف أني أرسلت في طلبك.. و إلا لكانت منعتني من ذلك.

ـ أنتِ محقة في اعتقادك هذا يا ماري... طبيعي أن لا تسمح لك والدتكِ بدعوتي... فالحصبة مرض مُعدٍ... وطبيعي أيضاً ألاّ تسمح لي والدتي بالحضور إلى هنا.

ـ المهم أننا الآن معاً.. أنا جد مشتاقة إليك.

كانت زويا ترتدي كنزة صوفية سميكة تقيها برد الطريق من سان بطرسبورغ القصر؛ وكانت أصغر سناً بأسبوعين من ماري وأكثر أناقة، لكن الجميع كان ينظر إلى ماري على أنها أجمل فتيات العائلة ورثت الوسامة وزرقة العينين عن أبيها، وتحب الجواهر والثياب الأنيقة بعكس شقيقاتها، وتشترك مع زويا بالإحساس المرهف وبالتطلعات ذاتها؛ ولذلك لم يكن من العجيب أن تسترسلا في الحديث عن الملابس الجميلة والمجوهرات وعن قبعات والدة زويا التي تعجب ماري كثيراً.

أنا بخير قالت ماري. لا أشكو من شيء مطلقاً، إلا أنني منزعجة من أمي، فهي لن تسمح لي ـ كما العادة كل يوم أحد ـ أن أذهب مع عمتي أولغا ألكسندروفنا للتجول في المدينة وزيارة الجدة في قصر آنيتشكوف إضافة إلى بعض الأصدقاء. كل هذا بسبب مرض شقيقاتي.

نظرت زويا إليها نظرة إشفاق. «أنا جد مشتاقة لكِ وكنت خائفة من هذا، فإذا خوفي بمكانه، كنت أرغب أن أجعلك ترين عباءتي

الجديدة التي جلبتها لي جدتي أيفيجينا ستروفنا أوسيبوف من باريس».

رغم بلوغ أيفيجينا الواحدة والثمانين من العمر، فهي ما تزال ساحرة جذابة، ويصر الكل، على أن زويا ورثت عنها ذاك السحر وتلك الجاذبية، خاصة العينين النجلاويين المشعتين دائماً. والدة زويا، إنسانة ممشوقة القوام، جميلة الوجه، زرقاء العينين، ذات شعر أشقر طويل. يرغب جميع الرجال بمجالستها والنظر إليها، ويطمحون لنيل ابتسامة واحدة من ابتساماتها؛ ولهذا كان زوجها، شديد الحرص عليها، يعاملها وكأنها طفلة صغيرة، يغدق عليها من حنانه ويعبّر لها عن حبه.

ـ جلبت لي جدتي عباءة من قماش الساتان الفاخر المطرز بحبات اللؤلؤ الصغيرة، هكذا كانتا تتحدثان، وكأنهما طفلتان صغيرتان، تندهشان لأتفه شيء.

ـ بعد أسبوع سيشفى الجميع، وتذهب الحصبة بعيداً، وهكذا أتمكن من زيارتك يا زويا وأرى هذه العباءة التي تتحدثين عنها، وسأستغل هذه الفترة لأفكر كيف أساعدك على زخرفة غرفتك.

زخرفة غرفتي؟ تساءلت زويا إنها فخمة كغرفة والدتك.

غرقت الفتاتان بالضحك، وأصيبتا بالدهشة حين دخلت جراء الكلاب إلى الغرفة، وراحت تلعب عند أقدامهما، فيما كانت زويا تدفىء يديها وتروي لماري قصص الفتيات في معهد سمونلي؛ كانت ماري تحب سماع هذه القصص. فهي قصص تختلف جداً عن قصصها مع أخيها وأخواتها، إن مع السيد غيليارد أو مع أستاذ اللغة الإنكليزية السيد جبس.

- شكراً للرب، لن أكون مضطرة لتحمل سخافات السيد غيليارد لأنه مشغول بالإهتمام بأخي، أما السيد جبس، فلم أره منذ أسبوع، إنه يعزل نفسه عن الآخرين مخافة أن يصاب بالحصبة.

ضحكت زويا لما قالته ماري التي كانت تجدل لها شعرها، مُنذ صغرهما تعودتا أن تجدل كل واحدة شعر الأخرى، فيما هما تتحدثان عن سان بطرسبورغ أو عن الناس، ولكن الحرب، بدلت أشياء كثيرة في نمط حياتهما، لم تعد هناك حفلات تقام في القصر، وحتى والد زويا لم يعد يدعو الأصدقاء مما سبب غماً وكدراً لها. إنها تحب الاختلاط بالرجال الذين يرتدون البذلات الأنيقة، وبالنساء اللواتي يرتدين أفخر الفساتين ويتزين بأغلى المجوهرات، حتى تجمع القصص والحكايات لترويها على مسمع ماري وشقيقاتها. ماذا كانت ترتدي الأميرة فلانة أو الأمير فلان، وكذلك لتروي على سمعهن قصص الحب والعشق بين الأميرات والأمراء؛ إنه المجتمع الأرستقراطي الروسي، وزويا ليست بعيدة عن هذا المجتمع، فهي قريبة القيصر من ناحية الأب ولهذا تتمتع ببعض الإمتيازات الخاصة التي لا يتمتع بها إلا كبار النبلاء، مع فارق بسيط هو أن منزل والديها ليس كقصر آنيتشكوف وأن زميلاتها هن من عامة الشعب العادي الذي يصنع التاريخ، لكن هذا لم يسبب لها إزعاجاً في يوم من الأيام.

«إنه سعيد جدا» قالت زويا وهي تشير إلى الكلب الذي يلاعب قدميها، واستطردت «كيف حال الجراء؟».

ابتسمت ماري وهزت كتفها «على أحسن ما يرام...» وأفلتت ضفيرة زويا الطويلة وأسرعت نحو دُرج طاولتها. إعتقدت زويا أن

هناك رسالة من أصدقاء مشتركين أو أية صورة جديدة لشقيقها ألكسي أو شقيقاتها.

عادت ماري وبيدها زجاجة عطر، فصاحت زويا «ما هذه؟».

- عطر باريسي رائع. قالت ماري وهي تقبل وجنتيها «إنها لك».

أوه، ماشكا.. هل هي.. هل هي؟ قالت زويا وهي تتنشق العطر.

- إنها ليلاس؟ (العطر المفضل لماري الذي تتمنى زويا أن تقتنيه)، كيف حصلتِ عليها؟

- إنها من ليلي التي عادت مؤخراً من باريس. وقد صمَّمتُ أن تكون لكِ، فأنا عندي واحدة أخرى».

أغمضت زويا عينيها وأخذت نفساً عميقاً وارتسمت على شفتيها ابتسامة فرح وبهجة.. الآن... عطر باريسي وجرو، وفي الصيف رحلة إلى ليفاديا أو نزهة على اليخت. إنها حياة سعيدة، لم تتأثر بالحرب التي كانتا تتحدثان عنها منذ قليل، وعن وحشيتها وما تسببه من مآس؛ كل يوم يزداد عدد الجرحى في القصر المجاور، عدا الذين ينقلون إلى أماكن أخرى أو يموتون. بالنسبة إلى ماري، وحشية الحرب، لا تساوي وحشية مرض النزاف الذي يعاني منه شقيقها ، إنه السر الذي تحاول العائلة أن تبقيه بين جدران القصر، ولا يعرفه أحد.

- أوليس هو بخير؟ أعني هل يُخشى من أن تسبب له الحصبة تعقيدات خطرة؟ قالت زويا وهي تمسك زجاجة العطر النفيسة بيديها. ولكن مُطمئنة: «أعتقد أن الحصبة لا تسبب له مشكلة صحية خطرة. واستناداً إلى ما تقوله والدتي، إن وضع أولغا أكثر دقة من وضعه، إنها

أكبر منه بأربع سنوات. وخجولة جداً، على عكس شقيقاتها الثلاث أو زويا».

«كان يوماً رائعاً.. رقصت من كل قلبي» قالت زويا وهي تتناول كوب الشاي من يد ماري وتابعت «أتمنى لو أحترف رقص الباليه».

ضحكت ماري. لطالما سمعتْ هذه الأمنيات، ولطالما باحت زويا لها برغباتها وأمانيها، «آه لو يكتشفني فوكين أو دياغليف».

... وغرقت الأثنتان في الضحك. غير أن لضحكة زويا رنين خاص، كل ما في تصرف زويا خاص ومميز، نظراتها، مشيتها، شعرها، وجنتاها، حركات يديها، حتى عناقها لصديقاتها كان مميزاً وخاصاً، كانت نحيلة الجسد، لكنها مفعمة بالحياة والحيوية. حتى اسمها خاص ومميز ويليق بها كفتاة صغيرة وكصبية وكامرأة «صدقيني ماري أتمنى ذلك.. حتى السيدة ناستوفا تثني على رقصي وعلى أدائي».

ضحكت ماري ثانية والتقت عيناها بعيني زويا وتعطلت لغة الكلام، وفكرت كل منهما بسرها بالسيدة ماتيلدا كستيسنكا، راقصة الباليه المشهورة وعشيقة القيصر قبل زواجه من ألكسندرا. إنها حكاية قديمة، ممنوع التحدث عنها إلا همساً وفي الليالي بعيداً عن مسمع الأولاد. سبق لزويا وتحدثت مع والدتها عن هذه القصة السر، فما كان من الكونتيسه إلا أن عنفتها متذرعة بأن أحاديث كهذه لا تليق بالصبايا من عمرها، أما جدتها فقالت: «كانت راقصة مميزة».

ـ أما زلت تحلمين بالذهاب إلى مارينسكي؟ تساءلت ماري بسخرية، رغم أنها تعرف تمام المعرفة من تكون زويا، وكيف تفكر، وتعرف متى تكون ساخرة أو جدية. وتدرك كل الإدراك أن حلمها بأن

تكون يوماً ما راقصة باليه هو حلم جدّي، وفي الوقت ذاته تدرك استحالة تحقيق هذا الحلم. وتعي أنها ستتزوج، وتنجب أطفالاً، وستكون سيدة أنيقة كوالدتها. كل متطلبات الأناقة متوفرة. لا بل متطلبات التميّز أيضاً. فهي واحدة من طبقة النبلاء، رائعة الجمال، مثقفة، تلقت تربية أرستقراطية مع التأكيد على التواضع. إذن، كل هذه المعطيات تقف سداً أمام تحقيق حلمها بأن تكون راقصة باليه مشهوره. لا في المستقبل القريب ولا في المستقبل البعيد. لذا، فمن السخرية بمكان، أن تكون اليوم، بعد ظهر أحد أيام شتاء، ما تزال تتحدث عن هذا الحلم.

على رغم من وجود مرض الحصبة، ما تزال ماري، لا تشعر بوطأة الحياة ومسؤولياتها: وجود زويا، ينسيها ما هو مطلوب منها. كابنة للقيصر، عليها أن تتصرف تبعاً لنمط حياتي معين، نمط حياتي قد يكون متناقضاً مع شخصيتها وأحلامها وأمانيها. إنها على ثقة أن والديها سيختاران لها، عاجلاً أم آجلاً رجلاً ليكون زوجها وشريك حياتها، دون أن يكون لها أيّ رأي؛ وحتى لا يحق لها الرفض؛ هما يختاران وهي توافق؛ بغض النظر عن المشاعر والأحاسيس. إنما.. ما يزال الوقت مبكراً، فهناك أختاها أكبر منها سناً، وتقضي العادات والتقاليد، أن تتزوجا قبلها. استرسلت ماري في تفكيرها حتى بدت وكأنها في عالم آخر.

ـ «ماشكا.. بماذا تفكرين؟ أما زلت معي؟» جاء صوت زويا دافئاً دفء النار في المدفأة، وناعماً رقيقاً، نعومة ورقة الثلج الذي يتساقط في الخارج، حيث بدأت العتمة تشق طريقها، وزويا ما تزال في القصر متناسية أن عليها أن تكون في منزلها قبل موعد العشاء.

ـ «لست أدري يا زويا.. مجرد سخافات» قالت ماري وهي تنظر إلى صديقتها وابتسامة صفراء ترتسم على شفتيها، كلتاهما في سن الثامنة عشر، سن تفكير الأهل بزواج بناتهم. إذن قد يترجم هذا التفكير، قريباً. إنما بعد إنتهاء الحرب». قالت ماري «كعادتي دائماً سأكون صادقة معك، أفكر منْ سأتزوج يوماً ما».

ـ وأنا أفكر بالزواج أحياناً. وتشجعني جدتي على هذا، حتى أنها تشير إلى الأمير أورلوق على أنه إنسان مناسب.

ـ «إنه لأمر مضحك فعلاً، هم يفكرون ويخططون ونحن ننفذ» قالت ماشكا وهي ما تزال تلاعب ضفيرة زويا.

ـ وأنت هل التقيت إنساناً تعتقدين أنه المناسب لك؟

ـ حتى الآن.. لا. من المفروض أن تتزوج أولغا وتاتيانا قبلي. ولكن المشكلة أن تاتيانا جدية جداً. ولا أتخيل أبداً أنها تفكر بالزواج.

كانت ماري أقرب شقيقاتها إلى والدتها، ويمكن القول إنها كانت طفلة العائلة المدللة.

ـ كم ولداً تودّين أن تنجبي يا ماري؟

ـ خمسة على الأقل. كانت ماري تحب عائلتها، ولهذا كانت تفكر بإنجاب خمسة أولاد أي العدد ذاته الذي أنجبته والدتها.

ـ أنا، قالت زويا، أتمنى لو أرزق بستة أولاد، ثلاثة صبيان وثلاث بنات.

ضحكت ماري قبل أن تعلّق على الفكرة قائلة:

ـ وهل تعتقدين أنهم سيرثون عنك لون شعرك وانسيابه ؟.

ثم انحنت وقبلت وجنتي زويا وقالت:

ـ تعرفين جيداً، أنكِ أغلى البشر عندي وأقرب صديقة، حتى أنكِ أقرب إليَ من شقيقاتي والتقت عيناهما، وأمسكت زويا يد ماري وقبلتها بحرارة الطفولة.

ـ كم كنت أتمنى لو تكونين شقيقتي لم يكن لزويا شقيقات، بل شقيق واحد أكبر منها سناً، أسود الشعر كوالده، أخضر العينين، هادىء الطبع، يبلغ الثالثة والعشرين من العمر، أي أنه يكبر زويا بنحو من خمس سنوات ونصف.

ـ كيف حال نيقولا هذه الأيام؟

ـ على ما هو، عنيد. ولكن والدتي تشكر الله على أنه في فرقة بريوبرا جنسكي، هنا وليس على خط النار، أما جدتي فتقول إن وجوده هنا يسمح له بحضور حفلاتها، ومن يدري قد ينتقي عروسة.

كانتا غارقتين في الضحك، حين فُتح الباب فجأة، لتدخل منه سيدة بارعة الطول. إنها الامبراطورة ألكسندرا، التي للتو انتهت من العناية ببناتها المريضات، وتبعتها قطة رمادية اللون.

ـ «أسعدتما مساءً يا عزيزتيَّ» وقفت الفتاتان، وتقدمت زويا لتقبل يدها.

ـ «كيف حال الجميع يا عمتي؟»

أخذت الامبراطورة زويا بين ذراعيها، وعلى شفتيها ابتسامة باهتة «ليسوا على ما يرام. والمسكينة آنا هي الأسوأ حالا. وأنتِ يا صغيرتي كيف حالك؟».

ـ أنا بخير.. وأشكر لك اهتمامك.

«أتصدقين يا زويا أنا جد متفاجئة: كيف سمحت لكِ والدتكِ بزيارتنا؟»، كانت الامبراطورة تدرك خوف الكونتيسة من انتشار وباء الحصبة، لكن زويا، أخبرتها بما جرى، وبأنها جاءت دون علم من والدتها. رفعت الأميرة يدها «ما الذي فعلته أيتها الشقية؟ ماذا ستقولين لها؟».

ضحكت زويا بخبث. وأطلعت العمة ألكسندرا على ما تريد قوله «كنت في مدرسة الباليه، رقصت كثيراً، أثنت السيدة ناستوفا على أدائي، فكان إن رحت أرقص وأرقص دون اهتمام للوقت».

ـ هكذا إذن...؟ مثلك مثل غيرك من بنات جيلك، تعرفين كيف تخترعين الأعذار، وكيف تحبكين الكذبة... فعلاً ما من أحد، بإمكانه أن يفرق بينكما». التفتت الأميرة نحو ابنتها «وأنتِ يا عزيزتي هل قدّمتِ لزويا هديتها؟» ضحكت النسوة الثلاث، رغم التعب الذي ينهك جسد الأميرة.

«نعم يا عمتي» قالت زويا وهي تنظر إلى زجاجة العطر الباريسي على الطاولة «ليلاس، إنه عطري المفضل».و بلمحة من عينها أفهمت الأميرة ابنتها ماري أن تتركها وحيدة مع زويا، وكان لها ما أرادت.

«كيف حال العم نيقولا؟» تساءلت زويا.

«نادراً ما أراه.. مسكين هذا الرجل، كان الله بعونه، عاد من الجبهة إلى بيته، وبدلاً من أن يجد الراحة، وجد نفسه محاصراً بالحصبة اللعينة».

لم تكد الأميرة تنهي كلامها، حتى عادت ماري ودخلت الغرفة وهي تحمل شيئاً محجوباً بقطعة قماش، اعتقدت زويا أنه قفص وفيه عصفور من النوع الذي تحبه، ولكن ما هي إلا لحظات، حتى انزاح القماش وأطل رأس بني مرقط بالأبيض، بأذنين طويلتين متدليتين وعينين مشعتين كرخام الأونيكس.. إنه جرو الكلب الذي طالما تمنت زويا أن تحصل عليه.

ـ آه كم هو جميل؟ مدت زويا يدها وراحت تداعب عنق الجرو فيما هو يهز ذنبه وأذنيه.

ـ «إنها هي وليس هو» قالت ماري «واسمها ساشا.. وهي تقدمة الماما لكِ.. نعم لكِ يا زويا».

مدت زويا يديها وأخذت الجرو من بين يدي ماري، وعيناها تعبران عن الفرح والإندهاش. «لي...؟... آه يا... ماذا...» أفقد الفرح زويا القدرة على إيجاد الكلمات المناسبة، للتعبير عن مشاعرها «ولكن... ماذا سأقول لوالدتي؟» برغم هذا التساؤل، لم تكن زويا راغبة في إعادة الهدية إلى ماري. وهذا ما أدركته الإمبراطورة.

«آه يا عزيزتي، تذكرت أن والدتك ليست مولعة بالكلاب. أليس كذلك؟ إننا مختلفتان حول هذا الأمر».

لا.. لا... أبداً قالت زويا وهي تشد ساشا إلى صدرها بيد وتداعبها باليد الأخرى فيما ساشا تمد لسانها الطويل لتلحس أذنها وعيناها تتنقلان بين زويا وماري والإمبراطورة. حاولت زويا أن تحني رأسها، فما كان من ساشا إلا أن راحت تداعب صدرها «كم هي جميلة؟ أحقاً هي لي؟».

«نعم إنها لكِ.. شرط أن تقدمي لي خدمة» قالت الإمبراطورة وهي ترمي جسدها على أحد الكرسيين الموجودين في الغرفة. لم تعد قادرة على الوقوف، أنهكها العمل، لاحظت زويا أن العمة ألكسندرا ترتدي ثياب عناصر الصليب الأحمر. هذا يعني أنها أمضت يومها بالإعتناء بالجرحى في القصر المجاور وهو العمل الذي ترغب من ماري القيام به.

ـ أتريدين شرب الشاي يا أمي؟ قالت ماري.

ـ «أكثر مما تتصورين.. شكراً لكِ يا ماشكا» نادت ماري الخادمة أن تأتيها بالشاي، وما هي إلا لحظات حتى كانت الخادمة قد عادت بما طلب منها. سكبت ماري الشاي وأخذت كل من زويا وماري كوباً، فيما ناولت الخادمة الكوب الثالث للأمبراطورة التي التفتت إلى زويا قائلة:

ـ كيف حال جدتكِ يا ابنتي.. منذ شهر ونيف لم أرها.. فكما ترين، لا أجد وقتاً للاهتمام بزوجي وابنتي ماشكا.. ولا وقت لدي لزيارة سان بطرسبورغ.

ـ إنها بخير.. ولكِ الشكر يا عمتي ألكسندرا.

ـ ووالدتكِ؟

ـ بخير، لكن أمي خائفة أن يُرسَل أخي نيقولا إلى الجبهة، وهذا ما يجعلها عصبية نوعاً ما كما يقول والدي.

ـ إنها دائمة كذلك، ينتابها القلق والخوف. أنا دائماً أراها جالسة على كرسيها الهزاز بثيابها الحريرية البيضاء ووجهها الشاحب وشعرها الأشقر المتدلي على كتفيها، وعنقها المزين بأغلى المجوهرات، ولكن

دائماً أرى الخوف في عينيها. عند بداية الحرب، تمنيت عليها أن تنضم إلينا في الصليب الأحمر، لكنها اعتذرت بسبب عدم قدرتها على رؤية الآخرين يتعذبون ويتألمون. إنها ليست من النوع الذي يمتلك القدرة على مجابهة الحياة. أتمنى إبلاغها حبي وتحياتي.

نظرت زويا إلى الخارج. فإذ بالعتمة تلف المكان، فقفزت من مكانها وهي تصرخ:

ـ عليّ العودة إلى المنزل، وإلا ستصاب أمي بنوبة قلبية.

ضحكت الأمبراطورة «ولكن عليكِ إخبارها الحقيقة.. قولي لها أين كنتِ، أعرف أن الظنون والوساوس ستنتابها من أن تلتقطي جرثومة الحصبة المنتشرة هنا».

ـ تأكدي لن أكذب، ولن أصاب بالحصبة، وفيما إذا أصبت فيكون مكتوباً عليّ ذلك، أتيت إلى هنا، أم لا..

تقدمت الإمبراطورة وغمرت زويا وقبلت وجنتيها:

ـ ستعودين إلى بيتك، أما أنا فسأعود للاعتناء بأولادي المرضى، وبالمسكينة آنا. خرجتا معاً: الأمبراطورة وزويا، وإذ بماري تلحق بها «أما تريدين ساقا؟».

والتقت العيون المملوءة بالحب «أفعلاً هي لي؟».

نعم إنها لكِ.. لا أنكر أنها المفضلة لدي، ولكن أرغب أن تكون لكِ.. ضعيها تحت معطفكِ. حتى تشعر بالحرارة والدفء فهي ما تزال صغيرة، عمرها أسابيع ليس أكثر. ولدت يوم عيد الميلاد الروسي.

ضحكت زويا، يعني أنها ولدت يوم كنا بزيارتكم أنا وأهلي..

- «زويا، عليكِ الذهاب الآن وإلا فعلاً ستصاب والدتكِ بنوبة جنون أو نوبة قلب».

نزلت زويا الأدراج وماري إلى جانبها، تساعدها على ارتداء معطفها، وفي الإسطبل، حيث كان ڤيودور بانتظارها، تعانقتا من جديد.

«إنتبهي لنفسك.. إياك والحصبة» قالت زويا.

«لا عليكِ..» قالت ماري وهي تناولها زجاجة العطر.

تقدم ڤيودور وساعدها بالصعود إلى العربة التي انطلقت عائدة نحو سان بطرسبورغ، فيما يد زويا تلوح لماري مودعة.

«علينا أن نسرع يا ڤيودور.. وإلا لن تكون أمي راضية». كانت تقول هذا وهي على يقين، أن الخيل مهما أسرعت، فلن تكون في البيت قبل موعد العشاء.

الفصل الثاني

انطلقت العربة عائدة إلى سان بطرسبورغ. ڤيودور يحث الخيول على الإسراع، حتى صارت وكأنها في سباق مع الظلمة. زويا تشد ساشا إلى صدرها، وتفكر بما ستقول لوالدتها، وأي عذر ستبتدع وكيف ستبرر تأخرها. كانت تدرك تماماً أن والدتها لا تخاف عليها، طالما هي مع ڤيودور الذي يرعاها ويهتم بها منذ طفولتها، وكأنها ابنة له. غير أن تأخرها، مع ذلك، سيسبب إزعاجاً؛ ولكن، ماذا عن هذا الجرو؟ كيف حصلت عليه؟

عند فونتانكا، انعطفت الخيول باتجاه القصر تلقائياً، ودون أي توجيه من ڤيودور. إنها تعرف طريقها، ليس إلى القصر وحسب، بل وحتى إلى المِذْوَد في الإسطبل. دقائق قليلة، وكان ڤيودور يمد يده ليأخذ يد زويا ويساعدها على الترجل من العربة.

وقفت زويا وجهاً لوجه مع ڤيودور، وهي تنظر إليه نظرة توسُّل واستعطاف «أرجوك ڤيودور.. إنها هدية من الأمبراطورة إسمها ساشا، أرجوك خذها إلى غالينا في المطبخ، وأنا سأراها فيما بعد».

ـ أتعرفين يا آنسة؟ أنا خائف أن تطيح والدتك برأسي، ولربما برأسك أنتِ.

ـ«أعرف أنها لن تتوانى عن فعل هذا.. ولكن ربما بابا... يتشفع لي

عندها، فهي لم تتعود أن ترفض له طلباً، وهو لم يسبق له أن رفض لي طلباً.. أسرع ڤيودور، فأنا على عجلة من أمري».

إنها السابعة مساءً، وعلى زويا تبديل ملابسها قبل ملاقاة والدتها في غرفة الطعام. أخذ ڤيودور الجرو فيما أسرعت زويا باتجاه غرفة نومها في الطابق الثاني، ليفاجئها صوت شقيقها.

ـ «توقف... من أنت؟».

استدارت زويا نحو شقيقها، الذي كان يقف عند أسفل الدرج وبادرته قائلة:

ـ ماذا تفعل هنا؟

كان شقيقها طويل القامة، بهي الطلعة.. ومعظم رفيقاتها في معهد سمونلي يتمنين لو يتكرم عليهن بابتسامة...

ـ أين والدتي؟ تساءلت زويا.

ـ وأين تتوقعينها أن تكون؟ إنها في غرفة الطعام.. ولكن أنتِ... أين كنتِ؟

ـ كنت في الخارج... وعليّ أن أسرع، لقد تأخرت.

ضحك شقيقها ولمعت عيناه الخضراوان «من الأفضل ألا تبدلي ثيابك.. وإلا عليكِ تحمل غضبها».

ترددت زويا قليلاً «وهل تفوهت بشيء؟ هل رأيتها؟».

ـ حتى الآن لا.. لقد وصلت لتوّي... للتحدث مع والدي. أسرعي وبدلي ثيابك، وسألهي والدتي حتى لا تلاحظ عدم وجودك.

لم تكن زويا تدرك مدى تعلق شقيقها بها، ولا مدى اعتزازه بقوة شخصيتها أمام رفاقه الذين يتمنون الحصول على حبها. بالوقت ذاته، كان على استعداد كلي لقتل أي واحد يحاول مس شعرة من شعرها. هي عنيدة، تلك الفتاة الصغيرة، تلك الفتاة الساحرة التي ممنوع على أي كان أن يتلاعب بمشاعرها وأحاسيسها، ولا بد، أن تتزوج، يوماً ما، أميراً، أو إنساناً من طبقة راقية، خلوقاً، تجتمع فيه كل صفات الرجولة، من الشهامة إلى حب التضحية، إنساناً يشبه والده.

أكملت زويا طريقها نحو غرفة نومها، لتعود، بعد عشر دقائق، مرتدية زي عناصر البحرية، رغم أنها لا تحب هذا الزي، لكن والدتها تحب أن تراها فيه، وهي ـ الآن خاصة ـ ترغب بكسب رضاها حتى لا تسمعها كلمات التأنيب والتوبيخ. كان يستحيل عليها دخول غرفة الطعام دون أن يلاحظ أحد. وفيما كانت تختال في مشيتها، رمقها شقيقها، من حيث كان يجلس بين جدته ووالدته، بنظرة ساخرة.

كانت الكونتسية، على غير عادتها، تبدو شاحبة الوجه، ترتدي ثوباً من الساتان الرمادي اللون، وتزين عنقها بعقد من اللؤلؤ الأسود والألماس، بدا لون عينيها، بلون الرداء الذي ترتديه، وهي ترفع رأسها لتنظر إلى زويا، نظرة تعبر عن عدم الرضا.

«زويا» لم تقل هذا بصوت مرتفع، ولكن يبدو واضحاً، من لفظها للحروف أنه كان تعبيراً عن غضب داخلي. وما إن التقت عيناها بعيني ابنتها، حتى أسرعت زويا لتقبل وجنتيها الباردتين.

«أنا فعلاً آسفة يا أمي، لقد تأخرت، بعد خروجي من مدرسة الباليه. كان عليّ زيارة صديقة غالية جداً على قلبي.. أنا فعلاً آسفة.. جد

آسفة... أنا... أنا.. كان عليّ الذهاب... أنا كنت...».

نظرت ناتاليا مباشرة إلى عيني زويا التي كانت تحاول إزاحة خصلات شعرها عن جبينها «أريد الحقيقة.. هل كنت في القصر الإمبراطوري؟».

«أنا..؟» لم يكن هناك ضرورة لقول المزيد. ولكن الكونتسية تريد سماع الحقيقة «نعم ماما.. كنت هناك...» قالت هذا بصوت طفولي بريء وكأنها ابنة عشر سنوات وتابعت «أنا جد آسفة».

«أنت فعلاً إنسانة مجنونة» قالت ناتاليا، وهي تنظر إلى زوجها، نظرة أقل ما يقال فيها، إنها تعبر عن غضب داخلي «لقد طلبت منها يا قسطنطين ألا تفعل ذلك، ألا تذهب إلى هناك حيث الكل مُصاب بالحصبة، ولا شك أنها ستصاب بها الآن.. أترى؟ إنها لا تطيع أوامري».

نظرت زويا إلى والدها، فإذا به يرمقها بنظرة حنق وغضب، لكن عينيه، تشعان وتصدران بريقاً بلون النار، دون أن يخفي إبتسامة حاول إخفاءها. نعم إنه يحب زوجته ويراعي أحاسيسها ومشاعرها، لكنه، بالوقت ذاته، يحب ابنته إلى درجة العبادة، ويثق بها كل الثقة.

هكذا وجد نيقولا نفسه مضطراً للتدخل لصالح شقيقته، وهذا نادراً ما كان يفعله، إكراماً لأمه ليس أكثر، من يدري، لربما فعلت ذلك بناءً لطلب الإمبراطورة؟.

صممت زويا، وهي تتخذ مكانها إلى الطاولة، بانتظار أن يأتي الخدم بعشائها، صممت على مواجهة والدتها «أنا من أراد الذهاب، وإن كان هناك خطأ فأنا المسؤولة ولا أحد غيري.. ماري تشعر بوحدة قاتلة».

ـ لكنه تصرف أحمق يا زويا. حسناً سنناقش الأمر بعد الإنتهاء من تناول الطعام.

«حسناً أمي» وأحنت رأسها وراحت تنظر بأطباق الطعام، لكن ما هي إلا لحظات، حتى انتبهت إلى وجود جدتها، فابتسمت وهي ترنو إليها بعينيها الساحرتين «أسعدت مساءً يا جدتي.. عمتي ألكسندرا ترسل لكِ حبها واشتياقها».

وهل هي بخير؟ تساءل قسطنطين.

ـ إنها بخير، تمضي وقتها بالإعتناء بالمرضى.

تدخلت جدتها «إنها حمقاء، لا تتوانى عن الإهتمام بالجميع، دون التفكير، أنها قد تصل إلى يوم تصبح فيه عاجزة حتى عن خدمة نفسها». وحدقت الجدة بحفيدتها «لا شك أن ماري كانت مسرورة جداً برؤيتك: أليس كذلك يا زويا؟».

ابتسمت زويا بارتياح «فعلاً كانت جد مسرورة» وإبعاداً للخوف من رأس والدتها تابعت تقول «لم ألتقي أياً من الآخرين. كلهم في غرف معزولة عن الأصحاء، حتى آنا ڤيريبوڤا.. مصابة بالحصبة».

«يا له من تصرف غبي» قالت الكونتيسه «لست قادرة على استيعاب تبريراتك ولا على فهم الدوافع التي جعلتك تذهبين إلى هناك.. أم أنكِ ترغبين أن تصابي بالحصبة أنتِ أيضاً؟».

«لا يا أمي.. فعلاً أنا آسفة» غير أن تعابير وجهها لم تكن تدل على الأسف والندم، إنما كلماتها تعبر عن ذلك فقط «لم أكن أنوي البقاء هناك

كثيراً، إنما، وعندما كنت أهم بالعودة، دخلت العمة ألكسندرا لتشرب الشاي معنا، ولم أشأ أن أكون قليلة التهذيب».

«طبيعي ألا تكوني قليلة التهذيب.. مهما يكن، فهي الإمبراطورة وابنة عمنا وإن كان من بعيد وتحبنا وتحترمنا» قالت الجدة بنبرة جازمة وهي تنظر إليها بعينيها الخضراوين، اللتين أهدت لونهما لكل من زويا وشقيقها. وحدها عينا ناتاليا كانتا بلون رمادي يميل إلى الزرقة، بلون السماء أيام الشتاء، وكأن لا أمل بحلول فصل الصيف.

ناتاليا كانت متطلبة جداً واتكالية، على عكس زوجها الذي كان يتمتع بالحيوية الزائدة، ويمنحها حباً لا يوصف، كان بوده لو تنجب له بعد ولدين أو أكثر، لكنها كانت عاجزة عن تحقيق رغبته، فحتى نيقولا وزويا ولدا قبل موعد الوضع، وأجهضت مرتين. كما كان عليها البقاء في سريرها طوال فترة الحمل بزويا ونيقولا.

كان قسطنطين يحب أصدقاءه، ويتمنى لو يقيم الحفلات في قصره، لكنها كانت دائمة التذرع بتوعكها الصحي للحؤول دون ذلك، والحقيقة، هي غير ذلك، فهي من النوع الذي يحب الإبتعاد عن الناس، ويجد في الجلوس على كرسي هزاز قرب المدفأة، سعادة أكبر بكثير من اختلاطه بالناس، على عكس زويا، المرحة، البشوشة الوجه، المحبة للحياة والاختلاط بالآخرين ولهذا كانت رفيقة والدها في تلبية الدعوات.

تمكنت ناتاليا من إقناع زوجها بعدم إقامة الحفلات في القصر، ولو مرة واحدة كل ثلاثة أشهر، لكن الجدة تدخلت هذه المرة ورأت ضرورة الإحتفال بتخرج زويا من معهد سومنلي في حزيران القادم،

وهكذا، ولربما تكون الحرب قد انتهت وسكت المدفع، ولا ضرورة أن تكون حفلة كبيرة، بل الإكتفاء بدعوة الأهل والأقارب والأصدقاء المقربين جداً.

«وماذا عن القيصر؟» تساءل قسطنطين، «هل أخبرتك ماري؟».

ـ «ماري لم تفعل ذلك، لكن العمة ألكسندرا أخبرتني أنه عاد مؤخراً إلى المنزل. وقد يعود ثانية إلى الجبهة».

ـ «أعرف هذا.. التقيته، منذ أسبوع. كان بحال جيدة، أليس كذلك؟» قال قسطنطين ناظراً باهتمام إلى ولده الذي كان يعتقد، والده لا شك يعلم بالإشاعات التي تتحدث عن الوضع الحرج للقيصر وعن إمكانية انهزام روسيا بالحرب. إنها إشاعات يصعب تصديقها. فالقيصر رجل محبوب من حاشيته، وخاصة من قسطنطين؛ فهما، كما زويا وماري، أمضيا طفولتهما معاً، وقد أسمى قسطنطين ابنه على اسم القيصر «نيقولاي» ووالده كان من الأقارب المقربين جداً لوالد القيصر، وعدا عن علاقة القربى، هناك علاقة حب وصداقة متينة، تربط العائلتين، وتوطدت العلاقة أكثر فأكثر، بعد زواجهما من امرأتين من أصل ألماني، ألكسندرا أصغر عمراً من ناتاليا، لكنها قادرة على تحمل المسؤوليات الجسام والإعتناء بالعائلة والوقوف إلى جانب زوجها، ساعة يكون بحاجة لها، والدليل الواضح، هو عملها في الصليب الأحمر والاهتمام بالجرحى، رغم المرض الذي يعاني منه ثلاثة من أولادها، ورغم أن ابنها يعاني من الوهن والضعف وهو بحاجة لرعاية دائمة؛ على عكس ناتاليا كلياً؛ مما جعل الكونتيسة الكبيرة تفضل لو تزوج ابنها من فتاة روسية.

التفت قسطنطين نحو ابنه والإبتسامة على شفتيه «وأنت يا حضرة الضابط لماذا أنت هنا؟» كان فخوراً بابنة لما يتمتع من صفات، الكل يثني على خصاله. وفوق هذا إنه مسرور لعدم وجوده على الجبهة. فهو لا يريد فقدان وحيده، يكفي روسيا ما خسرت من شباب في معركة «تانينبيرغ» صيف عام 1914 فلا أحد يلوم أباً يريد ابنه إلى جانبه وليس على خطوط النار. خاصة إن كان عنده زوجة كناتاليا، مرهفة الحس، عاطفية إلى ما لا حدود.

«أتيت للتحدث إليك، بعد العشاء إن سمحت» جاءت نبرة صوته واضحة ومعبرة عن قوة شخصية، الأمر الذي أثار انتباه والدته التي ترامى إلى أسماعها أن ابنها على علاقة حب مع إحدى الراقصات، فاعتقدت، أنه سيتحدث مع والده عن زواجه منها. لكن نيقولاي تابع يقول «لا شيء مهما».

رمقته جدته بعين ثابتة، إنها امرأة علمتها الحياة، أنه مهما كان الذي سيقوله لوالده، فهو من الأهمية بمكان، وليس كما يدعي «لا شيء مهما». كان نيقولاي قلقاً جداً مما يجري على الجبهة. لذا فحضوره اليوم هذا العشاء العائلي ليس لمجرد الإجتماع بالعائلة، لكنه، وحتى لا يفسح المجال لأي من الحاضرين أن يتكهن، التفت إلى زويا وقال «جئت لأتأكد من سلامة تصرف هذه الفتاة الصغيرة» فما كان منها إلا أن رمقته بنظرة معبرة عن شدة انزعاجها.

«إسمع يا نيقولاي، حتى اليوم، لم أتصرف إلا بما تمليه عليّ عضويتي في هذه العائلة»؛ قالت ذلك ثم أخذت نفساً عميقاً، فيما غرق هو بالضحك.

«فعلاً؟... وتصرفك اليوم ماذا يعني؟ أتيت متأخرة عن موعد العشاء، مبللة الحذاء، شعرك غير منسق، وكأنه ممشط بمذراة الحبوب...» كان يرغب بالمتابعة لكنها قذفته بالمحرمة.

نظرت ناتاليا إلى زوجها «قسطنطين، أرجوك أوقف هذا الجدال السقيم، قبل أن أخرج من نفسي وأثور».

«إنه نوع من الحب يا عزيزتي» قالت الكونتيسه ايفيجينيا «إنها الطريقة الوحيدة التي يحسنون التخاطب بها. حتى أبنائي كانوا يتقاذفون بالأحذية أحياناً وكل يشد شعر الآخر، أليس كذلك يا قسطنطين؟».

«أتمنى ألا أكون أسأت التصرف وأنا صغير يا عزيزتي» قال قسطنطين وهو ينظر إلى زوجته بحب وحنان؛ ووقف مبتسماً لكل الموجودين حول الطاولة، ودعا ابنه، للحاق به إلى إحدى غرف الجلوس، هو بدوره، مثله مثل زوجته، يخشى أن يكون الزواج هو موضوع هذا اللقاء.

ما إن جلسا قرب المدفأة، حتى تناول نيقولاي علبة سجائر فخمة مذهبة من جيبه، إنها سجائر علبة كارل فابيرغ.

«ما هذه يا نيقولاي؟» قسطنطين، مثله، مثل زوجته، ترامى إلى أذنه أن ابنه مغرم براقصة صغيرة السن رائعة الجمال.

«إنها هدية من صديق يا والدي».

ابتسم قسطنطين «ليس هذا ما يهمني، ولا هو ما يخيفني» ابتسم الإثنان، برغم أن نيقولاي ما يزال يافعاً، لكنه رصين رزين، يتمتع بذكاء حاد وبكل الصفات التي تجعل منه إبناً يُعتز به.

«لا شيء يقلق يا أبي، أعرف أنك سمعت الكثير عني، فلا شيء جدياً على الإطلاق. أعدك بذلك».

«حسناً، إذن ما الذي تريده؟ ولماذا أتيت الليلة على غير عادتك؟».

أجال نيقولاي نظره بين النار ووالده «إنه شيء أهم مما اعتقدت يا والدي. سمعت أخباراً عن القيصر، يقولون إنه مريض، وعاجز عن قيادة الجيوش في هذه الحرب اللعينة.. أسمعت شيئاً من هذا القبيل ؟.

ـ نعم... ولكني أعتقد أنه لن يخذلنا.

ـ كنت أمس مدعواً إلى حفلة في منزل السفير باليولوغي؛ وهو يعتقد أن أعباء الحرب تتزايد يوماً بعد يوم وأننا لم نعد قادرين على القيام بواجباتنا تجاه الجند، هناك نقص في التموين والمحروقات. علينا تأمين مستلزمات ستة ملايين جندي يقاتلون على خطوط النار، فيما نحن عاجزون عن كفاية منازلنا، ويعتقد أن روسيا ستنهزم والقيصر سينهار، أتعتقد أنه محق في اعتقاده؟

فكر قسطنطين طويلاً، ثم هز رأسه وقال: «لا.. لا أشاركه الاعتقاد، لا أنكر أننا نواجه مشكلات صعبة ، ولكن هذه روسيا يا ولدي، روسيا الجبارة العظيمة، ولا أية دولة صغيرة أو ضعيفة. نحن شعب قوي وصبور ومهما كانت المشاكل التي تواجهنا فلن تجعلنا نستسلم أبدا». هذا ما كان يعتقده قسطنطين، وهذا ما أراح ابنه نيقولاي.

ـ سيغلود مجلس الدوما للاجتماع ويناقش الوضع، فماذا سيحدث؟.

«لا شيء يا ولدي، فروسيا أبدية الوجود. عليك أن تتذكر هذا دائما».

مد قسطنطين يده وربت على كتفه وابتسامة عريضة ترتسم على شفتيه. «عليك أن تتذكر هذا دائماً يا ولدي».

ـ سأتذكر هذا..، هذا ما كنت بحاجة لسماعه.

ـ علينا أن نكون مستعدين لكل شيء. وعليك يا ولدي أن تكون قوياً، إن لم يكن من أجل القيصر، فمن أجل روسيا، من أجلنا جميعنا، من أجل بلادك، علينا كلنا أن نتحلى بالشجاعة، فالأيام السعيدة لا بد آتية، ولن تدوم الحرب إلى الابد.

ـ إنه لشيء مرعب.

أحسَّ نيقولاي أن عليه التفاؤل بمستقبل بلاده والإقتناع بقدراتها. لا أحد ينكر أن للحرب ضحاياها. ولكن أيهما أفضل، التضحية ببضعة آلاف، أم بمصير الوطن كلِّه؟ أحس نيقولاي ببعض الغباوة لأخذه كلام السفير الفرنسي على محمل الجد.

ـ «وماذا عن والدتي؟» تساءل نيقولاي، إنها أكثر شحوباً من الأول وأكثر عصبية. ابتسم قسطنطين وهو يهز رأسه قائلاً:

«إنها خائفة من الحرب.. وخائفة عليك.. وعليّ وعلى زويا.. إنها صعبة المراس نوعاً ما».

ـ لكنها رائعة أليس كذلك؟ كان نيقولاي يحس بفرح عظيم حين يتحدث عن زويا، وبالوقت ذاته ينتقد بعض تصرفاتها «أتصدق يا أبي.. نصف رفاقي الضباط من طبقة النبلاء غارقون في حبها...

وصدقني أتمنى لو بوسعي ذبحهم من الوريد إلى الوريد.. لست أدري لماذا؟... أخاف عليها حتى من نسمة الريح».

ضحك والده وهز رأسه مُعلقاً: «لم يكن من اللائق أن تقطع كل هذه المسافة ونحن في زمن الحرب، وأنت أدرى الناس بالحرب ومخلفاتها، على كلٍ ستتخرج في حزيران» إنه أملهما معاً أن تتخرج من معهد سومنلي.

ـ هل مَنْ تفكر به عريساً لها؟ تساءل نيقولاي.

ـ أنا شخصياً، لا احتمل فكرة زواجها، أعرف أنه من الغباء التفكير ببقائها عانساً. جدَّتك تفكر بالأمير أورلوف.

ـ إنه يكبرها بنحو سبعة عشر سنة. إنه في الخامسة والثلاثين... لا أعتقد أنه الرجل المناسب.

ـ إنه كذلك، ولكن لنعد الآن وإلا سنثير شكوك وغضب والدتك.

وانضم قسطنطين ونيقولاي إلى النسوة اللواتي كن يجلسن في إحدى غرف الجلوس، كانت زويا تدافع عن تصرفاتها أمام والدتها.

ـ والآن ما هي خطيئتك الجديدة أيتها الشقية الصغيرة؟ قال نيقولاي مُوجهاً كلامه إلى زويا.

ـ إياك وقول هذه الحماقات ثانية. قالت زويا.

ما هذا يا صغيرتي؟ قال قسطنطين لابنته فيما كان يراقب تعابير عدم الرضا ترتسم على وجه ناتاليا.

ـ «إنه لأمر مزعج» قالت ناتاليا بصوت ينمّ عن غضب داخلي يكاد ينفجر وتابعت «أليكس، قدمت لها هدية جد تافهة،

ولن أسمح، بأي شكل من الأشكال أن تبقى هذه الهدية هنا».

«وماذا قدمت لها؟.. أشهر لؤلؤة عندها؟ حسناً يا ابنتي، قد يأتي يوم تتزينين بها» قال قسطنطين مبتسماً، وغمز ابنه خلسة عن النسوة.

«أنا لا أعبث يا قسطنطين، توقعت منك غير ذلك، توقعت أن تطلب إليها إعادتها فورا».

«ولماذا؟ أهي وباء؟ حية رقطاء؟» تساءل نيقولاي.

«لا.. إنها إحدى جراء جوي» قالت زويا والدموع تتلألأ في عينيها «أرجوك أبي.. أعدك أن أعتني بها بنفسي وبعيداً عن عينيّ أمي.. أرجوك أبي».

رقّ قلب قسطنطين، بينما ناتاليا ما تزال تزرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً، تفرك يديها، والشرر يتطاير من عينيها اللتين بدتا وكأنهما ألماسة تلمع تحت أشعة الشمس.

«لا كلاب.. لا كلاب.. إنها تجلب الأمراض، وكلكم يعرف أني لست بصحة جيدة».

احتار قسطنطين ماذا يفعل؛ يريد إرضاء ابنته، وفي الوقت ذاته، يدرك أن ناتاليا عنيدة، ولن تتزحزح عن موقفها قيد أنمله.

«ماذا لو وُضعت في المطبخ.. أقول ماذا؟.

وانفجر غضب ناتاليا، فاتجهت نحو باب الغرفة، وفتحته بشدة: «أنت دائماً إلى جانبها.. لماذا؟».

ـ عزيزتي إنها من النوع الذي لا يكبر بل يبقى صغير الحجم.

ـ ولديهم كلبان آخران وقطة، وابن في حالة صحية سيئة قد تؤدي به إلى الوفاة.. أتعلم هذا؟ قالت ناتاليا مشيرة بذلك إلى الوضع الصحي للأمير ألكسي.

لا علاقة لمرض الأمير بالكلاب أو بالقطط. «ما رأيك لو تحتفظ به أمي في منزلها؟» والتفت إلى والدته، نظرة رجاء أن توافق على اقتراحه ، فابتسمت موافقة رغبة في إخماد العاصفة التي هبت بسبب كلب. مهما يكن، فهذه الهدية، ليست من إنسان عادي، بل من القيصرة بذاتها.

«حسناً فليكن ذلك» قالت الكونتيسه الكبيرة.

«جيد جدا» اعتقد قسطنطين أنه توصل إلى حل يرضي ابنته ولا يغضب زوجته التي أغلقت الباب خلفها بعنف، تاركة زوجها مدركاً أنه لن يراها قبل صباح اليوم التالي.

«حسنا» قال نيقولاي، الآن يمكنني العودة إلى ثكنتي مرتاح البال.

«هذا ما عليك فعله» قالت الجدة وهي تربت على كتف حفيدها الذي كان منحنياً يقبل يدها مودعاً وتابعت «ترامى إلي أنك تسير على طريق الخلاعة يا عزيزي».

«لا تصدقي كل ما تسمعين يا جدتي... عمتِ مساءً». قبّل وجنتيها ووضع يده على كتف والده «وأنت تصبح على خير يا أبي» ثم قبّل زويا وهو يغمرها بين ذراعيه.

«كوني حسنة السلوك أيتها المغفلة، وحاولي ألا تسببي المتاعب لوالدتك».

ـ «لم يطلب منك أحد توجيه النصح» قالت زويا بنبرة حازمة. وقبلته مجدداً «وداعاً أيها الصبي.. أنت فعلاً صبي مزعج».

ـ أنا لست صبياً، أنا رجل، أم أنكِ لا تميزين؟

ـ سأحاول التمييز يوماً ما.

لوح نيقولاي مودعاً الجميع ومضى.

ـ يا له من فتى رائع يا قسطنطين. يذكرني بك يوم كان لك العمر نفسه» قالت الجدة بفخر واعتزاز.

ـ إنه مزعج جداً. قالت زويا.

ـ لا إنه شديد الحرص عليك يا زويا قسطنطينوفا. قال قسطنطين ثم التفت نحو والدته «هل فعلاً ستحتفظين بهذا الجرو؟»).

ـ«صدقني أنا خائفة أن أثير غضب ناتاليا، التي ليس من المستبعد أن تطردنا جميعاً من المنزل». إنما سأفعل شرط ألا يمزق السجادة المحاكة يدوياً؛ هكذا سيكون عندي صديق صغير يسليني في وحدتي..

«شكراً ياجدتي» قالت زويا وخرجت من الغرفة لجلب ساشا.

ـ إنها فتاة جميلة ورائعة يا قسطنطين نيقولا ڤيتش.

ـ إنها تشبهك ... تشبهك في كل شيء ولهذا أنا أحبها كثيراً، أكثر مما يتصور أي إنسان.

لحظات وعادت زويا: «هذه هي ياجدتي.. أترين كم هي صغيرة.. أوليست جميلة؟»).

ـ «فعلاً إنها كذلك.. سأعتني بها. سأحضر لها الحساء.. إنه لأمر رائع

أن تتكرم ألكسندرا بإعطائك هذه الهدية. أتمنى أن تكوني شكرتها جيداً.. اسمعي يا صغيرتي، عليك مراعاة الوضع الصحي لوالدتك.. إنها إنسانة رائعة، لكن توعك صحتها يجعلها عصبية».

ـ «لا عليك يا جدتي.. سأكون عند حسن ظنك».

ودعت الجدة زويا ووالدها واتخذت طريقها نحو جناحها الخاص، في الجهة المقابلة للحديقة، رافضة أن يرافقها أي منهما، فهي ما تزال قادرة على الذهاب والإياب بمفردها.

تثاءبت زويا وتعابير الفرح تغطي وجهها. ساشا ستبقى هنا، ستراها كل يوم وستعتني بها، ولن تجعلها تقترب من والدتها. لقد كان يوماً رائعاً، رأت فيه ماري وتبادلتا الحديث وحصلت على هديتين، زجاجة العطر الباريسي «ليلاس» وساشا.

توجهت زويا نحو غرفتها ذات اللون الأرجواني، وهي تفكر بالعودة إلى القصر الإمبراطوري خلال اليومين المقبلين، وبهدية مميزة لماشكا.

الفصل الثالث

بعد يومين، كانت زويا تفكر بزيارة ماري مجدّداً، لكن، ما جاء به الدكتور فيدورف من أخبار، جعلها تعدل عن هذا التفكير. ماري انضمت إلى شقيقاتها في المعاناة من المرض، آنستازيا، تعاني من آلام في الأذن، إضافة إلى الحصبة، ويبدو أن الأمبراطورة، قد تصاب بذات الرئة... إذن عليها الإنتظار، ليس لأيام، بل لأسابيع.

أرأيتِ يا زويا؟ صاحت ناتاليا. «ومن يضمن الآن، أنك لن تصابي أنتِ أيضاً؟ أنتِ دائماً هكذا.. تخالفين أوامري، عنيدة.. تتسببين لي بالمشاكل وتجلبين المتاعب...

كان صدى زعيق ناتاليا، يتردد في كل أرجاء القصر، أسرع قسطنطين إليها، ليجدها في حالة توتر عصبي، لا تسمح بمناقشة أي أمر معها رغم إعطائها الدواء، رأى الدكتور فيدورف، ضرورة ملازمتها الفراش في محاولة لتهدئة أعصابها.

فيما الكل منهمك، بالوضع الصحي لناتاليا، كانت زويا، تمسك القلم، لتكتب رسالة إلى ماري الصديقة الأغلى والأحب، تحثها فيها على مقاومة المرض، وتتمنى لها الشفاء العاجل، «الصيف آت قريباً،

وسنلعب التنس في ليفاديا، كما في كل عام... وقريباً جداً، حالما تسمح حالتك، وحالة العمة ألكسندرا. سأكون إلى جانبك... ساشا هي الآن في رعاية جدتي، وقد بللت لها سجادتها... من كل قلبي أحبك يا ماري.. أحبك... أحبك».

التوقيع: زويا. وأرفقت الرسالة بكتابين ممتعين كهدية.

بعد ظهر هذا اليوم، عاد شقيق زويا إلى المنزل. فانفرجت أساريرها، رأت في وجوده نوعاً من التسلية والعزاء وفيما كان بانتظار عودة والدهما، اصطحبها نيقولاي بنزهة إلى المدينة، لإخراجها من مزاجها السيء بسبب أخبار ماري. كانت زويا، تدرك، أنه لربما لن يكون بمقدورها الخروج من القصر قبل أيام، قد تقصر أو قد تطول. لذا، فهذه رحلة غير منتظرة، تخفف من معاناتها النفسية.

ـ ما الذي جاء بك مجدداً يا نيقولاي، هل من أخبار سيئة؟

ـ «لا تتفوهي بهكذا سخافات... لماذا تفكرين هكذا، أيتها البلهاء الصغيرة؟» وأضاف «لكنك جميلة ورائعة».

عاد نيقولاي لرؤية والده، علّ هذا الأخير، يبدد مخاوفه بعد ما سمعه من خطابات ألقيت في مجلس الدوما. فقد ألقى الكسندر كيرنسكي، خطاباً تهديدياً، دعا فيه علناً إلى اغتيال القيصر، الأمر الذي أثار مخاوفه، لأنه يعني البداية لما تكهن به السفير باليولوغي، أي بداية مرحلة السقوط. فقد تكون الأحوال في البلاد أسوأ مما يتصور البعض، وهذا ما سبق للسفير البريطاني السير بوكانان، أن قاله، قبل سفره إلى فنلندا، في رحلة استجمام تستمر عشرة أيام. أخبار سيئة كثيرة، ترامت

مؤخراً إلى مسمع نيقولاي، ولهذا يرغب بالإستئناس برأي والده.

«أنت لا تأتي لزيارتنا عبثًا يا نيقولاي» قالت زويا، فيما العربة تسير على طريق نيفسكي والثلج يتساقط، وبدت الأشجار كعروس ترتدي ثوبها الأبيض يوم زفافها. لكن نيقولاي، أصر على ما سبق وقاله، أن لا شيء يدعو إلى القلق. برغم ما ينتابها من مخاوف، تظاهرت أنها تصدق ما يقول.

ـ«إنه لأمر رائع أن تبدي هذا الإهتمام يا زويا، لكن مخاوفك ليست في محلها. إنما النقطة الأهم، هل تعتقدين أنه من الصواب إزعاج والدتك وإثارة غضبها؟ لقد علمت بكل ما جرى لها، إنها تلازم فراشها بسببك، وأن الطبيب زارها مرتين».

«لا ليس بسببي، بل بسبب ما سمعته من الدكتور فيدوروف عن مرض ماشكا».

ـ «وأنت التالية.. أليس كذلك؟».

ـ «لا تكن غبياً، فأنا لن أمرض أبدا».

ـ لا تجزمي في أمور كهذه. بالطبع لن تذهبي إلى هناك مجدداً.

ـ لن يُسمح لي بذلك، ولا أحد بإمكانه زيارتهم.. إنما المسكينة أنستازيا، تعاني من آلام في الأذن.

ـ قريباً سيكونون بخير، عندئذٍ يمكنك زيارتهم ساعة تشائين.

أحنت زويا رأسها دلالة الموافقة على قول شقيقها. «بالمناسبة، كيف حال راقصتك يا نيقولاي؟».

شكّل السؤال مفاجأة «ومن قال لكِ أني مغرم براقصة؟».

الكل يقول ذلك، مثلك، مثل العم نيقولا، فهو كان مغرماً براقصة أيضاً، قبل زواجه من العمة ألكسندرا. كانت تتكلم معه باستراحة كلية. رغم أن العديد من الأهل، يعتقدون، أنه ما زال مبكراً جداً أن تتكلم فتاة بعمرها عن مواضيع كهذه. يعتقدون هذا، وفي الوقت ذاته يبحثون لها عن العريس المناسب.

ـ كيف تتكلمين معي مواضيع كهذه؟

ـ لي الحق في ذلك، يا شقيقي. أهي جميلة؟

ـ كيف لي أن أعرف، إن لم يكن لها وجود أساساً. وبالمناسبة، هل هذا ما تعلمته في معهد سمونلي؟

ـ لم أتعلم شيئاً هناك. قالت بلهجة ساخرة. في سمونلي، كل شيء صارم، كما في المدرسة الحربية الإمبراطورية المخصصة لأبناء النبلاء والضباط ذوي الرتب العالية. «فوق هذا.. ألا تعرف أني قريباً سأتخرج من معهد سمونلي؟».

ـ «أتمنى ذلك من قلبي، وسيكون يوماً رائعا».

غرق الإثنان في الضحك، واعتقد نيقولاي أنه تخلص من أسئلة شقيقته المحرجة، لكنها كانت مصرة على تساؤلاتها: «حتى الآن لم تقل لي شيئاً عن صديقتك يا نيقولاي».

ـ «أنتِ فتاة مزعجة يا زويا قسطنطينوفا».

ضحكت زويا مجدداً، فيما قاد نيقولاي العربة عائداً إلى القصر في

فونتانكا، حيث دخل غرفة والده التي تحتوي العديد من الكتب والمخطوطات، إضافة إلى تحف فنية ولوحات لكبار الرسامين.

«والآن يا والدي، ما رأيك؟».

«حقيقة... لست أدري لماذا أنت قلق هكذا؟ لا أنكر أن هناك شيئاً في الشوارع، لكن الجنرال خابلوف قادر على الإمساك بزمام الأمور. ليس هناك ما يدعو إلى القلق يا ولدي». ابتسم قسطنطين، معبراً عن اعتزازه بابنه الذي يبدي اهتماماً بما يجري، إن في المدينة أو في روسيا كلّها، هذا يعني أن مستقبلاً زاهراً ينتظره «لا شيء يدعو إلى القلق.. هذه دلالة على أنك ضابط ممتاز» تذكر قسطنطين شبابه، واستعاد ذكريات تلك الأيام التي كان له فيها عمر ابنه، وتمنى لو أن عمره يسمح له بالذهاب إلى الجبهة. إنه يحب القيصر، ابن خاله، كما يحبُّ بلاده.

ـ «ولكن.. ألم يسبب لك خطاب كيرنسكي أي قلق يا والدي؟ إنه خيانة للقيصر والوطن».

ـ «وهو كذلك. ولكن لا أحد يأخذ كلامه على محمل الجد. ولا أحد ينوي اغتيال القيصر. لا أحد يجازف ويُقدم على هذا الفعل. هذا، إلى أنّ القيصر، واعٍ ومدرك لما يحيط به، وهو قادر على حماية نفسه. برأيي، وجوده في المنزل حالياً، بين هؤلاء المرضى، هو أكثر خطورة من وجوده بين عامة الناس. أو على الجبهة.. على كلٍ سأتصل بالسفير بوكانان فور عودته من إجازته للتحدث معه حول هذا الموضوع وغيره. ويهمني جداً سماع رأيه، كما سماع رأي السفير الفرنسي باليولوغي.. سأدعوهما إلى العشاء وستكون أنت أيضاً مدعواً يا نيقولاي».

ـ «أتعرف أمراً يا والدي؟».

ـ «ما هو؟».

ـ «حديثك يبدد مخاوفي».

ـ «وأنا يسرني التحدث إليك يا ولدي».

لكن هذا، لم يعنِ، أن المخاوف قد زالت من رأس قسطنطين. على العكس، كان لديه إحساس بازدياد الخطر، فكر بالذهاب لمقابلة القيصر وجهاً لوجه، غير أنه، تذكر أن القيصر ليس بوضع يحسد عليه، إذ تكفيه مشاكله العائلية، لذا، فالوقت غير مناسب.

بعد أسبوع بالتمام، وتحديداً يوم الثامن من آذار، عاد القيصر إلى الجبهة في موغيليف، على بُعد خمسماية ميل من سان بطرسبورغ؛ وفي اليوم ذاته، كانت الأحداث تتالى في الشارع. الناس تقف صفوفاً طويلة أمام الأفران يصرخون «نريد خبزا».

في المساء، استُدعي فوج من الجنود القوزاق للسيطرة على الوضع. وفي الليل، كان السفير باليولوغي يقيم حفلة عارمة في مقر السفارة، بحضور الأمير غورتاكوف، الكونت تولستوي، ألكسندر بينوا، والسفير الإسباني. لكن قسطنطين لم يكن بين الموجودين، بسبب ناتاليا التي ـ كالعادة ـ تذرعت بوضعها الصحي وامتنعت عن مرافقته وهو بدوره أبى أن يتركها وحيدة. لكن رُب ضارة نافعة. هذا ما ردّده بعد سماعه عما فعل المشاغبون في المدينة وأطرافها. حتى أنهم أحرقوا قطاراً تلك الليلة.

بشكل عام، لم يكن أي من المسؤولين يولي ما يجري في الشوارع اهتماماً كافياً، بل اعتبروه نوعاً من ثورة الغضب، وحاولوا التأثير نفسياً على الناس. إذ ما أن أشرقت شمس اليوم التالي، حتى دُفع بالكثير من المواطنين للتجول في ساحة نيفسكي وفتحت المتاجر أبوابها، وأعطيت الأوامر للجنود القوزاق بمعاملة المواطنين معاملة حسنة.

لكن، يوم السبت العاشر من آذار، حدث ما لم يكن بالحسبان، انتشر المشاغبون في العديد من الشوارع، وفي اليوم التالي، سقط قتلى وجرحى. في هذه الليلة بالذات، ورغم كل شيء، أقام رادزويل حفلة يصعب وصفها، ليس بهدف المرح واللهو، بل للإيحاء أن كل شيء على ما يرام. لكن هذا لم يتمكن من جعل المسؤولين والمقربين منهم، أن يتجاهلون التقارير التي تقول بتنامي أعمال الشغب في كل مكان، وفي المدن الكبرى خاصة.

وبُعيد الظهر، أخبرت زويا جدّتها التي كانت تلاعب ساشا، أن ماري تعاني من مشاكل صحية متعددة، وفقاً لما أخبرها السيد جبس الذي يلقن ماري أصول اللغة الإنكليزية، والذي زارها هذا الصباح لينقل إليها تحيات الجميع في القصر الإمبراطوري، «كان بودي لو بمقدوري زيارتها يا جدتي، لكن أمي منعتني حتى من الذهاب لحضور دروس رقص الباليه، وأيدها والدي، بسبب ما يجري في الشوارع».

«قليلاً من الصبر يا صغيرتي.. ليس مستحسناً أن تنزلي إلى الشوارع، فيما البؤساء الجائعون، يعبّرون عن معاناتهم».

«مساكين هؤلاء الناس، أليس كذلك يا جدتي؟» كان من العسير

على زويا التي تعيش متنقلة من قصر لآخر، وتمضي عطلة الصيف على متن يخت فوق عباب الموج، أو في أرقى المنتجعات، أن تدرك ما معنى معاناة هؤلاء الناس «أتمنى لو نقدم لهم بعضاً مما لدينا».

ـ «كلنا نتمنى ذلك أحياناً يا صغيرتي، ولكن عليك أن تعرفي أن هناك بشراً كثراً بحاجة للقليل القليل مما نتناوله يومياً. هم بحاجة للغذاء والدواء والملابس التي تقيهم برد الشتاء، وليسوا بحاجة لحضور الحفلات ولا للثياب الفاخرة».

ـ «وهل هذا عمل سيء؟ أعني ما نقوم به؟».

ـ «لا، ليس أمراً سيئاً، إنه جزء أساسي من الإمتيازات التي تتنعّم بها. لا تنسي هذا أبدا».

ـ «لكن والدتي تقول، إنهم أناس عاديون ولا يعرفون العيش مثلنا. أتعتقدين ذلك؟».

ـ «لا تكوني حمقاء يا صغيرتي.. أتعتقدين أن أحداً يرفض النوم في سرير مُريح، وارتداء ثياب فاخرة، وسد جوعه بأطايب الطعام، والتنزه في أرقى المنتجعات؟ إن من يعتقد ذلك، لا شك أنه جد أحمق.

ـ من المؤسف يا جدتي أنهم لا يعرفون العم نيقولا ولا العمة ألكسندرا وبقية أفراد العائلة، إنهم بشر طيبون ولا أعتقد أن أحداً يكرههم.

ـ المشكلة يا ابنتي أنه يستحيل على هؤلاء الناس أن يعرفوا من هم داخل القصر. إنهم لا يعرفون مدى اهتمام القيصر بعائلته، ولا تألمه بسبب مرض ابنه، ولا هو يعرف مدى معاناة هؤلاء البشر، مدى توقهم

لسد جوعهم، لتعليم أولادهم، للنوم ولو ليلة واحدة، بدون كوابيس.. بودي لو أتمكن من زيارة القصر للإطمئنان على صحة الأولاد.

ـ وأنا كذلك، لكن أبي يمنعني أن أخطو لو خطوة واحدة خارج المنزل.

ـ «لديه الحق في ذلك». قالت الجدة وهي تنظر إلى حفيدتها التي يتألق جمالها يوماً بعد يوم. شعر أشقر طويل ينسدل على الكتفين، عينان خضراوان واسعتان. أرجل طويلة وجسد متناسق وخصر نحيل بإمكان الطفل أن يحيطه بيد واحدة.

ـ «جدتي.. إنه لأمر مُمل...».

ـ «حكماً أنتِ لا تحاولين الثناء عليّ، كثيرون وجدوني مملة، لكن أحداً لم يقل ذلك بهذه الوقاحة».

ـ «آسفة جدتي.. لم أكن أعني أنكِ أنتِ مملة، بل هذا السجن الذي أنا فيه، وحتى شقيقي لم يعد يأتي إلى البيت كثيراً، لأتسلى وألهو معه».

تبين فيما بعد، أن عدم حضوره، كان بسبب، إعلان الجنرال خابالوف منع التجمعات والتظاهر، والتشديد على أن كل من يخالف هذه الأوامر سيعتقل ويرسل للقتال على الخطوط الأمامية للجبهة، لكن أحداً لم يكترث، لهذا الإعلان، واستمر الناس في التظاهرات الاحتجاجية، إن في ساحة تيبورغ، مروراً على جسر تيفا، وصولاً إلى جميع شوارع المدينة.

عند والنصف، بدأ الجنود بإطلاق النار لتفريق الناس الغاضبين المتجمعين في ساحة نيفسكي مقابل قصر أنيتشكوف. في غضون

ساعات سقط ما لا يقل عن مايتي قتيل، وانتقل التململ من الناس العاديين، إلى الجنود أنفسهم، فرفض حراس شركة باڤلوسكي إطلاق النار على الجماهير، ليس هذا وحسب، بل حتى أنهم وجهوا رصاص بنادقهم إلى صدور كبار الضباط، الأمر الذي استدعى نزع سلاحهم.

أراد قسطنطين، تقصي حقيقة ما يجري بنفسه، فنزل إلى الشوارع ليرى بأم العين، ما لا يرغب أحد من النبلاء الإعتراف به. جموع غاضبة، وجنود ينضمون إليها، وليعلم أنه تم تجريد جنود كتيبة باڤلوسكي من أسلحتهم، إنما بعد وقوع خسائر بشرية «قليلة جداً». لكن هذا كان يعني المئات. لم يجد أمامه بد من العودة إلى منزله وانتظار الأخبار، خاصة عن ولده نيقولاي. في طريق العودة رأى الأنوار المنبعثة من قصر رادزويل، حيث مايزال هناك أناس يرقصون، يلهون، يشربون الخمر ويتناولون من الطعام، ما لذ وطاب، فيما هناك، على بعد أمتار، ليس أكثر، يسقط الجياع قتلى بسبب صراخهم «نريد خبزاً». أحس قسطنطين أن خطراً يتهدد ابنه، ورأى أنه لا بد من مقابلة السفير باليولوغي صبيحة اليوم التالي.

من بعيد نظر قسطنطين إلى قصره، فرأى جنوداً وخيولاً تحيط به، ولما اقترب، سمع صراخاً وبكاء، أحس بقلبه ينفطر، أدرك أن ما كان يخشى حدوثه، قد حدث «يا إلهي.. يا إلهي..» انهمرت الدموع من عينيه غزيرة، رجلان يحملان نيقولاي المضرج بالدم، لقد أقدم أحد عناصر باڤلوفسكي على إطلاق النار عليه فأصيب بسبع رصاصات، على ما أخبره أحد الجنود. أمر قسطنطين بإدخال نيقولاي إلى داخل القصر. وطلب من فيودور إحضار طبيب زوجته بأسرع وقت.

أدرك الجميع أنه فات الآوان، وأنه لا مجال لإنقاذ حياة نيقولاي إلا بأعجوبة إلهية. كان نيقولاي ينظر إلى والده بعينين جامدتين، في القاعة الكبرى، طُلب من جميع الخدم إحضار الضمادات في محاولة لوقف نزيف الدم. تجمعت العائلة حول وحيدها، فيما دمه ينساب على البلاط الرخامي ويبلل السجاد والبسط. ركعت زويا إلى جانب شقيقها، بوجه شاحب، لا يختلف لونه عن لون الطبشور «نيقولاي.. نيقولاي.. أحبك أكثر مما يتصور عقل.. أنا زويا.. أنا بحاجة إليكَ يا أخي».

«ماذا تفعلين هنا؟» رد نيقولاي بصوت متقطع.. تأكد للجدة أن حفيدها لا يرى أحداً، وحتى أنه لا يعرف أين هو. فطلبت من زويا تمزيق تنورتها لتصنع من قماشها ضمادات لجراح نيقولاي.

انحنى قسطنطين قبّل جبهة ولده والدموع لا تكفُّ عن الإنهمار.

«بابا.. هل أنت هنا يا والدي؟.. زويا كوني فتاة طيبة، أنا أحبك يا زويا» قال هذا وابتسم آخر ابتسامة. لقد رحل نيقولاي الصغير.

أغمي على ناتاليا، فيما الكل، حتى فيودور، يبكي وينتحب.

«تعال يا ولدي» قالت ايفيجينيا «دع الخدم يأخذون الجثة إلى الطابق الثاني»، أمسكت يد ابنها وأخذته إلى غرفة المكتبة، أجلسته على كرسيه. لم يعد هناك مجال لفعل شيء، أو حتى لقول شيء، لم يعد للكلمات معنى ولا تأثير، فالمصيبة كبيرة. كانت زويا إلى جانبها، تمسك ذراعها، وكأنها تستمد قوة الصبر من جدتها التي تحسن مواجهة النكبات.

نظرت ايفيجينيا إلى وجه ولدها الشاحب، أجبرته على تناول القليل

من البراندي. وكذلك فعلت مع زويا التي رفضت في البدء تناول الكأس ، لكن الجدة أصرت عليها أن تشرب ما فيه.

«ما يزال في مقتبل العمر.... لا.. أرجوك يا إلهي.. لقد قتلوه.. آه يا إلهي» قال قسطنطين، وهو يتلوى على كرسيه، فجأة ارتمت زويا بين ذراعيه، لم يعد لها إلاه. إنه الصخرة الوحيدة القادرة على الإحتماء بها. كان الندم يغتالها. إنها نادمة جداً على ما وصفته به بعيد الظهر، حين تأخر في العودة إلى البيت حين كانت بحاجة إليه «نيقولا الأحمق.. لقد رحل الأحمق ولن يعود.. أليس كذلك يا جدتي؟» والتفتت إلى والدها «ما الذي جرى يا أبي؟».

ـ «لست أدري يا صغيرتي، كل ما أدريه أنهم قتلوا ولدي». قال هذا ونهض من مكانه، قاصداً غرفة زوجته، تاركاً زويا برعاية جدتها القلقة على ولدها أكثر بكثير من قلقها على زوجته المجنونة. إنها تخشى أن يكون موت نيقولاي، سبباً في تدمير حياة ابنها. «لا تقلق على ناتاليا.. إنها برعاية الطبيب».

ـ «آه أمي....» أخذ قسطنطين والدته بين ذراعيه وضمّها إلى صدره وهو يضع رأسه على كتفها وزويا تضم الاثنين معاً.

ترك قسطنطين غرفة مكتبه واتجه نحو غرفة زوجته، فيما خرجت زويا إلى القاعة الكبرى التي كان الخدم قد أزالوا أثار الدماء عن أرضها، وحتى السجاد لم يعد موجوداً. لا شيء في هذه القاعة سوى الصمت الرهيب. «هنا ولد وهنا مات... مسكين نيقولا.. كان عمره قصيراً.. فقط ثلاثة وعشرون عاماً..» قالت الجدة وهي تمسك بيد زويا

لتأخذها إلى جناحها الخاص «عليك التحلي بالصبر يا صغيرتي، عليك أن تكوني قوية، والدك بحاجة إليك.. كلنا الآن بحاجة إليك.. لا أنكر، حياتنا لن تعود إلى ما كانت عليه ولكن الحياة ستستمر يا ابنتي...».

ضمت الجدة صغيرتها إلى صدرها وقبلت جبينها البارد كما الثلج «عليك أن تتذكري شيئاً مهماً يا صغيرتي.. كان يخاف عليكِ من نسمة الريح... كان يحبك أكثر مما تتصورين».

الفصل الرابع

أيام هي أشبه بكوابيس. نيقولاي ما يزال ممدداً على سريره في الغرفة التي عرفته طفلاً، مشاغبا حيناً وهادئاً أحياناً، في الغرفة التي أودعها أحلامه وأمانيه، ممدداً مرتدياً البذة الرسمية، والشموع من حوله إضافة إلى ورود حمراء وبيضاء منثورة قربه على السرير أو فوق جثته.

سان بطرسبورغ، لم تعد سان بطرسبورغ التي كانت قبل أسبوع. كل شيء تغيّر، وما يزال يتغير. فرق عسكرية كثيرة، تمردت على قادتها وانضمت إلى الثوار الغاضبين حاملي الرايات الحمر. لم يبقَ مركز حكومي إلا وهُوجم أو أُحرق، من قصر العدل إلى قلعة القديسين بطرس وبولس مروراً بمصانع الأسلحة، الثكنات العسكرية، وزارة الداخلية ومقر البوليس السري.

بدا واضحاً أن هناك أمرًا أخطر بكثير مما كان توقعه السفيران الفرنسي والبريطاني، وصار لزاماً على القيصر العودة إلى المدينة وتشكيل حكومة طوارىء للسيطرة على الوضع. لم يكن القيصر قادراً على استيعاب الذي جرى ويجري. منذ بضعة أيام كانت المدينة هادئة، أما اليوم فهي مدينة الموت والأشباح، يجب أن يكون في مقر القيادة العسكرية في موغيليف على الجبهة، وفي الوقت ذاته عليه العودة، خاصة بعد أن تلقي إتصالاً من رئيس مجلس الدوما، أبلغه فيه، أن عائلته

لم تعد في مأمن من الخطر، وألح عليه أن يعود، ولو من أجل زوجته وأولاده المرضى. حتى الإمبراطورة لم تعد تمتلك حس الفهم والإدراك، هل ما يجري هو مجرد أعمال شغب، أم هو ثورة حقيقية؟

الجنرال خابالوف، رغم اشتداد العاصفة الثلجية، أرسل يبلغ الإمبراطورة ضرورة المغادرة فوراً ودون إبطاء، واضعاً تحت تصرفها ألفاوخمسماية جندي موثوقا بولائهم لحمايتها مع الأولاد. لكن ألكسندرا رفضت الإستجابة إلى طلبه متذرعة بأنها لن تغادر القصر قبل عودة القيصر، موضحة أن الأولاد في وضع صِحّي لا يسمح لهم بالسفر، وبخاصة ماري التي إضافة إلى الحصبة، تعاني من التهابات في رئتيها. لكن المستغرب، أن الجنود الألف وخمسماية الذين كان خابالوف يثق بهم، انقلبوا عليه وانضموا إلى الثوار.

في اليوم ذاته، أُحرقت قصور عدة في المدينة أو نهبت؛ وقسطنطين كان يدفن الفضة والذهب والأيقونات في أرض الحديقة. زويا، والخدم والجدة، منشغلون بوضع المجوهرات واللؤلؤ والألماس في ثنايا التنانير والفساتين والسترات وإعادة إخاطتها من جديد. ناتاليا، لم تعد كالمجنونة، بل صارت مجنونة فعلاً، تدخل وتخرج من الغرفة الممدد فيها جسد وحيدها الذي يستحيل على العائلة دفنه. الثوار والمتمردون في كل مكان.

«ماذا علينا أن نفعل الآن يا جدتي؟» قالت زويا والخوف يسيطر عليها فأصوات الرصاص تتقطع حيناً وتتواصل أحياناً.

«ليس بمقدورنا فعل شيء يا ابنتي قبل الانتهاء مما نفعله، أسرعي يا زويا، ضعي حبات الألماس هذه في سترتي الزرقاء، وانتبهي أن تكون

الخياطة جيدة ومحكمة. كلتاهما تخبئان ما غلى ثمنه وخفَّ وزنه في الثياب، والدمع يبلل خديهما، كانتا تبكيان بهدوء وصمت. قسطنطين في القصر الشتوي للإمبراطور إلى جانب الجنرال خابالوف، وما تبقى من ضباط وجند موالين. لقد ترك عائلته وأتى إلى هنا، علّه يستوعب ما يجري.

«وماذا سنفعل بـ ...» قالت زويا دون أن تكون قادرة على لفظ إسم شقيقها. فهي تعتقد، أنه من غير اللائق أبداً، تركه ممدداً في غرفته، فيما هما هنا منشغلتان في إخفاء الجواهر.

«سنفعل كل شيء في وقته، كوني هادئة يا صغيرتي، علينا انتظار عودة والدك فهو الذي يقرر» ساقا كانت تداعب قدمي زويا، دون دراية منها أن حياتها مهددة بالخطر أيضاً.

عند الصباح حاولت الكونتيسة الأم، جلب ناتاليا إلى جناحها، لكنها، رفضت وأصرت على البقاء إلى جانب جثة ولدها، لتتحدث معه وكأنه ما يزال على قيد الحياة، مؤكدة له أن كل شيء سيكون على ما يرام، وأن والده سيكون قريباً في المنزل.

إيڤيجينيا، استعانت بخدم ناتاليا لمساعدتها في إخفاء اللؤلؤ والألماس، قبل وصول الثوار ونهب كل شيء كما فعلوا في كل القصور. وفي الوقت ذاته كانت تفكر عمّا إذا كان بمقدورهم الوصول إلى القصر الإمبراطوري.

ألكسندرا، حائرة ماذا عليها أن تفعل، أولاد مرضى، وماري أسوأهم حالاً وكذلك آنا، والجنود المتمردون وصلوا إلى القرية وبدأوا بنهبها وإطلاق النار عشوائياً، ارتعب الأولاد من أصوات الرصاص،

لكنها هدّأت من رعبهم وأخبرتهم أن الجيش ينفذ مناورة بالقرب من القصر. أرسلت للقيصر كتاباً ترجوه فيه العودة بأسرع ما يمكن. ولكن ما العمل، حتى الفرق العسكرية التي كانت تعتبر الأكثر ولاء ـ بما فيها فرقة الحرس الامبراطوري المكلفة بحماية العائلة المالكة ـ قد انسحبت من مواقعها، وبدلاً من الدفاع، صارت هي بدورها تساند الثوار وتقف إلى جانبهم.

يوم الأربعاء، الرابع عشر من آذار، سقطت مدينة سان بطرسبورغ، وتغير كل شيء، إنه أمر لا يُصدق، لا أحد قادراً على الإمساك بزمام الأمور. الوزراء وكبار الجنرالات، طالبوا القيصر بالتنازل عن السلطة لصالح ابنه، ووضعه تحت وصاية ميخائيل الدوق الأكبر الذي هو شقيق القيصر، لكن لا أجوبة وصلت.

زويا وجدتها، لم تكونا بحال أفضل، فقسطنطين الذي غادر القصر منذ يومين، لم يعد حتى الآن، ولا خبر عنه، لكن ڤيودور، رغب بالمخاطرة، فقصد القصر الشتوي ليعود منه بخبر غير مُسِر ولا مفرح، مات قسطنطين. بقيت إيڤيجينيا متماسكة، رغم كل المصائب التي تنهال عليها، فطلبت من الخدم العمل بسرعة أكبر في إعادة وإخاطة الثياب التي خُبئت فيها المجوهرات وقررت دفن جثة نيقولاي في حديقة القصر، ثلاثة أيام مضت على وفاته، ولم يعد من الجائز إبقاء الجثة أكثر من ذلك.

«لا وقت للدموع الآن يا ابنتي» قالت الجدة لزويا «إنه وقت العمل وحسن التصرف». وفي اللحظة التي كان فيها بعض الرجال يحاولون أخذ الجثة. ظهرت ناتاليا مرتدية ثوباً أبيض طويلاً، حتى بدت وكأنها شبح، وهي تصرخ «إلى أين تأخذون ولدي؟»».

أدرك الجميع أن ناتاليا فقدت عقلها، حتى أنها لم تعد تعرف ابنتها. جاهدة حاولت منع دفن الجثة، وعبثاً حاولت إيفيجينيا إفهامها الوضع، وإعادتها إلى صوابها.

«ناتاليا، عليك الذهاب معنا، ولا وقت للجدال الآن» قالت الجدة. وجاء الجواب «إلى أين تأخذون ولدي؟» سؤال بقي دون جواب، حتى لا يصبح الجميع في حالة هستيريا. ناتاليا، كانت، وما تزال العنصر الأضعف في العائلة، فكيف الآن بعد وفاة زوجها، وماذا على الجدة أن تقول؟ أتخبرها الحقيقة؟ إنها فعلاً مجنونة غير قادرة على مواجهة الأزمات.

ـ «ناتاليا، إرتدي ثيابك.. علينا الرحيل بأسرع ما يمكن».

ـ إلى أين؟

اندهشت زويا لسماع كلمة «تساركوي سيلو ـ القصر الإمبراطوري».

ـ «ولكن يستحيل ذلك» قالت ناتاليا، «فنحن الآن في فصل الصيف، وهم لا شك موجودون في ليفاديا».

ـ أعرف هذا.. سنذهب إلى هناك لبضع ساعات، علينا أن نتوجه أولاً إلى هناك».

أومأت الجدة لزويا أن تساعدها في إخراج ناتاليا من الغرفة، لكن ناتاليا، أبعدت زويا عنها بحركة عنيفة متسائلة «من أنت؟» وراحت تكرر السؤال للإثنتين معاً «من أنتما؟» مسكينة هي أيفيجينيا، خلال أربعة أيام فقدت إبنها وحفيدها، وها هي الآن أمام إنسانة مصابة

بالجنون، وتدرك أنه من الضروري جداً مغادرة سان بطرسبورغ قبل فوات الآوان؛ اعتقادمنها أن المكان الأكثر أمناً هو القصر الإمبراطوري، لكن ناتاليا ما تزال ترفض لأنها في انتظار عودة زوجها وإقامة حفلة.

ـ «زوجك ينتظركِ هناك». حدقت زويا بجدتها العجوز، عرفتها إنسانة حنونة عاطفية، لكنها لم تعهدها قوية هكذا، لم تعهدها قادرة على مواجهة أصعب اللحظات بوعي كامل.

ناتاليا ما تزال على عنادها، والمتمردون يقتربون أكثر فأكثر من القصر، «أسرعي يا زويا قولي لفيودور أن يحضر عربة والدكِ القديمة، لم يعد لدينا وقت كافٍ، علينا المغادرة» قالت هذا وأسرعت متجهة نحو جناحها، مصدرة الأوامر لجميع الخدم الإسراع بوضع الثياب التي تحتوي المجوهرات بالحقائب دون اهتمام لتوضيبها، المسألة هي مسألة وقت. أفلتت ناتاليا من يدها وعادت تعدو نحو القصر، حاولت إعادتها، ولكن بعد فوات الأوان، فقد بدأت النار تلتهم القسم الخلفي منه.

كان منظراً مضحكاً مبكياً في آن، ناتاليا بثوبها الأبيض، تنتقل وسط اللهيب من شباك إلى شباك، تنادي الأصدقاء لتناول الشاي فيما زويا تنظر إليها مرعوبة. حاولت زويا أن تفعل شيئاً لإنقاذ والدتها. لكن الجدة منعتها «لا.. ليس بمقدورك فعل ذلك.. لقد فات الأوان يا ابنتي، فقد ينالون منكِ أيضا».

ـ ولكن لن أسمح لأحد أن يقتل أمي.. أرجوكِ جدتي».

ـ لم يعد بمقدوركِ فعل شيء، انتهى كل شيء يا ابنتي.

عند الشارع الخلفي للقصر، كان فيودور بالإنتظار، حيث لا متمردون. وزويا ما تزال تصر على محاولة إنقاذ والدتها.

«علينا المغادرة الآن» قالت الجدة بصوت حازم. وسُمع دوي انفجار. لقد انهار الطابق الثاني من قصر قسطنطين، واختفت ناتاليا بين ألسنة اللهب والجدران التي أخذت تتداعي، واحداً بعد الآخر.

«أسرعا» صاح فيودور، فالعربة بالإنتظار عند الباب الخلفي وفيها كل الحقائب المطلوبة. أمسكت الجدة يد حفيدتها وهي تصعد إلى العربة، فيما زويا تحتضن ساقا.

الفصل الخامس

شيئاً فشيئاً راحت العربة تبتعد. استدارت زويا لتلقي نظرة أخيرة على مرتع طفولتها، فإذا بألسنة اللهب ترتفع، ملتهمة ما كان ذات يوم قصراً، ولدت وعاشت فيه. اتخذ ڤيودور طريقه عبر الشوارع الخلفية، فيما وضعت الجدة وزويا الحقائب تحت أقدامهما وساقا ترتعد من صقيع البرد مثلها مثل زويا، رغم وجود جنود كثر، إلا أن أحداً لم يعترض طريقهم.

يوم الخميس، الخامس عشر من آذار، جلس القيصر يقرأ البرقية التي أرسلها له الجنرالات، يطالبونه بالتنحي عن السلطة. كان وجهه شاحباً. لكن، ليس بمقدار شحوب وجه زويا، وهي ترى سان بطرسبورغ تبتعد عن عينيها. ساعتان من المسير وهما، هي والجدة، لا تعرفان شيئاً عما استجد أثناء هذا الوقت القصير، لم تكن زويا تفكر، إلا بمنظر والدتها والنار تلتهمها وبأخيها الذي تركت جثته ممددة طُعماً للحريق في الغرفة التي طالما زارته فيها يوم كانت ما تزال طفلة، وحتى لأسبوع مضى. أمس كانت آخر زيارة لهذه الغرفة.. الندم يعتصر نفسها، كيف كانت تنعته بالأحمق حيناً وبالسيء أحياناً.

غطّت رأسها بشال قديم، أحست بوجع في أذنيها نتيجة لفح الريح الباردة، فتذكرت أولغا وناتاليا ومعاناتهما من أوجاع الآذان الناتجة عن

مرض الحصبة. كان الصمت مخيماً على الجميع، والكلُّ يفكّر فيما ينتظره في تسارسكوي سيلو، التي بدأت قصورها ومنازلها تبدو للعيون.

ثلة من الجنود، أومأت لفيودور بالتوقف، فكر بعدم الإمتثال، لكنه عدل عن ذلك لئلا يطلقون النار عليهم ويسقطون إما جرحى أو قتلى. فتوقف وأخبر الجنود أنه ينقل عجوزاً مريضة وحفيدتها المصابة بمس من الجنون، وبالفعل، من كان ينظر إلى زويا ساعتئذٍ، سيعتقد أنها فعلا مجنونة، ڤيودور اختار عربة قديمة، لا تدل على ثراء ولا على جاه. لكن الجنود أخذو منه أفضل جوادين كانا لدى قسطنطين وسمحوا له بمتابعة الطريق بحصان واحد.

عند تسارسكوي سيلو، وقفت العربة، كان هناك بضعة جنود مختبئين من شدة العاصفة «من أنتم؟» قال أحدهم، بصوت أرعب زويا، أما الجدة التي كانت ترتدي ثياباً بسيطة، أقل من عادية، وتلف رأسها بشال صوفي قديم، دفعت زويا إلى الوراء في العربة وأجابت «أنا إيڤيجينيا بترنوفا أوسيبوف، إمرأة عجوز وعمة القيصر. أترغبون بإطلاق النار عليّ؟» لم يعد لدى ايڤيجينيا ما تخسره. خلال أيام معدودة فقدت حفيدها وابنها واليوم فقدت زوجة ابنها. فأهلاً بالموت، شرط أن تموت قبل زويا. كانت الجدة تخفي مسدساً صغيراً في كم سترتها. ومستعدة لاستعماله دفاعاً عن حفيدتها.

«لم يعد هناك قيصر» أجاب بصوت أجش مخيف. أحسّت العجوز أن قلبها يقفز من صدرها وانتاب الذُعر زويا. ما الذي يعنيه هذا الأحمق؟ هل قتلوا القيصر أيضاً؟ إنها الرابعة بعد الظهر.. هل توقف الزمن عند هذه الساعة؟ هل انتهى الكون.. ولكن نيقولا.. هل قتلوه كما قتلوا قسطنطين وابنه نيقولاي؟

ـ «أرغب برؤية ألكسندرا» قالت الجدة بلهجة حاسمة وأولادها أيضاً.. أم أنهم قُتلوا أيضاً؟» زويا تمسك بطرف تنورة جدتها والخوف يتملكها كلياً، أما ڤيودور فقد التزم الصمت ولم يعد قادراً على فعل شيء، بعد أن اعتراه الخوف. ساد صمت رهيب مصحوب بالرهبة، وفجأة نظر الجندي إلى زملائه.

ـ«دعهم يمرّون.. ولكن أنتِ أيتها العجوز.. تذكري لم يعد هناك قيصر ولا روسيا القيصرية.. بل روسيا الجديدة.. تنازل القيصر عن عرشه».

عادت العربة وانطلقت باتجاه القصر. روسيا الجديدة... هذه نهاية مرحَلةٍ من الحياة... الخوف في كل مكان، وجه إيڤيجينا شاحب حتى البياض. عند كنيسة ڤيودورفسكي، انحنت زويا ووضعت رأسها على كتف جدتها، غير مصدقة ما سمعت.

ـ «أتعتقدين أنه صادق فيما قال يا جدتي؟».

ـ لربما، نعرف الحقيقة كاملة من فم ألكسندرا.

مدخل القصر غارق في صمت رهيب. لا حراس، ولا جنود حماية، لا أحد على الإطلاق. ترجل ڤيودور وصاح بصوت عال، فجاءت خادمتان ترتعدان خوفاً وسمحتا لهم بالدخول «أين هم؟» تساءلت الجدة، فأشارت إحدى الخادمتين إلى باب تعرفه زويا حق المعرفة، يؤدي إلى الطابق الثاني، حيث غرف الأولاد الخاصة «الإمبراطورة في الطابق الثاني، مع الأولاد» قالت إحدى الخادمتين.

ـ والقيصر؟ صاحت إيفيجينيا.

- ألم تعرفي بعد؟

- يا إلهي... قالت زويا.

- «قيل إنه تنازل عن العرش لصالح شقيقه.. هذا ما أخبرنا به بعض الجند منذ ساعة تقريباً.. لكن سموّها لم تصدق ذلك».

- «المهم... هل ما يزال حياً؟» قالت الجدة والدم يتدفق في جسدها، كما الحياة الجديدة في روسيا.

-«نأمل ذلك».

-«شكراً لله» التفتت إيفيجينيا نحو زويا «قولي لفيودور أن يدخل الحقائب» لم تكن ترغب أن تقع الحقائب تحت أيدي الجند، فالحياة الجديدة، هي الآن في هذه الحقائب.

لحظات وعادت زويا برفقة فيودور الذي أدخل الحقائب. نظرت الجدة إلى إحدى الخادمتين «أرشديني إلى غرفة الإمبراطورة».

التفتت زويا نحو الخادمة «لا ضرورة لذلك.. سأتولى أنا ذلك» وأمسكت يد جدتها ومضت نحو الطابق الثاني. الهدوء يلف القصر. كما كان منذ أسبوع. هكذا فكرت زويا وهي تقرع باب ماري في الطابق الثاني، ولكن لم يجب أحد، لقد انتقلت ماري إلى إحدى غرف جلوس والدتها لتتمكن من الإعتناء بها وبآنا فريبوفا وأخواتها. راحت زويا تقرع الأبواب، باباً بعد آخر حتى سمعت صوتَيلدعوهما للدخول، فإذ بالكسندرا تقدم الشاي لأصغر بناتها. انهمرت الدموع على خدي أنستازيا وكذلك على خدي ماري.

ركضت زويا لتضم ماري إلى صدرها، فيما ايفيجيفيا تعانق ألكسندرا.

«يا إلهي يا ايفيجينيا، كيف وصلتم إلى هنا؟ هل أنتم بخير؟».

- «أتينا نقف إلى جانبك ألكسندرا، لم يعد بمقدورنا البقاء في سان بطرسبورغ. لقد أطلقوا النار على المنزل.. وهكذا كان علينا المغادرة بأسرع ما يمكن».

- «لا أصدق هذا..» قالت ألكسندرا وهي ترمي بجسدها على كرسي هزاز.

«وماذا عن قسطنطين؟».

شحب وجه المرأة العجوز وأحست أن قلبها سيقفز من صدرها، أحست أنه سيغمى عليها، لكنها أبت أن يحصل لها هذا أمام ألكسندرا التي عندها من الهموم ما هو أكبر من طاقتها «لقد قتل يا ألكسندرا.. وكذلك نيقولاي... قتل يوم الأحد.. واليوم ماتت ناتاليا حين أقدم الغوغائيون على إحراق المنزل». لكنها لم تقل إن ناتاليا جُنت قبل وفاتها، من شدة حزنها على ابنها، ترددت العجوز كثيراًقبل أن تستفسر عما يجري وما يقال.

- «تقصدين التنازل عن العرش؟ يستحيل ذلك. إنهم يشيعون هذا الخبر بقصد إخافتنا.. لكن الحقيقة، أني لم أتحادث مع نيقولا اليوم» قالت ألكسندرا، وهي تنظر ابنتيها تعانقان زويا بشوق لا يوصف. وكانت زويا قد أخبرتهما عن مقتل أخيها ووالدها واحتراق والدتها وتابعت ألكسندرا، «لقد تخلى عنا جميع الحراس.. وحتى....» وتوقفت عن استكمال الحديث، وكأنه يصعب عليها القول، «حتى ديريفينكو، أحد

حارسي ألكسي، منذ ولادته، تخلى هو أيضاً، عن دوره بحمايته وغادر القصر، هذا الصباح، دون أن يقول ولو كلمةواحدة، ودون أية التفاتة إلى الوراء، متناسياً كل السنوات التي أمضاها معنا، في حلّنا وترحالنا، متناسياً، كم أكرمناه وقدمنا له من عطاءات وامتيازات. أما الحارس الثاني، ناغورني، فأقسم ألا يتخلى عن مهمته إلا جثة هامدة، وهو الآن مع ألكسي في الغرفة المجاورة، برفقة الدكتور فيديروف. الدكتور بوتكين، ذهب مع الأستاذ جبس، بحثاً عن أدوية.. إنه لأمر يستحيل استيعابه.. خراب المقربين.. أتمنى لو أن نيقولا يعود بأسرع وقت».

-«سيعود يا ألكسندرا.. كل ما علينا هو أن نتمالك أنفسنا، أن نلتزم الصمت.. ولكن... ماذا عن البنات».

-«كلهن مرضى.. حاولت عدم إخبارهن بما يجري.. ولكن بتنَ يعرفنَ كل شيء» تنهدت قبل أن تتابع «الكونت بنكندروف ما يزال هنا، وأقسم أنه لن يتخلى عن عهده، وكذلك، وصل صباح أمس، بيكسهوفيدن للغاية ذاتها... وأنت إيفيجينيا، هل ستبقين هنا؟».

«إذا كان وجودنا لا يزعجك فليس بمقدورنا العودة إلى سان بطرسبورغ حاليا»، لكنها لم تتمكن من العودة إليها أبدا».

-«أنتم على الرحب والسعة، يمكنكما استعمال غرفة ماشكا».

-«سنبقى كلنا معاً. ربما تحتاجين يد العون.. أين البقية؟».

انفرجت أسارير الإمبراطورة، فثمة من يقف إلى جانبها في هذه المحنة، لكن الذي لفت نظرها، هو تلك الثياب العادية جداً التي ترتديها ايفيجينيا غير أنها أدركت سبب ذلك إنه التمويه.

-يمكنكِ أخذ قسط من الراحة. زويا ستبقى مع الفتاتين، أما أنا عليّ معاينة الآخرين.

- «لا.. سأكون إلى جانبكِ لأمد لكِ يد العون والمساعدة». وبالفعل هذا ما حصل، فكانت تساعدها في تقديم الشاي للفتيات وقياس حرارتهن وإعادة ترتيب سرير ألكسي، فيما ناغورني الوفي المخلص، يراقب ذلك. ايڤيجينيا، مثلها مثل ألكسندرا، لم تكن قادرة على تصديق ما فعله ديريفنكو.

عند منتصف الليل، أوت زويا وجدتها إلى سريرهما في غرفة ماري وأنستازيا. أمضت زويا ساعتين أو أكثر تستمع إلى شخير جدتها الناعم وتفكر بما جرى منذ زيارتها الأخيرة لماري. في هذه الغرفة بالذات، أهدتها ماري قنينة العطر الباريسي المفضل لديها؛ ولكن أين هي هذه الزجاجة الآن؟ أتضح لها أن أيا من الفتيات لا تعلم شيئاً عما يجري في الخارج. حتى هي نفسها لم تكن قادرة على استيعاب ما حدث؛ رأت القتلة واللصوص والمشاغبين يتجولون في شوارع سان بطرسبورغ؛ لن تنسى هذا، ولن تنسى منظر منزلها وهو يحترق، ولارؤية أخيها ينزف حتى الموت، دون أن يتمكن أحد من مساعدته. قبيل بزوغ ضوء الصباح، تغلب النعاس على زويا التي كانت قلقة جداً على القيصر، فهل سيعود إلى البيت، وهل ستعود إلى حياتها السابقة؟

عند الخامسة من بعد الظهر، حضر عمّ القيصر، الدوق الأكبر بول، ليؤكد لألكسندرا أخبار تنازل القيصر عن العرش لصالح أخيه الدوق ميخائيل الذي أصيب بالذهول ولم يكن مستعداً لتولي هذه المهمة. وحدهما، ألكسندرا والدكتور فيدوروف، أدركا سبب عدم تنازل القيصر

عن العرش لصالح ابنه. إنه المرض. كذلك أخبرها الدوق بول أن حكومة مؤقتة قد شكلت.

كانت ألكسندرا تصغي بصمت، كل همها أن تتصل بزوجها، الذي حضر صباح اليوم التالي لتنازله إلى مقر القيادة العامة للجبهة في موغيليف، ليلقي على جنوده تحية الوداع، وليتصل بزوجته التي كانت برفقة الدكتور بوتكين قرب أنستازيا. أسرعت ألكسندرا بالخروج من الغرفة، وهي تمني النفس، أن تسمع منه تكذيباً لكل ما سمعت، لكن نبرة صوته أكدته؛ واعداً بالحضور إلى البيت بأسرع وقت ممكن، وشدد بالإستفسار عن صحة الأولاد.

قُرابة منتصف ليل الأحد، جاء الجنرال كورنيلوف من سان بطرسبورغ، عارضاً المساعدة في تأمين الدواء، والغذاء وأي شيء ترغب به، فرجته الإهتمام بأولئك الجنود الجرحى في المستشفى. إنهم بحاجة للدواء والغذاء؛ إنها ما تزال تهتم بهم رغم أنهم لم يعودوا «جنودها». فهي لم تعد الإمبراطورة. فوعدها أن يكون لها ما تريد. بعد انصراف الجنرال كورنيلوف، تمنت على ناغورني البقاء إلى جانب ابنها، وقصدت غرفتها، لعل الإختلاء بالذات مع كوب من الشاي يخفف شيئاً من عذاباتها، لكن الكونتيسه العجوز فوجئت بالدموع تبلل وجنتي الإمبراطورة.

«أما ترغبين بأية خدمة أقدمها لكِ يا ألكسندرا؟».

هزت رأسها، ما تزال رغم كل شيء، إنسانة متماسكة، قوية، صاحبة إرادة. نظرت إلى الكونتيسة نظرة امتنان وشكر «كل ما أرجوه هو عودة نيقولا.. هكذا فجأة.. أنا خائفة.. ليس على نفسي،

بل على الأولاد». الشعور ذاته كان يراود ايڤيجينيا، لكنها لم تفصح عنه أمامها.

«نحن كلنا إلى جانبك». ولكن الـ «كلنا» هذه، لم تكن عملياً سواها هي وزويا، وبضعة أصدقاء خلص، ما يزالون على ولائهم. الكل تخلوا عن عائلة القيصر، الكل تنكروا، للصداقة. إنه أمر لا يحتمل. ولكن ما بوسعها أن تفعل؟ عليها البقاء قوية، وذات إرادة «عليكِ أن تنامي، ولو قليلاً، يا صغيرتي».

أجالت ألكسندرا النظر، في غرفتها ذات الألوان البنفسجية «هناك شيء يجب عليّ القيام به قبل النوم... يجب أن أحرق مذكراتي وكل ما يمكن أن يشكل إدانة لنيقولا».

- وهل بمقدوري مساعدتكِ؟

- إني جد شاكرة.. أفضل البقاء وحيدة.

- أتفهّم هذا.

بهدوء انسحبت ايڤيجينيا من الغرفة، تاركة ألكسندرا، تقرأ كل ورقة وكل صفحة، ترمي هذه في نار المدفأة وتحتفظ بتلك. إنها، لا شك مهمة صعبة. أحرقت، حتى رسائل جدتها الملكة فيكتوريا، ولم تبقي إلا على الرسائل الخاصة التي كانت تتبادلها مع الحبيب الغالي نيقولا. أحرقت كل شيء، إلا أنها لم تتمكن من إحراق مشاعرها وأحاسيسها.

يوم الأربعاء، عاد الجنرال كورنيلوف وطلب التحدث إليها على انفراد، فكان اللقاء في إحدى غرف الطابق الأول التي كان نيقولا يحبها

كثيراً. رافعة الرأس، جلست تصغي إلى الجنرال الصديق يخبرها، أنها والأولاد والخدم وكل من في القصر، هم تحت الإقامة الجبرية، لم ترغب بتصديق ذلك، لكنه القدر المحتوم. وأوضح الجنرال كورنيلوف، إنه يحق لأي كان داخل القصر، أن يختار البقاء هنا أو المغادرة إنما بلا عودة أبداً.

ـ وماذا عن زوجي؟

ـ أعتقد، غداً صباحاً، سيكون هنا.

ـ وسيسجن هو أيضاً؟ قالت هذا بألم نفسي حاد، لكنها تود معرفة كل ما عليهم مواجهته منذ الآن وصاعداً.

ـ زوجكِ سيكون معكم هنا.. تحت الإقامة الجبرية.

ـ وبعد؟

سؤال يعبر عن الخوف.. ولكن الجواب جاء مطمئناً، لا خوف على حياة أي فرد من أفراد العائلة.

ـ قررت الحكومة المؤقتة، إبعادكم مؤقتاً إلى مورمانسك ومن هناك تغادرون بحراً إلى بريطانيا، لتحلوا ضيوفاً على الملك جورج.

ـ ومتى يكون ذلك؟

ـ حالما تنتهي الترتيبات اللازمة، يا سيدتي.

ـ حسناً، إذن سأنتظر عودة زوجي أولاً ومن ثم نخبر الأولاد.

ـ ليس الأولاد وحسب. بل كل من في القصر.

ـ سأخبر الجميع، هم أحرار في البقاء هنا، أو الرحيل، ولكن دون عودة إلى هنا. أليس كذلك؟

ـ إنه كذلك، من يغادر القصر، لا يحق له العودة إليه.

ـ ولن يتعرض أي منهم للأذى، حتى ولو كان من أفراد العائلة أو من الأصدقاء؟

ـ أعدك بذلك يا سيدتي...

كان بودها لو تقول له وأي وعد هو هذا؟ كوعودكم السابقة بالوفاء للقيصر؟ لكنها حافظت على هدوئها واستمرت تراقبه، حتى خرج من الغرفة. صعدت إلى الطابق الثاني، لتخبر الجميع بما سمعت «لكم مطلق الحرية في اتخاذ القرار، إن في البقاء هنا، أو مغادرة القصر، وأشدد على أن بقاءكم هنا، قد يجلب لكم بعض المتاعب.. بعد أسابيع سنرحل إلى بريطانيا.. فأنتم أحرار، يمكنكم المغادرة ـ إذا شئتم ـ حتى قبل عودة نيقولا.

الحقيقة، لم تكن ألكسندرا مقتنعة، أنهم وضعوا تحت الإقامة الجبرية حفاظاً على أرواحهم.

رفض الجميع ترك القصر، مبدين استعدادهم ربط مصيرهم بمصير العائلة. وأخيراً بعد أيام، عاد نيقولا شاحب الوجه، واهن الجسد، لكن ألكسندرا، أثبتت أنها الزوجة القوية، القادرة على تحمل الصعاب، فشددت من عزيمته، وهما يصعدان الدرج نحو الطابق الثاني لرؤية الأولاد.

الفصل السادس

كانت الأيام التي تلت عودة نيقولا، أيام خوف وصمت رهيب. وفي الوقت ذاته كان هناك شعور بنوع من الأمان،لقد فقدت العائلة كل شيء، المهم أنهم ما يزالون أحياء يرزقون. كان نيقولا يمضي أوقاته يهتم بعائلته، وخاصة بماري التي كانت أسوأ الفتيات حالة. فعدا عن الحصبة، هناك التهابات رئوية، وحرارة مرتفعة بشكل دائم؛ وزويا لا تفارقها إلا نادراً، تحاول التخفيف عنها.

ـ ماشكا.. إشربي قليلاً من الماء.. إكراماً لزويا..

ـ صدقيني زويا، ليس بمقدوري.. حنجرتي تؤلمني..

فعلاً كانت ماري غير قادرة، ليس على شرب الماء وحسب، بل وحتى عن التكلم، لذا كانت زويا هي الأكثر تحدثاً، عن الذكريات، عن الرحلات على متن اليخت، أو عن لعب التنس في ليفاديا.

ـ أتذكرين يا ماشكا تلك الصور التي تجمعنا ونحن نتأرجح... إنها معي، هل ترغبين برؤيتها؟

ـ فيما بعد... عيناي متعبتان.. أنا فعلاً لست بخير.

ـ حسناً إذن... حاولي أن تنامي..

لم تترك زويا وسيلة من وسائل التسلية، إلا ولجأت إليها، لإدخال بعض السرور إلى قلب ماري، إنما دون جدوى.

كانت زويا، تأمل أن حالة ماري ستتحسن، قبل المغادرة إلى مورمانسك في الطريق إلى بريطانيا. وسيكون ذلك خلال الأسابيع الثلاثة المقبلة، إستناداً إلى ما يقوله نيقولا الذي كان يخفي آلامه وأوجاعه، ويحاول جاهداً، إدخال نوع من السعادة إلى قلوب أولاده، رغم ما يعاني من قلق، تشاركه فيه ألكسندرا.

بعد ثلاثة أيام، علمت زويا، أن الملك جورج، ولأسباب غير معروفة، رفض استقبال القيصر وعائلته ومن معهم. هذا الرفض غير المبرر، أوجد تساؤلات جديدة وأكثر حدّة.

«وما علينا أن نفعل إذن يا جدتي؟» قالت زويا والخوف بادٍ في نظراتها، ماذا لو أجبروا على البقاء هنا، في هذا القصر، ولو قُتلوا واحداً بعد الآخر؟».

ـ لا أدري.. نيقولا هو من يقرر ذلك.. أعتقد أننا سنغادر إلى ليفاديا.

ـ وهل تعتقدين أنهم سيقتلوننا؟

ـ «لا تكوني حمقاء...» أجابت الجدّة التي كانت تشارك حفيدتها الخوف ذاته ولكنها تحاول عدم الإفصاح عنه؛ فالإنكليز أنفسهم خذلوا نيقولا متجاهلين صلة القربى التي تربطهم به، فإلى أي يذهبون، وأي مكان يوفر لهم الأمان؟ ليفاديا؟.. إن الطريق إليها محفوفة بالمخاطر... إنهم هنا أشبه بالرهائن. رغم هذا، ما يزال نيقولا محافظاً على هدوئه، ويحاول زرع الإطمئنان في نفوس الجميع.

صباح اليوم التالي، تسللت زويا من غرفتها، وراحت تنظر عبر نافذة الممر إلى الحديقة المغطاة بالثلج؛ فإذ بها ترى نيقولا وجدتها يسيران جنباً إلى جنب، يتبادلان أطراف الحديث، الدموع تنساب من عيني جدتها التي عانقت نيقولا بحرارة، تصافحا واختفى القيصر عند زاوية القصر، فيما عادت ايڤيجينيا إلى الداخل. وكما خرجت زويا من غرفتها، عادت إليها متوقعةً دخول جدّتها بين لحظةٍ وأُخرى التي ما أن عادت، حتى ارتمت على كرسي هزّاز. وبعينين حزينتين، نظرت إلى حفيدتها، التي كانت لأسابيع قليلة خلت الطفلة المدللة، أمّا اليوم فعليها أن تتحمل مسؤوليات هي أكبر من أن يتحملها أي إنسان حتى لو تجاوز الأربعين من العمر واكتسب حِكمة وحِنكة من تجارب الحياة. كانت الجدة تعي أن هذه الأسابيع القليلة علمت حفيدتها الكثير الكثير.

«زويا...» قالت الجدة، وهي لا تدري كيف تنقل إليها ما سمعته من نيقولا؛ أن أمامها الآن مهمة واحدة وصعبة، ألا وهي الحفاظ على حياة زويا ولا شيء آخر.

ـ «ما الخطب يا جدتي؟» بدا هذا السؤال سخيفاً، وهل بعد كل الذي جرى خلال الأسابيع القليلة الماضية، يُطرح هذا السؤال؟ غير أن زويا، كانت تتوقع في قرارة نفسها، حصول الأسوأ.

ـ «كنت أتحدث إلى نيقولا، وهو يريدنا أن نرحل، ولكن بإمكاننا البقاء».

انهمرت الدموع من عيني زويا وهي تركع عند قدمي جدتها «لماذا؟ لقد سبق وقررنا البقاء معهم لنرحل معاً.. إذن لماذا؟... لماذا؟ لا... لن نرحل... لن نرحل».

احتارت الجدة بين أن تكذب، أو تقول الحقيقة، لكنها اختارت قول الحقيقة.

ـ لست أدري.. إنما بعد رفض الإنكليز إستقبالهم، بات نيقولا يخشى ألا تكون الأيام القادمة، كما الأيام التي مرت. ويعتقد، أنهم قد يبقون هنا، كسجناء، وإلى فترة طويلة، أو لربما يتم نقلهم إلى مكان آخر.. إذن، علينا أن نفترق. إنه غير قادر على تأمين الحماية لنا، وهو محقٌ في ذلك..علينا أن نرحل.. الآن.. الآن».

ـ لن أرحل.. لن أرحل، لن أتخلى عنهم.

ـ بل عليكِ الرحيل، قد ترسلين وحدك إلى سيبيريا وحدك وهم يرسلون إلى مكان آخر. علينا الذهاب غداً، أو بعد غد. نيقولا يتوقع الأسوأ، فالثوار غيرا راغبين ببقائه في البلاد، وإذا كان الإنكليز أقرباؤه، رفضوا استضافته، فمن سيفعل؟ الوضع في غاية الخطورة.

ـ دعيني أموت معهم. ليس بمقدورك إجباري على الرحيل.

ـ بمقدوري فعل ما أريد وعليكِ تنفيذ ما أقول.. هذه هي رغبة نيقولا أيضاً، وعليكِ إطاعته.

كانت ايڤيجينيا تدرك مدى صعوبة اقناع حفيدتها بالرحيل، لكن، كان عليها اللجوء إلى كلّ الأساليب لإقناعها أو لإجبارها.

ـ لن أرحل وأترك ماري هنا. إنها مريضة، وهي كل ما تبقى لي في حياتي.. ماعداكِ بالطبع ياجدتي.

جلست زويا على كرسي قرب الطاولة، وأسندت رأسها إلى راحة يديها وهي تبكي. إنها الطاولة ذاتها التي جلست إليها منذ أسابيع، فيما

كانت ماري تجدّل لها شعرها وهما تتحادثان وتضحكان. أين هي تلك الأيام؟ ماذا حدث لنا كلنا؟ لشقيقها ووالدتها ووالدها أيضاً؟

ـ «أنا لكِ يا صغيرتي..» قالت الجدة وهي تداعب شعرها، تماماً كما كانت ماري تفعل «عليكِ أن تكوني قوية. كلهم يتوقعون منكِ أن تكوني قويَّة.. وعلينا أن نفعل ما ننوي فعله، الآن، وليس غداً».

ـ «ولكن إلى أين سنذهب؟».

ـ «لست أدري.. نيقولا سيقرر كل شيء ويرتب كل شيء. لربما إلى فنلندا أو فرنسا أو سويسرا، المهم ألا نبقى هنا».

ـ «لكننا لا نعرف أحداً هناك».

ـ «هذا لبعض الوقت... علينا الاتكال على الله، والوثوق به يا صغيرتي، كما علينا الرحيل، ساعة يقرر نيقولا».

ـ «لا أقدر يا جدتي...»

ـ «بلى وستفعلين، ولكن، لن تقولي شيئاً للأولاد، فهم في حالة لا تسمح باستيعاب الأمور».

ـ «وماذا أقول لماشكا؟».

امتلأت عينا المرأة العجوز بالدموع. فعلاً ماذا ستقول لماشكا؟ إنها لحظات حزن ووجع وألم. خسرت كل شيء.. ابنها، كنتها، وحفيدها، ولن تخسر حفيدتها. حياتها الآن، كل حياتها هي زويا، ولا أحد غير زويا. نعم إنها قلقة جداً على نيقولا وألكسندرا والأولاد، ولكن ما العمل؟ هي غير قادرة على فعل شيء، وعليها

الإستسلام للقدر. أما بالنسبة لزويا، فهي مستعدة لمحاربة القدر.

ـ «لم تقولي لي.. ماذا أقول لماشكا؟».

ـ قولي لها إنكِ تحبينها، وأنكما ستعودان قريباً وتلتقيان.

الفصل السابع

على رؤوس أصابع قدميها، دخلت زويا إلى غرفة ماري. وقفت جانب السرير، تنظر إلى الوجه الملائكي البريء الذي تعوّد الإحمرار خجلاً، لا بفعل ارتفاع الحرارة؛ إلى الشفتين اللتين تعودتا الإبتسام والضحك وليس الارتجاف، إلى الشعر الذي طالما تناثر بين أناملها أو تتطاير مع نسيمات الريح، وها هو الآن غير مرتب غير مصفف. لم تكن زويا راغبة بإيقاظها، لكنها يستحيل عليها الرحيل، دون القول وداعاً؛ إنها غير راغبة في تركها، ولكن لا عودة إلى الوراء، لقد اتخذت جدتها القرار، وهي تنتظرها في الطابق الأول، إستعداداً لرحلة طويلة عبر البلاد الإسكندينافية، مروراً بفنلندا والسويد ومن ثم الدانمارك؛ حيث لنيقولا أقارب كثر، وسيكون معهما ڤيودور سائق عربتهما، فهو حريص عليهما حرصه على نفسه، كل شيء صار جاهزاً. ولم يبقَ إلا الوداع بين زويا وماري.

«هل أنتِ بخير؟» همست زويا، كان الصمت يخيم على الغرفة التي ليس فيها سوى ماري؛ لم تكن زويا ترغب في التفكير بالمرض. إنها أمام مفترق طرق حياتي خطير، لا ماضي بعد الآن، والمستقبل مجهول. فقط، تفكر بهذه اللحظات القليلة التي تجمعها مع الإنسانة الأغلى عليها، والأحب إلى قلبها.

بهدوء، تقدمت من السرير، ولامست وجنتيها «ماشكا...» حاولت ماري أن تجلس لكنها عجزت.

ـ «هل من أخبار سيئة؟».

ـ «لا.. ولكن.. أنا ذاهبة إلى سان بطرسبورغ برفقة جدتي».

لم تقل الحقيقة، فقد وعدت الجميع، وألكسندرا خاصة ألا تخبرها الحقيقة. وأية حقيقة؟ لكن ماري تمتلك حاسة سادسة معطلة اليوم، بفعل المرض.

ـ «هل الطريق آمنة؟» تساءلت ماري.

ـ «بالطبع...» كذبت زويا «فأبوكِ لن يدعنا نعود، إلا إذا كان متأكداً من ذلك». وراحت ترجو الله أن يمنحها القدرة على عدم البكاء. كانت تخشى أن تجهش بالبكاء أمام ماري، وماذا ستقول لها ساعتئذٍ؟».

ـ «هناك شيء حدث.. أليس كذلك؟ إلى أين أنتما ذاهبتان؟».

ـ «إلى المنزل في سان بطرسبورغ... وقريباً سأعود إلى هنا».

انحنت وغمرت ماري، «عليكِ أن تتعافي.. وإلا لن أعود لزيارتك».

«وهل ستكتبين إليّ؟»

ـ «بالطبع سأفعل.. أحبك يا ماشكا.. أحبك أكثر مما يتصور أحد».

ـ «وأنا كذلك يا زويا».

عادت ماري ووضعت رأسها على الوسادة وأصدرت سعالاً حاداً.

ـ أرجوكِ اهتمي بصحتكِ. انحنت زويا لتطبع آخر قبلة على

وجنتي ماشكا، وتخرج من الغرفة مسرعة. أقفلت الباب وراءها بهدوء، وسمحت للدمع أن ينهمر.

القيصر والإمبراطورة وجدتها، كانوا بانتظارها في الطابق الأول وفيودور ينتظر عند مدخل القصر.

كادت رجلا زويا أن تتعثرَ وهي تنزل الدرج، لآخر مرة.

ـ «هل هي بخير؟» تساءلت ألكسندرا.

ـ «أخبرتها أني عائدة إلى سان بطرسبورغ».

الكل غارق في البكاء. أخذها نيقولا بين ذراعيه، قبّل وجنتيها، ثم أبعدها عنه وراح يتأمل فيها، الدمع في عينيه والإبتسامة على شفتيه. ثم غمر عمته بحنان وحب، وضع رأسه على كتفها.

ـ «رحلة موفقة يا ايفيجينيا بيترونوفا، إننا ننتظر اليوم الذي نعود ونلتقي فيه. وقريباً، إن شاء الله».

ـ «سنصلي لكم كل لحظة... ليكن الرب بجانبكم». وتقدمت نحو ألكسندرا فيما بقيت زويا واقفة، تكاد لا ترى أحداً، فالدموع تنهمر على الخدين وتغشي العينين.

«إهتمي بنفسكِ، حافظي على صحتكِ.. أتمنى الشفاء العاجل للأولاد».

«أكتبي لنا» قالت ألكسندرا بصوت حزين، تماماً كما قالت ماري لزويا «سنكون قلقين عليكما» ومالت ألكسندرا نحو زويا التي كانت، وما تزال، تعتبرها واحدة من بناتها، وشدتها إلى صدرها.

«أحبك كثيراً يا عمة ألكسندرا.. أحبكم جميعاً.. ولا أرغب بالرحيل».

عادت زويا، لتقبل يد نيقولا وكأنها تقبّل يد والدها. ربت القيصر على كتفها «نحن أيضاً نحبكِ، وسنبقى نحبكِ. كوني أكيدة. قريباً، نعود ونلتقي يا صغيرتي. كان الله معكما.. أما الآن، فعليكِ الذهاب مع جدّتك» قال ذلك وأبعدها عنه برفق، إنما كان مجبراً على ذلك وكان من المؤثر رؤية الخدم الذين جاءوا للوداع وهم يبكون.

بمساعدة فيودور صَعَدت الجدّة إلى العربة التي كانت مربوطة إلى أفضل جياد القيصر، وتبعتها زويا التي دفنت رأسها بصدر جدتها. لم تعد قادرة، على النظر إلى هذين الجبارين، اللذين ما يزالان واقفين يلوّحان وداعاً.

وسط الضباب انطلقت العربة، وهكذا، بدأت زويا، رحلة جديدة، لا بل حياة جديدة. لا عودة، بعد اليوم إلى هذا القصر، ولربما لن ترى الصديقة الأغلى عليها والأحب إليها. لقد خسرت كل شيء، أمها.. أخاها.. ووالدها، وذكريات ثمانية عشر عاماً، حتى ساشا، نبحت بصوتٍ حزين وكأنها تدري أن لا عودة إلى هنا ثانية.

«وداعاً يا أحبائي» قالت إيفيجينيا بسرها، والثلج يتساقط والجياد تنهب الطريق. لم يعد لها أحد.. إلا زويا التي لم تبلغ الثامنة عشر من العمر بعد. أما الجميع... قسطنطين ونيقولاي الصغير، وناتاليا، والقيصر وألكسندرا وأولادهما، صاروا من الماضي الذي لا يُنسى، الماضي الذي سيبقى محفوراً في صدرها، والذي قد لا يعود أبداً.

الفصل الثامن

باريس

بعد سبع ساعات، بدلاً من ثلاث، بسبب سلوك فيودور للطرق الجانبية، عملاً بنصيحة القيصر، وصلت العربة إلى بيلوستروف على الحدود الفنلندية. وبعد بضعة أسئلة، سمح الجنود الفنلنديون للاجئين الثلاثة، بمتابعة السير، دون أن يلاحظ أحد منهم، أن هؤلاء اللاجئين، هم من أفراد أسرة القيصر. العربة قديمة جداً، وإيفيجينيا، بثيابها العادية، وارتعاش جسدها من البرد، بدت عجوزاً تستحق الشفقة. أما زويا التي كانت تلقي برأسها على صدر جدتها، وتحتضن ساشا، فقد بدت، وكأنها طفلة لم تتجاوز الخامسة عشرة من العمر.

ما إن عاودت العربة، انطلاقها، حتى تنفس الثلاثة الصعداء، دون أن يعرفوا، أن أمامهم يومين كاملين للوصول إلى توركو[1]، التي أدركوها ليلاً. زويا، كانت تحس بخدر شديد في جسدها، الذي صار متجمداً من شدة البرد، ومن بقائها يومين كاملين دون أيّ حركة. إيفيجينيا، لم تعد قادرة على التحرك، ولو خطوة واحدة، دون مساعدة. أما فيودور، فحدث عنه ولا حرج. ورغم هذا، حافظ

1 ـ توركو: مرفأ بحري فنلندي على خليج بوتنيا، جنوب غرب فنلندا، وعلى بعد 150 كلم من العاصمة هلسنكي، بالإتجاه الغربي الشمالي ـ المترجم

الجميع على شيء من القدرة على تفهم الوضع، وعلى إرادة التحدي.

عند الصباح، وبعد المبيت في فندق صغير، باع ڤيودور، العربة والجياد بثمن بخس. وداعاً أيتها العربات، لا ضرورة لكِ بعد اليوم. من توركو، على متن كاسحة جليد غادروا متجهين نحو استوكهولم في السويد، دامت الرحلة، يوماً كاملاً، لم يتكلم واحد منهم إلى الآخر. كلٌ، كان غارقاً، في تفكيره الخاص. الكل خائف من الغد الآتي.

من استوكهولم، التي وصلوها بعد الظهر، إلى مالو، ومنها، استقلوا القطار إلى كوبنهاغن، حيث اتصلت، ايڤيجينيا، ببعض أقارب القيصر، لكن، لم تحظى بأحد منهم؛ هكذا، لا بد إذن، من متابعة الرحلة نحو فرنسا، نحو باريس عاصمة العلم والنور.

زويا، مُرهقة جداً، لا أحد يعرف، حتى هي، إن كان تورد وجنتيها هو نتيجة مرض أم تعب وإنهاك. كلهم متعبون، بعد رحلة ستة أيام متتالية، إن في العربة التي تجرها الخيول، أو على متن كاسحة جليد، ومن ثَمّ على متن باخرة بريطانية تمنت زويا لو تُغرقها إحدى السفن الحربية الألمانية وهي في طريقها إلى فرنسا.

بعيداً عن روسيا، كان العالم يعاني من الحرب الكبرى، وليس من أعمال النهب والسلب والقتل التي يمارسها الثوار والغوغائيون في سان بطرسبورغ وغيرها من المدن الروسية؛ لكن زويا، كانت تتمنى لو أنها قُتلت على يد أحد من هؤلاء، بدلاً من مواجهة عالم جديد لا تعرف عنه شيئاً. تركت خلفها، كما جدتها، كل شيء، أسلوب حياة الرفاهية، وتاريخاً يمتد إلى آلاف السنوات، الناس الذين أحبتهم حتى العشق. إنه أمر لا يحتمل، ما الذي حدث، وكيف حدث. وبهذه السرعة الجنونية؟

إنه شيء لا يُصدق، بل يستحيل تصديقه. تذكرت زويا، كم حلمت مع ماري، بزيارة باريس، مدينة الأناقة والعطور الفاخرة. تذكرت كيف، كانتا تتحدثان، عما ستشتريانه من هذه المدينة، القفازات المرصعة باللآلىء، أغطية الرأس الحريرية، الثياب الفاخرة، العطور التي تنبعث روائحها، ويشمها حتى من فقد حاسة الشم. فأين هي هذه الأحلام الآن؟ ها هي في باريس، لكن في حالة تشبه حالة الفقر، وبدلاً من المبيت في فندق فخم، ها هي الآن، تبحث عن فندق ـ أي فندق ـ لا يكلف مالاً كثيراً. ومن أين المال؟ ولا مال معهما سوى ذاك الذي اقترضته ايڤيجينيا من القيصر، ومجوهرات، ولآلي مخبأة في ثنايا الثياب؛ ثم إن عليهما التفكير بفيودور الذي رفض البقاء في روسيا، لا حباً بالمغادرة، بل رغبةً بالاستمرار في خِدمتهما والإعتناء بزويا؛ ڤيودور لم يخلّف وراءه شيئاً في روسيا. ولم يكن بمقدوره أن يتخيل العيش يوماً، دون أن يكون إلى جانب عائلة أوسيبوف. كان على استعداد لقتل نفسه، لو لم يأتِ معهما. ڤيودور أيضاً، مثله مثل زويا، كان منهكاً ومريضاً، فهو لم يسبق له أن ركب قطاراً، أو اعتلى متن باخرة، وهو أيضاً، يشعر في قرارة نفسه، بالحزن والتعاسة، لكنه ما يزال يبتسم، ولو بتكلّف يكاد لا يُحسِنُ إخفاءه.

«الآن، ماذا سنفعل يا جدتي؟» تساءلت زويا، وهي تنظر إلى جدتها نظرة، لا تعبّر، إلاّ عن الأسى والخوف. لا يخت أمبراطورياً بعد اليوم، لا قصوراً، لا أمراء ولا حفلات؛ كل ذلك من الماضي، ماضي حياة عائلية مغمورة بالحب والحنان، أين هم الذين تَعرّفت إليهم وأحبّتهم؟ إنه الماضي الذي تحوّل، بين ليلة وضحاها، إلى ذكرى مؤرّقة. كل ما تتمناه هو أن تعود عقارب الساعة إلى الوراء، فتعود لزيارة ماشكا،

وتستعيد عالمها المفقود، أن تلتقي الأشخاص الذين ما عادوا موجودين؛ أباها، وأمّها وأخاها. ويبقى سؤال يؤرق بالها «هل تحسّنت حال ماشكا؟».

تنهدت الجدّة وهي ترد على سؤال حفيدتها «سنحاول استئجار شقة صغيرة» وعادت إيفيجينيا وتنهدت، فهي، منذ سنوات طويلة، لم تزر باريس، ولا شك أموراً كثيرة تغيرت في هذه المدينة. كل همها اليوم، هو زويا، لهذا تتضرع إلى الله أن يمنحها العمر الطويل والقوة، والقدرة على الاستمرار لرعايتها.

نظرت إلى حفيدتها، فرأت وجهاً شاحباً، مدت يدها ولامست جبينها، فتأكدت أنها محرورة. في تلك الليلة، عانت زويا من نوبات السعال الحاد، فخافت الجدة، أن تكون الإلتهابات الرئوية هي السبب في ذلك.

قُبيل منتصف الليل، وبعد رحلة دامت عشر ساعات في القطار، وصل اللاجئون الثلاثة إلى باريس، فأرسلت الجدة، ڤيودور للبحث عن سيارة أجرة، فيما أجلست زويا على رصيف محطة القطارات، «أريد العودة إلى المنزل» قالت زويا وهي تحتضن ساقا التي نمت وكبرت.

ـ سيكون ذلك يا ابنتي.. فقد ذهب ڤيودور ليبحث عن سيارة أجرة.

لكن زويا غرقت في البكاء، دون دراية منها، أن كل دمعة تذرفها هي بمثابة خنجر يطعن قلب الكونتيسه العجوز. «أريد العودة إلى تسارسكوي سيلو».

من جديد تنهّدت الجدّة، وهي تأخذها بذراعها، لتساعدها على الصعود إلى المقعد الخلفي لسيارة الأجرة التي أتى بها ڤيودور. ولكن إلى

أين؟ لم يفكر أحدٌ منهم بذلك، والأسوأ من ذلك، أن السائق، لم يكن عجوزاً وحسب، بل وأصمّ أيضاً، فالشبّان، هم هناك على خطوط القتال.

ـ والآن؟... إلى أين تريدون الذهاب؟ قال السائق ثم أردف يقول، بعد أن وقعت عيناه على زويا الغارقة في البكاء:

ـ هل هي مريضة؟

ـ لا.. إنها متعبة فقط، قالت إيفيجينيا.

ـ «من أين آتون؟» تساءل بنبرة تدل على مدى لياقته وتهذيبه. وبدلاً من الإجابة، راحت الجدة، تحاول تذكر إسم الفندق الذي نزلت فيه مع المرحوم زوجها؛ كان ذاك منذ نيف وعشرين سنة. أما الآن، فلا همّ عندها سوى إيجاد فندق واستدعاء طبيب لمعاينة زويا.

ـ «أيمكنك إرشادنا إلى فندق؟ أي فندق شرط أن يكون نظيفا».

كانت إيڤيجينيا، تشد الحقيبة إليها، ففيها كل ما تبقى لها من الماضي، الذهب واللؤلؤ والجواهر. إضافة إلى مجموعة من بيض عيد الفصح التي أهداها إياها القيصر وهي مصنوعة من الذهب المرصع بالألماس، تعتبرها ايڤيجينيا أهم ثروة تمتلكها الآن، قد تضطر لبيعها يوماً ما لتأمين احتياجات زويا، ولا أحد غير زويا.

ـ «هل من منطقة معيّنة سيدتي؟» تساءل السائق.

ـ «لا.. إنما شرط أن يكون في حي راقٍ ومحتشم» ليس بمقدور الجدة أن تطلب المزيد من المواصفات. كل همها، إيجاد غرفة أو غرفتين لقضاء هذه الليلة، «وغداً نتدبر الأمر» قالت إيڤيجينيا في سرّها

- «هناك فندق صغير في منطقة الشانزيلزيه، وابن عمي يعمل فيه ليلاً، وقد يساعدكم».

- «أرجو ألا تكون أسعاره مرتفعة».

لم يعر السائق اهتماماً لما قالت الجدة؛ تأكد من أنهم، بشر عاديون، فالعجوز تبدو كفلاحة. إنها ترتدي ثياباً، جد عادية، لكنها تتكلم الفرنسية، وكذلك الفتاة الغارقة بالبكاء تعاني من نوبات السعال. وتمنى ألا تكون مصابة بالسل الذي كان منتشراً في باريس آنذاك.

- «أسعاره معتدلة».

- «حسناً، وشكراً على اهتمامك».

أدرك السائق، أنها امرأة قوية، ورغم تقدمها في السن، فهي ما تزال مفعمة بالحيوية والنشاط.

كان الفندق، يقع في شارع ماريوف، نزلاؤه من الطبقة الراقية الذين يقدرون القيم الأخلاقية، هذا ما استنتجته الجدة، وهي تجلس في قاعة الانتظار. أمّن الكاتب لهم غرفتين. إنما المرحاض مشترك، الأمر الذي صدم إيڤيجينيا، لكنها، لم تعطِ هذا الأمر أهمية كبرى.

بعد تأمين زويا في الغرفة، نزلت الكونتيسة العجوز إلى غرفة الانتظار ثانية، لترجو الكاتب استدعاء أي طبيب.

- «من أجلكِ سيدتي؟» الواقع أنه لا يمكن لومُه على سؤاله، فالكلُّ يبدو متعباً ومُرهَقاً وكأنه مريض.

- «من أجل صغيرتي» دون أن تقول إنها مصابة بالحصبة، أو تعتقد ذلك.

- «إنها مريضة جداً، سيدتي» قال الطبيب، وتابع «عليكِ الإعتناء بها ولكن، كيف انتقلت الحصبة إليها؟».

طبيعي جدّاً ألا تخبره، إنها التقطت المرض، من إحدى بنات القيصر، وهل سيصدق ذلك؟

- «من إحدى صديقاتها على ما اعتقد... لقد قمنا برحلة طويلة.. نحن من روسيا، وأتينا إلى هنا، عبر فنلندا، السويد والدانمارك».

حدق الطبيب بوجه المرأة العجوز، فأيقن أنها امرأة غير عادية، وأنها تنتمي إلى طبقة النبلاء، رغم أن ثيابها لا تدل على ذلك، وأيقن، كم عانت خلال هذه الرحلة الطويلة، لكنه لم يدرك مدى خوفها من المستقبل والأيام الآتية. كان الطبيب يعرف أن هناك آخرين وفدوا من روسيا إلى فرنسا، هرباً من جحيم الثورة، وأن هناك آخرين سيأتون خلال الأشهر التالية؛ هذا، إذا تمكنوا من الهرب.

- أنا جد متأسف لما عانيتم سيدتي.

- ونحن كذلك آسفون لإزعاجك في مثل هذا الوقت، ولكن، هل هي مصابة بذات الرئة؟

- ليس حتى الآن...

- سألتك، لأن ابنة عمها تطورت الحصبة عندها إلى ذات الرئة، وكانتا معاً ليل نهار.

- ثقي سأعتني بها.. وغداً صباحاً سأعود لزيارتها والإطمئنان عليها.

بهذا الوقت كانت زويا تهذي وتردد كلاماً لفت انتباه الطبيب «القصر الإمبراطوري.. العمة ألكسندرا، وما شابه».

صباح اليوم التالي، أخبر الكاتب السيدة العجوز، أن أميركا دخلت الحرب إلى جانب دول الحلفاء؛ لكن هذا لم يثر اهتمامها، فهي مدركة أن لا عودة إلى الوراء، ولا عودة إلى روسيا.

ڤيودور، الذي ذهب، لشراء الأدوية والطعام والفاكهة من أجل زويا. عاد مسروراً جداً، فقد تعرف إلى سائق سيارة أجرة روسي، ومن سان بطرسبورغ تحديداً وكان صديقاً للمرحوم قسطنطين، غير أن ايڤيجينيا لم تعطي أذناً صاغية لما قال، فهي الآن، لا تهتم إلا بزويا.

بعد أيام، تجاوزت الأسبوع، أخذت زويا تستعيد عافيتها، وتدرك أين هي. تأكدت أنها في باريس.

«منذ متى وأنا على هذه الحال يا جدتي؟» تساءلت وهي تحاول الجلوس في سريرها.

ـ «منذ وصولنا يا حبيبتي، أي منذ نيف وأسبوع. كنا جد قلقين عليكِ، وتمكن ڤيودور ـ رغم النقص في المواد الغذائية ـ من تأمين الفاكهة لكِ. يبدو، حتى باريس، مثلها مثل روسيا، تعاني من نقص في المواد الغذائية».

أحنت زويا رأسها، ثم ألقت نظرة عبر النافذة اليتيمة في الغرفة «الآن أدركت مدى معاناة ماشكا.. صدقيني أنا جد قلقة عليها». مسكينة زويا، حتى الآن، ما تزال تعيش في الماضي، وترفض قبول الحاضر.

ـ «فكري بنفسكِ فقط. لا شك تحسنت حالها، فنحن غادرنا القصر منذ أكثر من أسبوعين».

ـ «فعلاً...؟ ليس أكثر.. رباه. حسبت أن دهراً مضى على مغادرتنا تسارسكوي سيلو».

ليست زويا وحدها، كانت تعتقد ذلك، فالجدة كذلك؛ منذ أسبوع ونيف لم تنم الجدة كما يجب. كان تلقي بجسدها على الكرسي جانب سرير حفيدتها، حتى إذا ما تململت زويا، تكون جاهزة لتلبية طلبها، أو تهدئة أعصابها.

ـ غداً يمكنكِ مغادرة السرير، ولكن، عليكِ أن تستريحي وأن تتناولي الفاكهة، فهي تمنح جسدكِ القدرة على مقاومة الضعف والوهن.

ـ شكراً جدتي. وامتلأت عينا زويا بالدموع.

ـ ما هذه الحماقات يا ابنتي.. تشكرينني.. لماذا؟

ـ من أجل كل شيء.. من أجل إنقاذ حياتي، كم أنتِ قوية يا جدتي؟

تذكرت زويا معاناة الرحلة الطويلة، ومدى اهتمام جدتها بها. أمها، لم تكن لتفعل ذلك، بل كان عليها هي الإهتمام بها.

ـ ما علينا الآن، إلا الإستعداد لبناء حياة جديدة.. لا ضرورة للتفكير بالماضي.. أعرف مدى صعوبة هذا، ولكن، علينا تخطي الصعاب ومواجهة التحديات، أليس كذلك يا صغيرتي؟

ـ ليس بمقدوري تصور ما حدث.. ليس بمقدوري ألا أن أتذكر الماضي.

ـ الوقت كفيل بجعلنا، نتكيف مع الواقع الجديد، وتأكدي سنعيش سعداء هنا.. علينا أن نحاول.

ـ ولكن ليس كتلك الحياة التي كنا نحياها في روسيا.

ـ المهم أنكِ ما تزالين أمامي وتحت ناظري...

في تلك الليلة، غرقت الجدة في نوم عميق، استغلت زويا الفرصة وتسللت من السرير لجلب صورة من حقيبتها؛ صورة كان القيصر قد التقطها في ليفاديا، صورة تضم الفتيات الخمس معاً، زويا، تانيانا، انستازيا، أولغا وماري بالطبع؛ وراحت تحدق بها والنار تغلي في صدرها. «تُرى ما الذي جرى؟...» تساءلت وهي تضم الصورة إلى صدرها.

الفصل التاسع

تعافت زويا، وعادت الحيوية إلى جسدها، والتورُّد إلى خديها، والابتسامة إلى شفتيها، وعادت عيناها، تشعان بريقاً، أنسى الجدة، تعب ومعاناة وعذاب رحلة دامت أكثر من ثلاثة أسابيع، غير أنه لم ينسها، أن عليها الاستمرار في رعايتها والاعتناء بها والتفكير بالمستقبل. في الماضي، لم تكن ايفيجينيا وحدها مسؤولة عن زويا، كان هناك قسطنطين وناتاليا، ونيقولاي، وحتى القيصر والإمبراطورة أحياناً، أما اليوم، فأين هم هؤلاء؟

شمس نيسان الباريسية، أدخلت نوعاً من الدفء والإطمئنان، إلى صدرها. لكنها عجزت، عن نزع القلق والخوف من تفكيرها. إنها قلقة على زويا ومصيرها، وخائفة من الأيام الآتية. إنها اليوم أمام بداية حياة جديدة، تختلف كلياً، عن الحياة التي تعودّت عليها؛ فلا بذخ ولا إسراف.

لا بد من استئجار شقة صغيرة. فهي أنفقت القسم الأكبر من المال الذي أعطاها إياه القيصر، وتكاليف الإقامة في الفندق باهظة. صار لزاماً بيع بعض من المجوهرات التي ما تزال مخبأة في ثنايا الثياب أو تحت بطانتها.

ذات يوم مشمس، أوصت ڤيودور البقاء مع زويا والإهتمام بها واستدعت سائق سيارة أجرة ليقلها إلى صائغ في شارع كامبون، لبيع عقد من الياقوت. ما إن أعطت العنوات للسائق، حتى التفت إليها وراح يحدق بها. كان في الستين من العمر، طويل القامة، أشيب الشعر والشاربين، بهي الطلة.

ـ أيعقل هذا؟.. أهذه أنتِ سيدتي الكونتيسة؟

تمعنت الجدة بوجهه، ويا للمفاجأة؟ إنه الأمير ڤلاديمير ماركوفسكي، صديق ابنها قسطنطين ورفيق طفولته وشبابه. وسبق لابنه الأكبر، أن تقدم بطلب يد الدوقة ناتاليا، لكنها رغم وسامته وثرائه رفضته، بسبب طيشه واستهتاره في الحياة.

ـ كيف وصلتِ إلى هنا.. سيدتي الكونتيسة؟

ضحكت وهي تهز رأسها تعجباً لصدف الحياة. في باريس، تلتقي وجهاً مألوفًا إنه السائق الروسي الثاني الذي تلتقيه هنا. أدركت إيڤيجينيا، أن نبلاء روسيا، تحولوا إلى سائقي سيارات أجرة، وأن عليهم الاستعداد لتغيير نمط حياة تعودوا عليه. روت له، كل ما حصل، حتى بأدق التفاصيل، لكن حكاية خروجه، كانت أكثر إيلاماً.

ـ إذن أنتِ تقيمين في هذا الفندق؟

ـ نعم، إنما لفترة قصيرة، فعلينا، أنا وزويا، البحث عن شقة.

ـ آه.. وزويا أيضاً هنا؟ لا بد أنها صارت صبية، وماذا عن ناتاليا؟

ناتاليا كانت بدورها صديقة لزوجته، وآلمه جداً ما فعل الثوار في قصر ڤونتانكا.

ـ قتلت هي أيضاً.. كان ذلك بعد أيام من مقتل قسطنطين ونيقولاي.

كان ما يزال من الصعب عليها أن تتذكر ما حدث؛ أن تتذكر جسد حفيدها الذي التهمته النيران، أن تتذكر مشهد ناتاليا، وهي تطل عبر نوافذ القصر، والنار مشتعلة في ثوبها الأبيض. أوقف الأمير سيارته ليمسح بضعة دموع انهمرت من عينيه، لا حزناً مما سمع، بل على ولديه أيضاً وهو يقول «أنا جد آسف سيدتي الكونتيسة.. أنا هنا برفقة ابنتي العزباء».

ـ كلنا آسفون يا ڤلاديمير. إنما الأسف الأكبر هو على القيصر وألكسندرا وعائلتهما. هل وصلتك أية أخبار عنهما؟

ـ «لا شيء على الإطلاق.. كل ما أعرفه، هو أنهم ما يزالون تحت الإقامة الجبرية في قصر تسارسكوي سيلو، والله وحده يعلم؛ إلى متى ستطول هذه الإقامة.. لكنهم خائفون.. هل تنوين الإقامة في باريس؟»

ـ أعتقد ذلك.. يبدو أن الإقامة هنا أكثر إراحة، وأكثر ملائمة لزويا.

أحنى رأسه دلالة على موافقته لما تقول؛ فباريس تحولت إلى مكان آمن يلجأ إليه الروس الهاربون من أعمال الشغب والنهب والسلب، ويزداد عددهم يوماً بعد يوم.

توقف ڤلاديمير أمام محل الصائغ؛ هل أنتظركِ هنا، كونتيسه ايڤيجينيا بترونوفا؟

سؤال أثلج صدرها، إنها تتكلم الروسية مجدداً ومع إنسان يعرف اسمها وما يزال يبدي الإحترام لها، وكأن لا ثورة في روسيا، ولا هم لاجئون هنا.

- إن لم يكن لديك عمل آخر؟

- لا عليكِ.. أنا هنا بانتظارك.

ساعدها في الترجل. وبقي ممسكاً بيدها، حتى باب المحل. طبيعي أن يعرف سبب مجيئها، كل اللاجئين الروس، يبيعون ما تمكنوا من تهريبه من مجواهرات، كانت لأسابيع خلت، أشبه بدمى الأطفال، تهدى بمناسبة أو بغيرها.

بعد نصف ساعة، عادت الكونتيسة وطلبت منه إعادتها إلى الفندق. تأكد لفلاديمير أن الكونتيسة غير راضية، أو غير مقتنعة بما دفعه الصائغ. لم تنطق بأية كلمة. كان السائق الأمير يعي أن عليها الإهتمام بنفسها وبحفيدتها زويا التي هي أصغر سناً من ابنته.

- أكلّ شيء على ما يرام كونتيسة ايڤيجينيا بترونوفا؟ تساءل ڤلاديمير وهو يساعدها في الترجل من السيارة أمام الفندق في شارع ماريوف. نظرت إليه بتمعن وتساءلت «أين ڤلاديمير، ذاك الأمير الوسيم البهي الإطلالة الدائم الإبتسامة؟ كل شيء يتغير. لقد تركت الثورة آثارها على النفوس كما على الوجوه».

- أعتقد ذلك.. إنها أيام صعبة..، وعلينا مواجهة تحديات كثيرة.. أليس كذلك يا ڤلاديمير؟

كانت إيڤيجينيا تفكر. وماذا بعد؟ سيأتي يوم لن تعود لديها مجوهرات .. إذن ما العمل؟ فلا هي ولا زويا، قادرتان على القيام بما يقوم به ڤلاديمير، ڤيودور لا يتقن الفرنسية أو الإنكليزية، وغير راغب أن يتعلم أية لغة غير الروسية. لقد تحول إلى عبء ثقيل، فأجرة غرفة واحدة، أقل بكثير من أجرة غرفتين، ولكن لن تتخلى عنه، فهو أثبت

ولاءه واخلاصه، ولولاه، لما كانت هي الآن في باريس برفقة زويا. ستبقى تهتم به، اهتمامها بحفيدتها. حصلت اليوم، على قدر من المال، يساعد على العيش لشهور قليلة، ولكن ماذا بعد ذلك؟ عليها التفكير بمورد رزق دائم. عليها التفكير بإيجاد عمل يؤمن دخلاً ثابتاً ودائماً.

خلال ساعتين ليس أكثر، بدت أيفيجينيا، وكأنها أكثر سناً مما كانت عليه، هذا ما تخيله الأمير ڤلاديمير ماركوفسكي وهو ينحني ليقبل يدها مودعاً ورافضاً تقاضي أي أجر.

مضى السائق في طريقه، وتسمرت الجدة تفكر من جديد، وبكل شيء. كانت قلقة ألا تعود فتلتقيه ثانية، لكنها بعد يومين، كانت هي وزويا وڤيودور يهمون بالخروج من الفندق، فإذ به بانتظارهم في ردهة استقبال.

انحنى ڤلاديمير، وقبّل يد الكونتيسة، وبالوقت ذاته، كان يسرق النظر إلى زويا التي بدت صبية مكتملة الأنوثة، رائعة الجمال.

- أعتذر للازعاج سيدتي الكونتيسة أيفيجينيا بترونوفا، ولكني علمت أن هناك شقة خالية، بالقرب من الباليه رويال.. إنها في حي راقٍ، تتألف من غرفتين وانتبه ڤلاديمير إلى وجود ڤيودور فتابع يقول «قد لا تكون تلبي حاجتكم».

- أبداً.. على الإطلاق..

ابتسمت الجدة وهي تنظر إلى وجه يذكرها بماضيها. إنه أشبه بالهدية الذكرى.

- أنا وزويا نتقاسم غرفة واحدة، والأخرى لفيودور كما نفعل هنا.

- بالطبع يا جدتي..

ـ ... متى يمكنكم معاينتها؟

بدا واضحاً أن الأمير ڤلاديمير راح يبدي اهتماماً زائداً في زويا، غير أن الجدة لم تلاحظ ذلك.

ـ الآن.. كنا ننوي التنزه بعض الشيء.

كان بعد ظهر يوم من أيام أيار الدافئة، ولكن لم تكنْ الجدة قادرة على استيعاب ما يجري في العالم من نزاعات، أوروبا كلها في حالة حرب مع ألمانيا، وها هي أميركا تنضم إلى هذه الحرب اللعينة.

ـ ولما لا.. فقد يسمح لنا أصحابها برؤيتها الآن.

في الطريق، أسهب ڤلاديمير في الحديث عن الروس الوافدين يومياً إلى باريس، وعن معاناتهم وعذاباتهم، وعن الحال في المدن الروسية، إنما لا شيء جديداً عن القيصر وعائلته، حتى أنه ليس بإمكانهم التأكيد إن كان ما يزالون تحت الإقامة الجبرية، أو رُحّلوا إلى مكان آخر، بدا واضحاً أن ما من أحد، عاد يهتم بغيره، ذكر أسماء كثيرة مألوفة لزويا، إنما لم تكن تربطها بها أية علاقة صداقة. لكن اسماً واحداً أثار انتباهها، إنه دياغليف الذي يرغب بإحياء فرقة الباليه الروسية، وقد اتخذ مقراً له في شاتيليه، أكد ڤلاديمير «لقد بدأ فعلاً بإجراء الإختبارات للراغبين في الإنضمام إلى الفرقة».

أصغت زويا باهتمام كلّي، لما نطق به ڤلاديمير عن دياغيليف ورغبته وأحست، أن قلبها يكاد يخرج من صدرها. فيما مضى، كان انتماؤها للعائلة الحاكمة، يحول دون تحقيق أمنيتها أن تكون راقصة باليه؛ وأين العائلة الحاكمة اليوم؟ بعد غدٍ إن لم يكن غداً، يفترض بها أن تبحث عن عمل، أي عمل، يساعدهم على تحمل تكاليف الإقامة في باريس، أو في

مكان آخر من العالم، إذن لماذا لا تكون إحدى الراقصات في هذه الفرقة؟

كانت الشقة بحد ذاتها صغيرة، تتألف من غرفتي نوم وغرفة جلوس ومطبخ صغير، أما المراحيض فهي مشتركة مع أربع شقق أخرى، في الطوابق العليا وأمام الشقة حديقة صغيرة، بالطبع لا مجال للمقارنة بينها وبين قصر فونتانكا أو فندق فخم، لكن للظروف أحكاماً. وايڤيجينيا إنسانة واقعية جداً، مدركة أن عليها التكيف مع الواقع الجديد. خاصة وأن بدل الإيجار يعادل نصف تكاليف الإقامة في الفندق.

ـ ما رأي سيدتي الكونتيسة؟ قال ڤلاديمير، وفي عينيه نظرات الأسف.

ـ حسناً، إنها تفي بالغرض المطلوب مرحلياً، فمن يدري، قد نجد غداً أو بعده شقة أفضل وأكثر ملائمة... يا سمو الأمير، علينا أن نكون منطقيين وواعين لما نحن فيه».

غريب أمر هؤلاء اللاجئين الروس، جاؤوا إلى هنا هرباً، وتخلوا عن ثروات وممتلكات وحياة عز ورفاهية، لكنهم، لم يتخلوا عن كبريائهم والإستمرار في التخاطب وكأنهم ما يزالون في سان بطرسبورغ.

أثناء العودة، إلى الفندق، صممت الكونتيسة العجوز، أن يتم الإنتقال إلى الشقة الجديدة. في غضون عشرة أيام، وضعت لائحة بما يمكنها شراؤه وتحضيره بالإشتراك مع زويا، كالستائر وشراشف الأسرة.

ـ أعتقد أن سجادة مزخرفة، تضفي رونقاً على الغرفة، أليس كذلك يا صغيرتي؟

بالطبع، لن تكون هذه السجادة، كتلك المصنوعة من الأوبيسون، التي كانت غرف قصر فونتانكا، تلك من الماضي، والماضي مضى.

ـ آسفة جدتي....

كانت زويا، غارقة في أفكار أخرى.. أفكار بعيدة وغريبة جداً عن تلك التي تدور في رأس جدتها. كانت تمد رأسها من نافذة السيارة، لتراقب الشوارع الجديدة، والشانزيليزيه بخاصة. كانت تفكر بما هو أهم بكثير مما يشغل بال جدتها، بما قد يؤمن لهم حياة لائقة والسكن ليس في قصر، إنما في شقة واسعة مريحة؛ وفي الوقت ذاته، كانت تفكر، بما ستفعله جدتها، بعد الوصول إلى الفندق، حيث تمضي ليلها، تضع لوائح المشتريات، وتعد الخطط، وإصدار الأوامر لفيودور بالذهاب لشراء الأثاث والسجاد.

توجه الجميع بالشكر للأمير ماركوفسكي وهم يترجلون من السيارة. لكن المفاجأة الكبرى، كانت في رغبة زويا القيام بنزهة بدون مرافقة فيودور الأمر الذي آثار حفيظة ايفيجينيا، ورفضته، رفضاً مطلقاً. لكن زويا، التي ورثت عن جدتها لون العينين، والإطلالة البهية، والعناد أيضاً وإرادة التحدي.

ـ لن أذهب بعيداً.. وأعدكِ لن أتأخر.

ـ أتسمحين لي بمرافقتكِ.

ـ لا... إبقِ هنا، وسنتناول الشاي معاً بعد عودتي.

تنهدت الجدة. فهي تعي أن زويا اليوم، هي غير زويا الطفلة، لكنها اليوم مسؤولة عنها أكثر من أي يوم مضى.

وعلى مضض سَمحت الجدّة لحفيدتها بالخروج وحيدة.

ما إن خرجت زويا من الفندق، ووطأت قدماها رصيف الشارع، حتى أوقفت سائق سيارة أجرة، متضرعة لله أن يكون يتكلم الروسية.

ـ إلى الشاتيليه من فضلك.. وعادت تتضرع إلى الله؛ راجية القديسين أن يكون السائق يعرف الموقع المقصود، ولكن سرعان ما وجدت، أن الله استجاب لدعائها.

مسرعة ترجلت من السيارة، ودخلت المبنى، وهي تستعيد أحلامها القديمة بالذهاب إلى مارينسكي، وبما كانت تقوله لماري عن حلمها الكبير. وكم كانت فرحتها كبيرة، حين رأت سيدة، بثياب رقص البالية تقوم ببعض التمرينات؛ أدركت أن هذه المرأة، ليست راقصة وحسب، بل مدربة. بتهذيب كلي تقدمت وأعربت عن رغبتها بمقابلة السيد دياغيليف.

ـ الآن؟... وهل لي أن أعرف لماذا؟

ـ أنا راقصة، وأرغب بإداء الإختبار أمامه.

لم تنتظر زويا مزيداً من الأسئلة، بل أسرعت، وقدمت للسيدة كل أوراقها الثبوتية، بما فيها العائدة للسيدة ناستوفا...

ـ حسناً، هل سبق والتقيته، سابقاً؟ سؤال فظ فعلاً، لكن السيدة لم تنتظر الجواب، بل تابعت تقول «لكنكِ آتية بثياب، لا تتناسب مع تجربة الإداء».

انتبهت زويا لما ترتدي، تنورة صوفية زرقاء، وقميصاً ذا ياقة تشبه ياقات قمصان البحارة، وحذاء جلدياًأسود، ما زالت تنتعله منذ

خروجها من تسارسكوي سيلو. حدقت السيدة بها وهي تبتسم، «بالفعل إنها فتاة صغيرة وبريئة، ويصعب التصديق أنها جدية في تحقيق رغبتها».

ـ أعتذر سيدتي، هل بمقدوري العودة غداً.. هل هو هنا؟

ـ لا... لكنه سيحضر قريباً، إنه سيبدأ التمرينات عند العاشرة.

ـ أعلم ذلك.. وأنا راغبة في الرقص أمامه والإنضمام إلى فرقته.

ضحكت السيدة بصوت عال وهي تقول «الآن.. الآن.. وأين تمرنتِ سابقاً؟».

ـ في مدرسة السيدة ناستوڤا، وتركتها منذ شهرين ليس أكثر.

رغبت أن تكذب وتقول، في مارينسكي أيضاً، لكنها رأت أن قول الحقيقة هو الأفضل. ولماذا الكذب، طالما أن مدرسة السيدة ناستوفا هي واحدة من أكثر مدارس الباليه شهرة في روسيا؟

ـ وإن أحضرت لكِ ثوب الرقص وحذاء فهل ترقصين الآن؟

ـ نعم.. إذا كان هذا لا يسبب لكِ إزعاجاً.

أحست زويا بفرح عظيم، الآن ستحصل على عمل يعينها على الحياة ويؤمن حياة لائقة لجدتها.

كان الحذاء ضيقاً، لكن زويا، تذكرت ما كانت تردده السيدة ناستوفا على مسامعها من ثناء ومديح وتقدير. كانت السيدة تعزف على البيانو وزويا تتمايل على الخشبة بإحساس رائع، أبلت بلاءً حسناً، أثار إعجاب السيدة التي كانت تراقب حركاتها، فيما أناملها تداعب أوتار البيانو، رقصت زويا ساعة كاملة، دون تعب ولا ملل.

توقفت السيدة عن العزف، وأحنت رأسها «هل يمكنك العودة بعد يومين يا آنسة؟».

انفرجت أسارير زويا «هل حصلتُ على الوظيفة؟ هل سأكون ضمن عديد الفرقة؟».

ـ لا.. لكنه بعد يومين، سيكون دياغيليف هنا، وسنرى ماذا سيقول، كذلك هناك أساتذة آخرون.

ـ حسناً، سأتدبر حذاء.

ـ أما لديكِ حذاء؟ قالت السيدة بتعجب واندهاش.

ـ الحقيقة، لا.. فقد تركنا كل شيء في روسيا، قتل أبواي وشقيقي على يد الثوار، تمكنت من الهرب برفقة جدتي العجوز؛ لذا عليّ إيجاد عمل.. فلا مال لدينا، وعليّ إعالتها.

كلمات قليلة، اختصرت مجلدات، كلمات قليلة، لامست قلب السيدة.

ـ كم عمركِ يا آنسة؟

ـ ثمانية عشر بالتمام والكمال.. وقد تدربت على رقص الباليه لمدة اثنتي عشر سنة.

ـ أنتِ رائعة زويا.. بغض النظر عما سيقوله دياغيليف أو الآخرون... لا تسمحي لأحد أن يحبط من عزيمتك.. أنتِ رائعة.

سمحت زويا لنفسها أن تضحك بصوت عال، هذا ما قالته لماري يوم زيارتها قبل إصابتها بالحصبة.

شكراً.. شكراً جزيلاً. كانت ترغب بضمها إلى صدرها وتقبيلها، لكنها تمالكت نفسها. كانت المخاوف ما تزال تؤرقها، فهي سترقص أمام دياغيليف، لكن هذه المرأة، أعطتها أملاً، فوق هذا كله، ها هو حلمها، قد يتحول واقعاً. ومن يدري فقد تكون باريس نقطة انطلاقها.

ـ في المرة القادمة، سأرقص أفضل، فمنذ شهرين لم أتمرن..

ـ إذن ستبدعين يا زويا.

ـ والآن عليّ العودة إلى جدتي، إنها تنتظرني لنشرب الشاي معاً.

دخلت زويا غرفة الملابس، وعادت وارتدت تنورتها الصوفية وقميصها ذا الياقة البحرية وحذاءها الجلدي الأسود، وقبل خروجها عادت وشكرت السيدة وهي تتساءل «في أي وقت؟».

ـ الساعة الثانية ظهراً.. حكّت السيدة جبينها كأنها تحاول أن تتذكر شيئاً «عفواً آنستي هل تذكرينني باسمك؟».

ـ زويا أوسيبوف...

خرجت زويا، والسيدة تلاحقها بنظراتها، مستعيدة ذكرى أول مرة رقصت أمام دياغيليف... كان ذلك منذ عشرين سنة. مسكينة زويا، تمتمت السيدة، فتاة رائعة، مليئة بالحيوية، عيناها تشعان بريقاً...

الفصل العاشر

يومان من القلق والخوف. يومان من التفكير بالفرصة السانحة، وبكيفية اقتناصها. راحت الأفكار تتزاحم في رأسها وعاد الحلم يتوهج. تذكرت، كيف كانت تتحدّث إلى ماري عن الباليه وراقصات الباليه، وكم تمنت بينها وبين نفسها على الأقل.. لو أنها ليست فرداً من أفراد أسرة القيصر، طالما أن هذا الإنتماء، يحول دون تحقيق الأحلام.

يومان من التساؤل: ماذا؟... لربما؟... وكيف؟... ولكن السؤال الأهم، هو ماذا ستقول لجدّتها، إن سألتها «كيف اشتريتِ هذه الثياب، البذة والحذاء المخصصين لرقص الباليه ولماذا؟» أتقول لها «بعت ساعة يدي»؟

لا.. لن تفعل، فالوقت ما يزال مبكراً، وموقف الجدّة معروف مسبقاً.

عند الثانية ظهر يوم الجمعة، كانت زويا، تقف وجهاً لوجه أمام دياغيليف، وما هي إلا لحظات، حتى اعتلت خشبة المسرح وراحت ترقص على مرأى منه ومن الكثيرين غيره. كانت ترقص، وتتضرع للملائكة والقديسين، نسيت أن هناك من يراقب حركات رقصها، كانت ترقص لإشباع حبها للرقص، فراحت تتمايل مع الموسيقى،

سمحت لجسدها، أن يعبر عن ذاته، ولشعرها أن يتطاير وكأنه يشاركها الرقص.

بعد ساعة ونصف من الرقص الإفرادي، طلب منها الرقص بمشاركة رجل، وما الهم؟ ليكن. عندما انتهت، نظرت إلى أولئك الذين سيصدرون حكمهم.. فإما أن تكون السيدة ناستوف صادقة فيما كانت تقول، أو تكون كاذبة. كان دياغيليف والأساتذة الآخرون، بما فيهم، السيدة التي رقصت لها، وحدها، قبل يومين، يتهامسون بكلام غير مفهوم. إنهم يقيّمون، أداءها وأخيراً تقدم أحدهم ليقول «يوم الجمعة القادم، وعند الساعة الرابعة بعد الظهر تحديداً.. وشكراً جزيلاً يا آنسة».

انهمر الدمع وبلّل وجنتيها. السيدة ناستوفا كانت صادقة في ثنائها، واستجابت الآلهة لدعائها. ولكن...«ماذا يعني ما قاله هذا الأستاذ؟» لم تشأ زويا بطرح هذا التساؤل مباشرة، بل اكتفت بالإنتظار حتى الأسبوع القادم «... فلربما.. ربما.. أكون، أصبحت واحدة من فرقة الباليه الروسية». كان بودها، لو ترتمي بين ذراعي جدتها وتخبرها، لكن.. ماذا ستقول الجدة؟ إذن من الأفضل إبقاء الأمر سراً، فسيأتي يوم تعرف فيه كل شيء، سترتاب في خروجها شبه المتكرر وستطرح السؤال «لما هذا الغياب، وإلى أين تذهبين؟». وبالفعل، جاء ذاك اليوم.

ـ ما بكِ تكثرين من الذهاب منفردة؟

ـ سأقول لكِ الحقيقة، أجريت اختباراً أمام دياغيليف، وأنا الآن راقصة في فرقة الباليه الروسية، وبعد أيام سترقص للمرة الأولى أمام الجمهور.

ـ أجننتِ؟ راقصة؟... أتتخيلين ماذا ستكون ردة فعل والدكِ؟

ـ لا تتحدثي عن والدي.. إنه ميت يا جدتي.. ولو كان ما يزال حياً، لما كنا نحن هنا، ولكانت ردة فعله عنيفة حيال ما جرى ويجري في روسيا. الآن.. علينا فعل شيء يا جدتي، علينا أن نعمل قبل أن نصل إلى يوم، نشكو فيه جوعنا إلى الآخرين.

ـ هكذا إذن؟ تخافين العوز والفقر؟ سأقدم لكِ الليلة وجبتي عشاء، بدلاً من وجبة واحدة.. لن تعودي إلى هناك ثانية زويا.

ـ «ماذا؟» قالت زويا، وهي تقف أمام جدتها، وقفة التحدي؛ وقفة لم يسبق لها أن وقفتها، لا أمام والدتها ولا أمام جدتها. إنما اليوم، عليها أن تعمل، عليها أن تؤمن دخلاً يؤمن لجدتها العيش بكرامة وكذلك لفيودور ولها. فهي ترفض أن تعمل بائعة في إحدى المحلات، ولا خادمة في منزل تكنس الأرض، تجلي الصحون وتتلقى الأوامر، وبالطبع لن تكون مصممة قبعات نسائية. إذن ما عليها أن تفعل؟ على جدتها أن تتفهم الوضع الجديد.

ـ جدتي.. فكري جيداً.. بعتِ عقد الياقوت، ولكن بكم؟ أليس بثمن بخس؟ وإلى متى سنستمر في بيع المجوهرات التي يتدنى سعرها يوماً بعد يوم. أتعرفين لماذا؟ لأننا ـ اللاجئين الروس ـ كلنا نبيع مجوهراتنا لنعتاش بثمنها.. جدتي سيأتي يوم، إن عاجلاً أم آجلاً، نجد أنفسنا مجبرين على البحث عن عمل، وهذا ما أفعله أنا الآن. إني أستبق الزمن.

ـ ما هذه السخافات؟ ما يزال لدينا الكثير من المال، ومتى نفذ بإمكاننا القيام بعمل محترم. أنا أعمل في الخياطة، وأنت تدرسين

الروسية، الفرنسية، الألمانية أو حتى الإنكليزية إذا شئتِ.. أنتِ خريجة معهد سمونلي يا صغيرتي.. ما من سبب يدعوكِ لأن تكونِ راقصة، مثل... مثل ولم تشأ لفظ إسم عشيقة القيصر قبل زواجه من ألكسندرا. وتابعت الجدة تقول «في مطلق الأحوال لن أسمح لكِ أن تكوني راقصة».

ـ لا خيار أمامكِ يا جدتي. قالت زويا بلهجة حاسمة.

ـ زويا.. عليكِ إطاعة أوامري...

ـ هذه المرة.. لا يا جدتي.... أعتذر كل الإعتذار.. إن ما أفعله ليس من أجلي، بل من أجلكِ أيضاً.

امتلأت عينا العجوز بالدموع وهي تأخذ حفيدتها بين ذراعيها «إلى هذا الحد وصلنا؟».

ـ ما المشكلة في أن أكون راقصة؟ أولم تتعجبي لما يقوم به الأمير ڤلاديمير ماركوفسكي.. سائق سيارة أجرة؟ أهذا عمل يليق بأمير؟ وهل هو أكثر احتراماً من العمل الذي سأقوم به؟

ـ إنه لأمر محزن... لثلاثة أشهر خلت. كان رجلاً مميزاً، مثله مثل أبيه وها هو اليوم أشبه بمتسول.. ولكن ماذا بإمكانه أن يفعل؟ هذا كل ما يستطيعه، يكفي أنه مايزال حياً. أما أنتِ يا زويا، فما تزالين في مقتبل العمر، وليس بمقدوري أن أقف متفرجة عليكِ وأنتِ تدمرين حياتك.

غطت إيفيجينيا وجهها بيديها وراحت تبكي «أعترف، لم أعد قادرة على مساعدتكِ كما في السابق».

صدمت زويا لرؤية جدتها وهي تبكي، لأول مرة، في حياتها، تراها

تنتحب، أحست بغصة في صدرها، لكن، لا تراجع عن العمل كراقصة في فرقة الباليه الروسية، إنه أفضل بكثير، من أن تعمل كخياطة أو معلمة للغة الروسية.

وضعت يدها على كتف جدتها وشدتها إلى صدرها «أرجوكِ جدتي لا تنتحبي... أرجوك.. أنا أحبكِ... أحبكِ بجنون».

ـ عديني إذن، أنكِ لن تكوني راقصة.. أرجوكِ زويا.. أتوسل إليكِ...

نظرت زويا إلى جدتها بعين دامعة. ثلاثة أشهر ليس أكثر، غيّرت حياة زويا، جعلتها أكبر سناً من عمرها، ولا عودة إلى الوراء «حياتي لن تكون ملكاً لأحد يا جدتي، فليس بمقدوري، ولا بمقدوركِ تغيير الذي حدث. فالذي حدث، حدث.. ولا عودة إلى الوراء.. حتى العم نيقولا والعمة ألكسندرا، عليهما الآن أن يعملا ما كان يرفضان القيام به. إذن أرجوكِ جدتي، سامحيني.. لا تغضبي مني».

ـ أنا لست غاضبة.. أنا حزينة، أحس أني بتُّ عاجزة عن تقديم يد العون.

ـ يكفيكِ أنكِ أنقذتِ حياتي... أخرجتني من سان بطرسبورغ... ومن روسيا حتى.. لو لم تفعلي ذلك، لكانوا قتلوني، أو مت حرقاً في المنزل، كما حصل لوالدتي.. ليس بإمكانكِ ولا بإمكاني، أن نغيّر وجهة سير التاريخ... علينا أن نتكيف مع الواقع الجديد، علينا أن نفعل ما بوسعنا، ولهذا، سأرقص... أرجوكِ إسمحي لي.. وامنحيني بركاتكِ.

تنهدت العجوز، وهي تحدّق إلى حفيدتها. قسطنطين ذهب دون

رجعة، وكذلك حفيدها. مهما يكن، فزويا راشدة، ولن تتراجع عما صممت عليه. ولأول مرة، شعرت ايڤيجينيا أنها عاجزة عن مقاومة تطلعات زويا.

ـ لكِ بركاتي، يا صغيرتي العنيدة... ولكن كيف حصلتِ على بذة الرقص لإجراء الإختبار.

ـ اشتريتها...

ـ ماذا؟... منذ وصولنا إلى هنا لم تطلبي مني حتى فرنكاً واحداً.

ـ بعت ساعة يد أهدتني إياها إحدى زميلاتي في معهد سمونلي.

ضحكت ايڤيجينيا، لقد تأكد لها أن حفيدتها، إنسانة مميزة وجريئة.

ـ يفترض بي أن أكون فخورة بكِ.. يكفي أنكِ لم تبيعي ساعتي.

ـ ما هذا الذي تقولينه جدتي.. هذا لن يكون يوماً، فأنا أسعى من أجلكِ.

ـ وحده الله يعلم ما تنوين فعله.

ـ تتكلمين كنيقولاي.

ابتسمت زويا ابتسامة حزينة، واغرورقت عيناها بالدمع؛ انفطر قلبها عند ذكر اسم أخيها. ولكن ما العمل؟ عليها الآن مواجهة عالم جديد، والعيش بنمط حياة جديد والتعرف إلى أناس جدد.

الفصل الحادي عشر

عند العاشرة ليل الحادي عشر من أيار انتهى العرض الأول للفرقة. عادت زويا إلى الشقة الجديدة التي انتقلوا إليها، منذ يومين ليس أكثر لتجد جدتها تنتظرها في غرفة الجلوس المتواضعة الأثاث. طاولتان خشبيتان صغيرتان، ثلاثة مقاعد عادية، وسجادة خضراء مزخرفة ببعض الرسوم، وإناء زهور. اختفت الطاولات الرخامية، والمقاعد الوثيرة، والسجاد المحاك من خيوط الأوبيسون، وكذلك المصابيح العاجية. الحياة في هذه الشقة، تختلف كلياعن الحياة في قصر فونتانكا.

ألقت زويا بنفسها على مقعد قرب المدفأة التي تلتهم الحطب الذي أتى به ڤيودور والأمير ڤلاديمير يوم أمس، من إحدى الضواحي. لم تكن زويا تعاني من التعب والإرهاق وحسب، بل ومن ألم وخدر في القدمين، لقد رقصت ساعتين كاملتين.

لاحظت الجدة، التي كانت قد أعدت الشاي مسبقاً ذلك، فتمنت لو يكون، سبباً يجعل حفيدتها تعود عن قرارها. لكنها، حين حدقت في عينيها، وهي تقدم لها كأس الشاي، وجدت شيئاً آخر، اكتشفت أن هاتين العينين الخضراوين، تشعان بريقاً لم تعهده فيهما، منذ تلك الليلة المشؤومة، ليلة قتل نيقولاي على يدي الغوغائيين، تلك الليلة التي

حصدت الإطمئنان من النفوس وزرعت الخوف والقلق مكانه.

جلست ايفيجينيا قرب حفيدتها، احتضنتها إلى صدرها، وراحت تلاعب شعرها الناري المنسدل على الكتفين. تذكرت زويا، يد ماري، وتذكرت تلك الغرفة في تسارسكوي سيلو، أحست بنار الذكرى تحرق صدرها.

ـحسناً يا صغيرتي... كيف كان أداؤك؟ يبدو أنك جد متعبة.

ـ كان رائعاً يا جدتي.. رائعاً... الكل صفّق لي...

ـ وهل كان هناك كثيرون من الحضور؟

ـ لست أدري.. لم أعر هذا الأمر اهتماماً، كل همي كان محصوراً في أن أرقص وأرقص، أن أنتقل من زاوية على خشبة المسرح إلى زاوية أخرى محمولة على أجنحة الملائكة، أو على بساط الريح... نعم كانت الصالة ملأى... ولكن الأهم، أني رقصت ورقصت، كنت أتمنى أن أرى وجه ماري، أو ناتاليا أو أولغا، أو العم نيقولا وعمتي ألكسندرا، وخاصة وجهك أنتِ يا جدتي، لأستمد منه الحيوية والإندفاع.

ـ أعدكِ أني سأكون قريباً بين المشاهدين...

ـ وكذلك سيكون الأمير ڤلاديمير ماركوفسكي وابنته.

ـ هذا يعني، أنكِ لم تغيري رأيكِ يا صغيرتي.

هزت زويا رأسها وهي تسكب الشاي وارتسمت على شفتيها إبتسامة رقيقة؛ كيف تغير رأيها، والكل أثنى على أدائها وأبلغوها أنها ستكون الراقصة الأساسية في العروض القادمة. ومدت يدها،

لتدس في يد جدتها ما أُعطيت لقاء عملها، وهي ترمقها بنظرة خجولة، جعلت الدمع يبلل خدي ايفيجينيا.

ـ ما هذا يا صغيرتي؟

ـ إنه لكِ يا جدتي...

ـ ولكن. لست بحاجة له يا صغيرتي.

الواقع يقول العكس، فالجدران العارية، والسجادة الصغيرة التي تغطي أرض الغرفة، تقول غير ذلك. تقول إنهما بحاجة إلى المال. كلتاهما تدرك، أن ثمن عقد الياقوت، قارب على النفاذ، وأنهما لن يتمكنا من الإعتماد على بيع المجوهرات إلى ما لا نهاية.

ـ أمن أجل هذا تعملين يا ابنتي؟ تساءلت ايفيجينيا بنبرة صوت حزين.

برفق، مررت زويا يدها على وجنتي جدتها، فيما هي منحنية تقبّل يديها.

ـ نعم جدتي.. أنقذتِ حياتي، والآن جاء دوري للإهتمام بكِ، أنا لم أعد صغيرة، لقد كبرت.. كبرتُ كثيراً يا جدتي، ثلاثة أشهر هي أشبه بعشر سنين... علينا تقبل الواقع الجديد، والسعي لتغييره نحو الأفضل، لا أعدكِ بفونتانكا جديد، بل بحياة كريمة تليق بإيفيجينيا أوسيبوف.

ـ عند منتصف الليل أوت الجدة إلى سريرها، وبقيت زويا وحدها في غرفة الجلوس، لتخط رسالة إلى ماري، تخبرها فيها، عن الحلم الذي تحقق، عن السعادة التي تغمرها، تخبرها فيها عن باريس وشوارعها، إنما دونما أي ذكر للشقة. لم تشعر زويا أنها تكتب رسالة، بل وكأنها

تتحدث إلى رفيقة العمر وجهاً لوجه، لذا، جاءت رسالتها التي عنونتها باسم الدكتور بوتكين، خالية من التكلف والتصنع، مليئة بالعفوية والصدق، مع أنها كانت عاجزة عن التعبير عما يجول في خاطرها من أفكار، وعن السعادة التي غمرتها وهي ترقص بفرقة دياغيليف. وأنهت الرسالة، بأمل استلام رد بأسرع ما يمكن.

لم تكد زويا تنتهي من كتابة الرسالة، والسماح لنفسها أن تسترسل بالأحلام، حتى علت أصوات صفارات الإنذار، فاضطر الثلاثة، زويا، الجدة وفيودور للذهاب والإختباء في أحد الملاجيء قرب البناية، إتقاءً من غارة جوية، ذكّرت الجميع، أن رقعة الحرب بدأت تتسع، وأن الخطر يهدّد الكل ويزرع الخوف في قلوب الناس، إلا في قلب زويا، التي لم تكن تفكر إلا بالرقص، وبلا شيء غير الرقص.

ثابرت، على الذهاب إلى المسرح، وثابر الأمير ماركوفسكي، على انتظارها كل ليلة لإعادتها إلى المنزل، وإخبارها، بما ترامى إليه من أخبار عن روسيا، وجلب بعض الحلوى والفاكهة الطازجة إن وجدت، كان يبدي اهتماماً زائداً بها وبجدتها، حتى أنه، لم يتوانَ عن إهدائهم إحدى الأيقونات البخسة الثمن، وحين رفضت الجدة قبولها، لعلمها أنه قد يحتاج لثمنها يوماً ما، أصر على ذلك، متذرعاً أنه ما يزال لديه الكثير وأنه لن يضطر لبيع المزيد من مجوهراته، لأن ابنته وجدت عملاً كمعلمة للغة الإنكليزية.

دعت زويا الجميع، لحضور إحدى عروضات فرقة الباليه الروسية، لكن، فيودور رفض الدعوة لعدم اهتمامه بهذا النوع من الفنون. ثلاثة لبّوا دعوتها: جدتُها، التي كانت تتمنى كل شيء، إلا رؤية حفيدتها راقصة حتى ولو في الفرقة الروسية للباليه، والأمير ڤلاديمير

ماركوفسكي وابنته البالغة ثلاثين سنة من العمر، وتتصرف وكأنها عانس، فوق هذا، فهي تتألم لرؤية والدها يعمل سائق سيارة أجرة، وتتألم أيضاً، مما تقوم به هي. إنها تكره التعليم والأولاد الذين تلقنهم أصول اللغة الإنكليزية. كانت فتاة جميلة، لكنها، لا تحسن اختيار الملابس التي تظهر جمالها، ولا تهتم بذلك.

ـ «كنتِ رائعة يا زويا قسطنطينوفا» قال الأمير ڤلاديمير وهو يسكب الشمبانيا في كأسها، بعد عودتهم إلى الشقة «أثرتِ إعجاب الكل، كل من كان في الصالة دون إستثناء». وسكب كأساً أخرى له، ورفعه في وجهها وعلى شفتيه ابتسامة إعجاب بها، كراقصة وكامرأة مكتملة الأنوثة طاغية الجمال، فرمقته ابنته بنظرة استهجان واستغراب؛ لم يرق لها أن ترى الكونتيسة الصغيرة زويا، راقصة. كما أنها كانت، برغم انبهار الأغلب الأعم من اللاجئين الروس، بالحياة الباريسية، كانت تمقت باريس، وما تزال تحن إلى حياتها السابقة في سان بطرسبورغ، لم تكن قادرة على استيعاب المستجدات، ولا على تقبل ما جرى، تحاول إيجاد تفسير له، لكنها عبثاً كانت تحاول.

«لا شك أنكِ متعبة يا أيتها الراقصة الصغيرة» قال الأمير لزويا.

ـ أبداًعلى الإطلاق. قالت وهي تزرع أرض الغرفة، مزهوة بنفسها، بأقدام ما تزال ترغب بالمزيد من الرقص. «صدقوني، لا أشعر بأي شيء من التعب، بل بالفرح» ورفعت الكأس إلى فمها وارتشفت ما تبقى.

ـ فعلاً كنتِ ممتازة... عاد ڤلاديمير وقال بجدية، وكأنه يحاول لفت نظرها إلى مدى اهتمامه بها.

تمنت لو كان والدها ما يزال حياً. تُرى ماذا كانت ردة فعله؟ لا شك كان سيعجب برقصي، وإن بينه وبين نفسه. وكذلك نيقولاي. اغرورقت عيناها بالدمع وهي تتذكر أباها وشقيقها، وضعت الكأس على إحدى الطاولات واتجهت نحو النافذة، لتلقي نظرة على الحديقة المحيطة بالشقة. «كنتِ مثيرة للإعجاب» همس ڤلاديمير في أذنها، وحين التفتت إليه، رأت الدموع تتألق في عينيه فتأكد لها، أن نظراته، لم تكن نظرات عادية، بل نظرات رغبة واشتهاء. ابتعدت عنه مشوشة الفكر، إنه من عمر والدها وصديقه أيضاً، أيعقل أن يفكر بهذا؟

ـ «شكراً سمو الأمير» قالت بهدوء ورصانة، ولكن حزناً اعتراها لما وصلت إليه الحال». كم هو متعطش إلى الحب؟... لو كنا ما نزال في سان بطرسبورغ، لما كان يحق له النظر إليّ إلا كطفلة. إنما... إنما الآن، علينا ألا ننسى عالمنا المفقود، ولا أولئك الذين ما يزالون هناك... في روسيا.. أحياء كانوا أم أمواتاً.. وإذا كانت تاتيانا رفضت قبول ابنه عريساً لها، فهل أقبل أنا به؟» كان بودها لو تخبر ابنته يلينا، وهي تودعها عند مدخل الشقة، لكنها امتنعت حتى لا تجرح كبرياءها.

في غرفة النوم، كانت زويا تخلع ثيابها، وتفكر بتصرفات الأمير وفي الوقت ذاته تنتظر عودة جدتها من المرحاض خارج الشقة.

ـ إنها لمبادرة طيبة منه أن يأتينا بالشمبانيا احتفالاً بهذه المناسبة. قالت الجدة، وهي تفلت شعرها على كتفيها، وترتدي ثياب النوم، فبدت وكأنها أصغر بكثير من عمرها الحقيقي، فاكتشفت زويا، كم كانت جدتها جميلة، فعيناها، حتى اليوم، ما تزالان ساحرتين أخاذتين، وما تزال صاحبة ابتسامة جذابة وجسد غض، لكن الأمر الذي أثار اهتمام زويا، هو عدم انتباه الجدة، إلى أن الأمير مغرم بها، فقد حاول

لمس يدها مرتين، إضافة إلى أنه شدها إليه وهو يقبل وجنتيها مودعاً، لكن زويا لم تجب على قول إيفيجينيا، بل لتتساءل «أما لاحظتِ أن يلينا غير سعيدة؟»».

ـ هي كذلك منذ صغرها، على ما أذكر، فقد كان ڤلاديمير يبدي اهتماماً بأخويها، أكثر بكثير مما يبدي بها. وأذكر أن أحداً منهما، وكان شاباً وسيماً، تقدم وطلب يد تاتيانا.

ـ جدتي، كل هذا لا يهمني، سأكون صريحة معكِ. إنه يحبني... يحبني بجنون.

صعقت إيڤيجينيا لما سمعت «ماذا؟... إنه إتهام خطير».

ـ إن ما قلته لا يحتمل التأويل يا جدتي.. حاول لمس يدي مرتين، حاول ذلك، لكني أبعدتها، وشدني إلى صدره وهو يقبل وجنتي قائلاً تصبحين على خير.

ـ أنتِ ما تزالين فتاة صغيرة وبريئة، ولربما أثرتِ ذكرياته العتيقة. فهو كان معجباً بوالدتكِ قبل زواجها من والدكِ. وكان صديقاً حميماً له حتى أنهما كان يذهبان للصيد معاً وبرفقة القيصر أحياناً. فلا تسمحي لأفكاركِ أن تذهب بعيداً. مهما يكن فحضوره لمشاهدتكِ، أمر يُقدّر.

ـ لربما... قالت زويا، وأطفأت الضوء وانسلت تحت الغطاء، ممددة جسدها على سرير، لا يشبه الأسرّة التي تعودت أن تنام عليها بشيء.

صباح اليوم التالي، تأكدت ظنون زويا. ها هو ڤلاديمير، بانتظارها عند مدخل البناية. مد يده وفتح باب السيارة داعياً إياها للصعود، وفي اليد الأخرى باقة ورود، وفي عينيه، نظرات تدعو إلى التساؤل وتثير الشكوك.

ـ «سأذهب سيراً على الأقدام» قالت وهي تنظر إلى السماء الصافية، كان يوماً من أيام أيار الباريسية الدافئة؛ وكانت تشعر بسعادة لا حدود لها، يكفي، أن تفكر بالرقص، حتى تشعر بالسعادة. لا شيء يسعدها كوجودها على خشبة المسرح، حتى تلك الورود البيضاء التي بيد الأمير الأشيب الشعر، الذي ترتسم على شفتيه ابتسامة تدعوها لقبولها. لقد سبق لماري، وقدمت لها وروداً بيضاء، لكن ماري صديقتها الأغلى والأحب، فيما هو صديق والدها وليس صديقتها هي. نظرت إليه فإذ به يرتدي سترة بالية، قميصه غير منتظم. وكأنه ولد سائقاً، لم يكن في يوم من الأيام أميراً مهاباً .لم يبقَ له من ماضيه، إلا ما جلب معه من جواهر وإيقونات التي أهدانا إحداها. «أعتقد أن عليك تقديم هذه الزهور لجدتي» قالت زويا، وهي تبتسم له بتهذيب.

ـ أهذا ما تعتقدينه؟ كيف تفكرين أنه يجب عليّ مصادقة جدتكِ؟

لم تشأ زويا الإجابة على تساؤله، لكنه بدا، في نظرها على الأقل وكأنه اكبر منها بألف عام.

ـ هل أبدو متقدماً في السن؟

ـ لا... أبداً... أنا آسفة... أما الآن فعلي الذهاب لئلا أتأخر عن عملي.

ـ إذن دعيني أوصلك، ونتكلم أثناء القيادة.

ترددت قليلاً، قبل قبول دعوته. لم يعد لديها الوقت الكافي،... صعدت إلى السيارة وجلست على المقعد المجاور له، ووضعت الزهور بين المقعدين، وفي محاولة لتحاشي نظراته، راحت تنظر إلى الشارع

والسيارات العابرة. قدّرت له تقديم باقة الورود، وفي الوقت ذاته، أدركت أن قبولها، يعني تشجيعه لإهدائها أشياء أخرى، وعلى الإستمرار في تفكيره.

ودون أن تلتفت إليه سألته عن ابنته يلينا «بدا وكأنها لم تكن سعيدة ليلة أمس، فلم تنطق إلا بالقليل من الكلام».

تنهد ڤلاديمير من أعماق صدره «ليست سعيده هنا... وأعتقد أن معظمنا لسنا سعداء هنا... إن الذي حدث لنا، شيء لا يصدق، هكذا فجأة اشتعلت الثورة، ما من أحد، كان مستعداً لمثل هذه التطورات الدراماتيكية» قال هذا ومد يده ليمسك يدها ويعيد طرح سؤاله «زويا... أتعتقدين أني أكبر بكثير يا عزيزتي؟».

انحبست الكلمات في فمها، وهي تسحب يدها، «أنت صديق والدي» شعرت بالأسف الشديد نحوه «فعلاً إنه لأمر مؤسف ما حدث لنا، وكلنا ما نزال نحاول التعلق بالماضي الذي قد تعتبرني جزءاً منه».

ابتسم وهو يقول «أهذا ما تعتقدين؟... أنتِ إنسانة رائعة الجمال. هذا كل ما في الأمر».

ـ «شكراً جزيلاً، غير أني أصغر من ابنتك باثني عشر عاماً... ولا شك، ستصاب بإحباط أو بانهيار عصبي». لم تتمكن من قول المزيد، وتضرعت للرب، أن تصل إلى شاتيليه، مقر عملها، وهكذا تتخلص من هذه الورطة.

ـ يلينا لها حياتها ولي حياتي... أتمنى لو نتناول العشاء عند مكسيم ذات يوم.

ما لهذا الجنون...؟ شمبانيا، ورود... والآن دعوة إلى العشاء في

مطعم مكسيم؟ في الوقت الذي يشكو كل اللاجئين الروس من العوز وقلة ذات اليد وها هو الأمير، اضطر، للعمل سائق سيارة أجرة. وها هي تعمل راقصة في فرقة الباليه الروسية...

لم ترغب بالخروج عن رصانتها «لا أعتقد أن جدتي تسمح لي».

ـ من الأفضل ألا تخبريها.. كما من الأفضل لكِ، أن تكوني على علاقة مع إنسان واعٍ ومن مجتمعنا، وليس مع فتى أرعن.

ـ على كلٍ، لا وقت لدي لتلبية مثل هذه الدعوة، فأنت تعرف يا ڤلاديمير، عليّ العمل ليل نهار.

ـ يمكننا إيجاد بعض الوقت، بعد الإنتهاء من العرض.

ـ لا أقدر... حقيقة... لا أقدر.

تنفست الصعداء، فقد وصلت إلى مقر عملها، «أرجوك لا تنتظرني يا سمو الأمير... أنا...، سأنسى كل ما قلته لي.. إننا لا نتلائم...» لم ترغب زويا متابعة الحديث لئلا تجرح شعوره، فتحت الباب وترجلت، تاركة باقة الورود البيضاء حيث هي إلى جانبه.

الفصل الثاني عشر

ـ هل ڤلاديمير هو من عاد بكِ الآن؟ تساءلت الجدة وهي تستقبل زويا عائدة من عملها. التفتت زويا نحو جدتها، فإذ بها ترى الورود البيضاء موضوعة في إناء على الطاولة.

ـ «لا.. ليس هو...» ألقت جسدها على المقعد وراحت تدلك ساقيها «كان يوماً متعبا».

ـ «قال سينتظركِ». قالت ايڤيجينيا بوجه عابس. لقد زارها نهاراً، وجلب لها خبزاً طازجاً وبعضاً من المربى، والورود بالطبع إنه ـ برأي ايڤيجينيا ـ رجل طيب وهو، منذ وصولهم إلى باريس، يهتم بهم وبزويا خاصة.

ـ جدتي... قالت زويا، وتوقفت، بحثاً عن الكلمات المناسبة، فهي لا تريد إثارة غضب جدتها أو أن تتفوه بما يجرح مشاعرها «جدتي... دعيني منه.. أنا لا أريده».

ـ لماذا؟ إنه صمام الأمان لكِ، أكثر من أي إنسان آخر، لا تعرفين عنه شيئا».

أثناء زيارة ڤلاديمير لإيفجينيا، بعد ظهر هذا اليوم، دار حديث طويل حول هذا الموضوع، ايڤيجينيا مدركة كل الإدراك، أنه لا بد من أن

تعمل هي أو زويا، ولكن زويا هي الأكثر كفاءة للعمل، وتتمنى لو أن حفيدتها تعمل كمعلمة وليس كراقصة، وتتمنى أيضاً، أن تكون علاقة زويا بفلاديمير سبباً لتخليها عن العمل كراقصة.

ـ جدتي... أعتقد أن الأمير ڤلاديمير يفكر بالزواج مني؟

ـ «إنه رجل محترم... ذو خلق ونسب. كان صديقاً لقسطنطين» لم تشأ ايڤيجينيا أن تضع كل أوراقها على الطاولة أمام زويا دفعةً واحدة، بل ورقة بعد أخرى، علها تتمكن من إقناعها، كما تمكن ڤلاديمير من فعل ذلك معها.

ـ حسناً...جدتي. كان صديقاً لوالدي وليس لي. يعني أنه اليوم بحدود الستين من العمر.

ـ لكنه أمير روسي... ومن عائلة القيصر.

ـ أهذا هو كل شيء؟ أما تعتقدين أنه بعمر جدي؟

ـ العمر لا يعني شيئاً... أنتِ بحاجة لمن يرعاكِ ويهتم بكِ.. أنا تجاوزت الثمانين من العمر، وإن كنتُ اليوم إلى جانبكِ، فقد لا أكون غداً.. فكري ملياً.

الحقيقة، كانت ايڤيجينيا مقتنعة بما تقول. فهو على الأقل إنسان تعرفه، وتعرف الكثير عن ماضيه، وهو كذلك.

ـ «أتوافقين على زواجي منه؟ أهذا ما تتمنينه؟... إنه رجل كهل» قالت زويا وانفجرت بالبكاء.

ـ سيهتم بكِ... فكري قليلاً زويا...

ـ «أرجوكِ جدتي، لا أحب سماع اسمه بعد الآن».

أسرعت زويا نحو غرفة النوم، رمت جسدها على السرير وهي تجهش بالبكاء. أهذا ما كان ينقص بعد؟ مشروع زواج من رجل يفوق عمرها بثلاثة أضعاف. ولماذا؟ لأنه أمير روسي.

جاءت الجدة، وجلست إلى جانبها على حافة السرير «زويا.. زويا لا تبكي يا صغيرتي.. فأنا لن أجبركِ على فعل شيء. كل ما في الأمر، أني قلقة عليكِ. ڤيودور، رجل عجوز. ولهذا لا بد من إنسان يهتم بكِ ويرعاكِ».

ـ ما أزال في الثامنة عشرة من عمري... ولا أفكر بالزواج مطلقاً... ومنه خاصة... أكره يلينا، ومجرد التفكير بالعيش معهما، يسبب لي نوبة جنون... أنا الآن غير مبالية بشيء، سوى بالرقص... فقد يؤمن لي المال الكافي لإعالتك وإعالة ڤيودور. والإهتمام بنفسي.. إفهميني جدتي.. سأعمل ليل نهار بدون ملل، ولن أتزوج إنساناً لا أحبه، كائناً من كان ذلك الإنسان.

ـ حسناً... حسناً يا ابنتي...

بكت الجدة. أي قدر مشؤوم هو هذا الذي عليهم مواجهته؟ لربما تكون زويا محقة فيما تقول، لكنه واحد يعرف من نحن، يعرف عاداتنا وتقاليدنا، إنما من يدري. فهناك الكثيرون من النبلاء الروس الشباب الذين جاؤوا إلى باريس، فقد تلتقي واحداً منهم وتقع في غرامه. إنه الأمل الوحيد الذي تتعلق به ايڤيجينيا. وماذا تبقى لها، سوى بضع مجوهرات وحبات ألماس وبيض عيد الفصح المرصع باللؤلؤ والألماس الذي سبق للقيصر وقدمه لها، وسوى ابتسامة حفيدتها «تعالي يا صغيرتي... امسحي دموعكِ.. تعالي نتنزه قليلاً».

ـ لا يا جدتي... فقد يكون في انتظاري عند مدخل البناية.

ـ ماهذه السخافة. لا أعتقد أن أخلاقة تسمح له بفعل هذا، فهو ليس مجرماً حتى يختبىء في الليالي.

ـ أنا جد آسفة يا جدتي... صدقيني سعادتكِ هي ما أسعى إليه. أعدكِ أن أفعل المستحيل من أجلكِ.

ـ ما كنت أحسبني أحيا إلى يوم، أراكِ فيه تتحملين كل هذه المسؤوليات.

ـ أشكر لكِ اهتماماتكِ... ولكن كل شيء تغير... من يدري، فقد أصبح ـ ولربما قريباً ـ راقصة مشهورة.

ـ باركك الله يا زويا، وساعدني على تحمل هذه الفكرة.

ابتسمت زويا «أحب عملي... أحب ذلك يا جدتي».

ـ أعرف ذلك.. ولكن عليكِ التنبه، إلى أن هذا لن يكون لمدى العمر، بل لفترة معينة، فمن يدري قد يأتي يوم تغيرين فيه رأيكِ.

نزلت زويا عن السرير وارتدت المعطف، وهي متأكدة، أن هذا اليوم لن يأتي. فهي لا ترقص من أجل المال فقط، بل لأنها تحب الرقص، فهي منذ زمن، وحتى من قبل أن يصيبهم ما أصابهم، كانت تتمنى لو تكون راقصة باليه، وهذا، ما ليست جدتها قادرة على فهمه.

في الطريق نحو القصر الملكي، اكتشفت زويا، أن شوارع باريس، هي أشبه بتحفة فنية، واكتشفت أن الشعب الفرنسي، دمث الأخلاق، مضياف، محب للآخرين، اكتشفت أن باريس هي فعلاً عاصمة النور، فلماذا إذن، تدفن شبابها في أحضان رجل عجوز كالأمير ڤلاديمير؟

الفصل الثالث عشر

ثابرت زويا، على الرقص، كانت كل ليلة، تحس بسعادة جديدة، حتى نسيت كل ما يجري في العالم، من أحداث وحروب، نسيت الخوف من الغارات الجوية ليلاً أو نهاراً، وكادت أن تنسى من ودعتهم في القصر الإمبراطوري، وما عانت خلال آخر أسبوع لها في سان بطرسبورغ.

ليل الثالث عشر من حزيران، وجدت زويا، صعوبة في الوصول إلى الشقة؛ نزل الفرنسيون إلى شوارع باريس، مرحبين بوصول الجنرال الأميركي بيرشينغ على رأس قوة عسكرية، جاءت تمد لهم يد العون، في حربهم ضد ألمانيا. الجموع في كل شارع، والكل يهتف «لتحيا أميركا.. لتحيا أميركا».

أخبرت زويا جدتها بما رأت وسمعت، «آلاف الجنود الأميركيين وصلوا إلى هنا يا جدتي، والفرنسيون يحتفلون بقدومهم».

ـ حسناً يا صغيرتي.. فلربما وجودهم هنا، يساعد على إنهاء الحرب قريباً.

كان الكل، في باريس، يأوي إلى فراشه، وهو خائف من تجدد الغارات الجوية. إذن، قد يضع الأميركيون حداً لها، وقد يكون لانتهاء

الحرب، دور في إعادة الوضع في روسيا، إلى ما كان عليه سابقاً، وهكذا، يعود اللاجئون الروس، إلى مدنهم وقصورهم، ولكن الكل، بما فيهم ايفيجينيا وزويا، يعي أن لا عودة إلى الماضي، وأن ڤلاديمير سيبقى سائق سيارة أجرة، ويلينا معلمة للغة الإنكليزية، والأهم، أن زويا، لن تعود إلى قصر تسارسكوي سيلو، بل سترقص كل ليلة على خشبة المسرح مع فرقة دياغيليف.

كانت الفرحة تغمر روح زويا، وترغب لو بمقدورها مشاركة الفرنسيين فرحتهم، فطلبت من جدتها مرافقتها، لكن ايفيجينيا، لم تعرب عن عدم رغبتها في الخروج إلى الشارع وحسب، بل وطلبت من زويا البقاء إلى قربها «فمن يدري، يا صغيرتي، قد تقع أحداث شغب؟» قالت هذا، وهي تدرك، كل الإدراك، أن هؤلاء الأميركيين الذين يرتدون البذة الكاكية اللون، هم غير الجنود الذين نزلوا إلى شوارع المدن الروسية، لا لحماية الناس، والنبلاء خاصة، بل للسلب والنهب، وإحراق القصور وقتل الأمراء.

لم تكن فرحة زويا، بسبب وصول الأميركيين، بقدر ما كانت بسبب أن لا عروضات راقصة حتى نهاية الأسبوع. لأول مرة، منذ شهر، تجد أن لديها وقتاً، للاختلاء بنفسها. للنوم ملياً، للتنزه في شوارع باريس، للجلوس قرب المدفأة والقراءة والكتابة... الكتابة إلى ماري... عن مشاهداتها في العاصمة الفرنسية، عن بيرشينغ وجنوده، عن رقصها، عن تصفيق المشاهدين لها، لكنها لم تكتب شيئاً عن الأمير ڤلاديمير، لئلا تصدم ماشكا من تصرف الجدّة.

فيما كانت زويا تخط رسالتها، كانت ساشا مستلقية عند قدميها تهز ذنبها «إنها تبدو كجوي تماماً، إنها تذكرني بك، مع أني لست بحاجة

لمن يذكرني. صدقيني، أنا غير قادرة، حتى على مجرد التفكير، أني هنا في باريس، وأنتِ ما تزالين هناك... بعيدة عني... وأننا قد لا نمضي الصيف معاً في ليفاديا... صوركِ إلى جانب سريري، وفي محفظتي وفي كل زاوية من زوايا المنزل الذي نقيم فيه» لم تخبر زويا، صديقتها عن الشقة الصغيرة، بل كانت تكتفي بالقول «المنزل دون وصف له، أو لمفروشاته «كل ليلة، وقبل أن أضع رأسي على الوسادة، أقبّل الصور؛ صورتك، صورة أولغا، صورة تاتيانا، صورة آنستازيا، وكذلك صور ألكسي والعم نيقولا والعمة ألكسندرا». في الكتابة لماري، تفجر إحساساً غريباً يتفاعل في داخلها، الإحساس بالغربة، عن الوطن، عن الأصدقاء، عن الأهل، عن الذات. نعم هي هنا، تعيش غربة قاتلة. إنها تعيش على الذكريات التي تشعرها أنها ما تزال حية، والذي غذى هذا الإحساس، تلك الرسالة التي استلمتها من ماري التي تخبرها فيها أنهم ما يزالون تحت الإقامة الجبرية، لكنهم شفيوا جميعاً من مرض الحصبة وأنها تنتظر بفارغ الصبر يوماً قد يجمعهما من جديد، «ومتى سيأتي هذا اليوم؟» تساءلت زويا وعيناها تذرفان الدمع غزيراً. لولا الرقص لكان الزمن توقف عند وداعها للإمبراطورة ألكسندرا، ولكانت الآن، ما تزال تتمنى لو أصابها، ما أصاب شقيقها وأباها وأمها، أو، ما تزال سجينة القصر الإمبراطوري على الأقل.

صبيحة اليوم التالي، كانت زويا، تقرأ رسالة ماري للمرة الأولى بعد الألف، حين جاءها رسول يخبرها، أنها سترقص في أوبرا بتروشكا، وفي عرض خاص للجنرال بيرشينغ وضباطه وبعض جنوده. خبر لم يفرح الجدة البتة، فهي ارتضت ـ على مضض ـ أن ترى حفيدتها ترقص مع فرقة الباليه الروسية. أما أن ترقص لترفه عن الجنود

الأميركيين، فهذا أمر يستحيل تقبّله، لكنها، وبالوقت ذاته كانت تعلم، كل العلم، أن معارضتها لن تجدي نفعاً، بل ستتسبب بأزمة جديدة، قد تكون حادة.

بالمناسبة، كان الجنرال بيرشينغ، اتخذ مقراً لقيادته في إحدى أبنية شارع قسطنطين. فيما كان هو يقيم في فندق فخم، استأجره له أحد الأميركيين الذي كان يعمل في باريس منذ زمن.

ـ يرافقكِ ڤيودور. قالت الجدة بصوت حازم.

ـ ما هذا الذي تتفوهين به يا جدتي.. سأكون بألف خير، أم أنكِ لا تثقين بي؟ لا أعتقد أن هؤلاء الأميركيين، أقل تهذيباً من الجنرالات الروس... أنا متأكدة من ذلك، فوق هذا كله فلن يتمكنوا ـ ولن يفعلوا من اقتحام خشبة المسرح واختطافنا.

نيجنسكي، سيرقص الليلة، وهل ترتضي زويا إضاعة فرصة كهذه؟ فرصة مشاركة نيجنسكي الرقص؟ «سأكون بخير يا جدتي... أعدكِ... سأكون بخير».

ـ لن تذهبي وحدكِ.. إما برفقة ڤيودور... إو برفقة الأمير ڤلاديمير. فاختاري أياً منهما.

كانت ايڤيجينيا، مصممة على ما تقول، مع علمها، أن لا أمل باختيار زويا للأمير ڤلاديمير. حتى هي وصلت إلى قناعة مطلقة أنه ليس الرجل المناسب لحفيدتها. إنه فعلاً أكبر منها بكثير.

ـ حسناً، فليكن ڤيودور... لكنه، سيضجر وهو ينتظرني خلف الكواليس.

ـ لن يضجر طالما هو ينتظركِ... تعرفين مدى محبته لكِ، ومدى اهتمامه بكِ.

ـ شرط ألا يزعجني باهتمامه الزائد.

ـ أعدكِ لن يفعل.

في الطريق إلى دار الأوبرا، كانت زويا تهيء نفسها لحفلات أخرى ستقام على شرف الجنرال بيرشينغ ورجالاته؛ إدراكاً منها، أن الفرنسيين جادون في تكريمهم له.

على الخشبة، رقصت كما لم ترقص من قبل. فينجنسكي هنا، يراقب كل حركاتها وخطواتها. بعد أن أسدلت الستارة على الفصل الأول، جاء دياغيليف شخصياً ليثني على أدائها ويحثها على عطاء المزيد.

ـ أنتن كلكن مدعوات لحفل استقبال على شرفكن في منزل الجنرال بيرشينغ .. أمام المدخل حافلتان عسكريتان ستقلكن إلى هناك... الكل سيشرب الشمبانيا. قالت إحدى المدربات.

يبدو أن مجيء الأميركيين أعاد الحياة إلى ليالي باريس، وعادت الملاهي وفتحت أبوابها، حفلات في كل مكان، وعروضات مسرحية. تنبهت زويا، ڤيودور ما يزال ينتظرها في الخارج، فأسرعت إليه خلسة، لتجده واقفاً حزيناً يغطي الدمع خديه. إنه خادم أمين، لا بل هو واحد من أفراد العائلة.

ـ إفهمني ڤيودور، الفرقة كلها مدعوة لحفل استقبال في منزل الجنرال، وليس بمقدوري أن اصطحبك معي... أنا جد آسفة يا ڤيودور... أخبر جدتي بذلك. ولن أتأخر كثيراً.

ـ لن يكون هذا... أقسمت لجدتكِ ايفيجينيا بترونوفا، ألا أتركك وحيدة.

ـ ولكن ليس بمقدورك المجي معي...أعدك سأهتم بنفسي.

ـ ستغضب جدتكِ يا آنسة.

ـ لا... لن تغضب لأني سأشرح لها كل شيء بعد عودتي.

ـ سأبقى بانتظاركِ. قال ڤيودور وهو يقف وقفة تحدٍ.

لولا الحياء لزعقت زويا بوجهه. فهي ليست بحاجة لحارس. تتمنى لو تكون مثل بقية زميلاتها، لم تعد طفلة، إنها الآن في الثامنة عشرة. ولربما... من يدري، قد يعود دياغيليف أو نيجنسكي لمحادثتها من جديد. إنها مهتمة بهما أكثر بكثير من اهتمامها بحضور حفل استقبال بيرشينغ، ولكن ما العمل؟ ففيودور متصلب في موقفه ولن يعود إلى الشقة إلا برفقتها.لكنه اقتنع أن عناده لن ينفع.

ـ أعدكَ ڤيودور سأشرح لجدتي كل شيء.

ـ «حسناً آنستي»، وأدار ظهره ومضى في طريق العودة إلى الشقة حزيناً كئيباً: متسائلاً ماذا سيقول للكونتيسة؟

لمحتها إحدى الراقصات، فسألتها «من يكون، وهل من مشكلة؟» فأجابت زويا، «أبداً... إنه صديق للعائلة، يرعاني كابنته» ولم تقل لها حقيقة من يكون، ولا حقيقة من تكون هي.

صعد الجميع، الراقصات والراقصون، إلى الحافلات العسكرية، وهم مغمورون بالفرح والسعادة؛ ينشدون الأغاني الروسية القديمة، نسوا أنهم في فرنسا، نسوا أنهم لاجئون هاربون، وعاشوا لحظات من

ماضيهم. كل يغني، ويتذكر منزله، قصره، الحي الذي كان يسكن فيه، الأهل والأصدقاء الذين افترق عنهم، فراقاً قد يكون أبدياً، وبالطبع، كانت زويا، تتذكر ماري؛ لا بل كانت تحس بوجودها إلى جانبها.

كانوا يلهون، وهم مدركون، أن عليهم أن يعودوا إلى وقارهم لحظة دخول منزل الجنرال الذي كان يقف بقامته الطويلة مرتدياً بذته الرسمية، ينتظر قدومهم وليصافحهم فرداً فرداً مرحباً بهم مثنياً على رقصهم.

منذ النظرة الأولى، استعادت زويا ذكرياتها في سان بطرسبورغ، ذكرتها قاعة الفندق، بأعمدتها الرخامية، وأدراجها اللولبية بقصر فونتانكا وكذلك بقصر تسارسكوي سيلو مع فارق بسيط. هو أن هذه القاعة هي أصغر من قاعة القصرين.

دُخل الجميع إلى قاعة الإحتفالات ذات الجدران المغطاة بالمرايا والأعمدة المذهبة والمدفأة الرخامية والمقاعد التي تعود إلى أيام الملك لويس الخامس عشر. وفيما كان زملاؤها يضحكون وهم يحادثون الضباط الأميركيين، ويشربون الشمبانيا، كانت زويا، تستعيد أيام طفولتها، ومراهقتها. أحست وهي تسرق السمع إلى الموسيقى الهادئة، أنها بحاجة إلى البكاء، وحتى لا يلاحظ أحد ذلك، تسللت إلى الحديقة، لتقف أمام تمثال للنحات المشهور رودان وكم تمنت لو أنها لم تخالف أمر جدتها وعادت إلى الشقة مع ڤيودور. إنها الآن أمام الماضي، لكنه ليس ماضيها، بل الماضي المؤلم غير المفرح. وإذ بصوت يسألها إن كانت بحاجة إلى مساعدة. كان المتكلم يتكلم الفرنسية بطلاقة، إنما بلهجة أميركية.

إلتفتت زويا، فإذا بها أمام رجل بهي الطلة، طويل القامة، أشيب الشعر، والتقت عيناه بعينيها الدامعتين.

ـ هل أنتِ بخير يا آنسة؟

ـ بحركة من رأسها، أجابت أنها بخير وهي تمسح الدمع عن خديها. كانت ترتدي ثوباً أبيض أهدتها إياه ألكسندرا وكان واحداً من الأثواب التي حرصت على عدم إبقائها في سان بطرسبورغ. بدت زويا وكأنها أميرة، ولم لا؟ فهي أميرة فعلاً.

ـ «آسفة سيدي»... أنا. لم تكن تدري كيف تعبر عن الأحاسيس التي تنتابها... كل ما تتمناه، هو أن يتركها وحيدة مع ذكرياتها، لكنه، لم يقم بأي حركة تدل على ذلك. بقي واقفاً مكانه، وعيناه مصوبتان عليها. كل ما تمكنت من قوله «إنها حديقة جميلة» وبالوقت ذاته ، تقارن سراً، بين هذه الحديقة وتلك التي قرب شقتها، رباه كيف انقلبت الحياة، وتحولت.

ـ هل أنتِ من أعضاء الفرقة؟

ـ نعم، قالت زويا بنبرة تدل على الإعتزاز والفخر. وتابعت «كان نيجنسكي رائعاً... ألا تعتقد ذلك؟».

ارتسمت على شفتيه ابتسامة وهو يدنو منها ببطء «الحقيقة أني غير مهتم بأمر الباليه ـ أعتذر عن هذا ـ ولكن الجنرال بيرشينغ يحب هذا النوع من الرقص».

ـ إذن كنت مرغماً على المشاهدة؟

ـ بصدق وصراحة...؟ نعم.. أترغبين بكأس شمبانيا؟

ـ ... ليس الآن.

كان الهدوء يلف الحديقة، فيما، في الداخل، رقص ولهو وموسيقى.

ـ وهل تقيم هنا مع الجنرال بيرشينغ.

ـ «لا... أقيم في فندق آخر، إنه مكان رائع وهادي، ولكن ليس بمستوى هذا الفندق».

كان يراقب كل حركة من حركاتها. وكل خطوة؛ كانت تبدو أنيقة، ساحرة الجمال، ولاحظ أنها ليست مجرد راقصة، بل هي إنسانة أنوفة، تخفي حزناً مميتاً خلف ابتسامتها.

ـ هل أنت واحد من هيئة أركانه؟

ـ «نعم، أنا واحد من مساعديه أيضاً.. وأنتِ منذ متى ترقصين؟» تساءل وهو يدرك، أنه ليس منذ زمن طويل، فهي ما تزال فتاة صغيرة، لكنها تتمتع بكل المواصفات المثيرة للإنتباه، وأصابه الذهول، حين حدثته بالإنكليزية وبذات الطلاقة التي كانت تتحدث الفرنسية فيها.

ـ منذ شهرين ليس أكثر.

ـ لا شك أن والديكِ فخوران بكِ؟

ـ «والديَّ قتلا في سان بطرسبورغ... خلال شهر آذار» لم تكن تعي ماذا تقول «إني اليوم أعيش مع جدتي».

ـ آسف جداً لما حل بأبويكِ.

وعاد الدمع يلمع في عينيها. إنها المرة الأولى التي تخبر أحداً عن

والديها، حتى زملاؤها في الفرقة لا يعرفون شيئاً عن ماضيها، ولكن لا تدري، لأي سبب، سمحت لنفسها أن تقول ما قالت. إنه يذكرها بقسطنطين، بوقاره، ووسامته.

ـ إذن أتيت إلى هنا برفقة جدتكِ...؟ تساءل، وهو لا يدري سبب انجذابه إليها. إنها فتاة صغيرة، رائعة الجمال، والذي يزيدها جمالاً هي تلك العينان، الخضراوان الكبيرتان.

ـ نعم... منذ شهرين أتينا... من.... بعد...

لم تكن قادرة على البوح بكل شيء، تقدم الضابط منها وتأبط ذراعها باحترام.

«ما رأيكِ لو نتجول قليلاً في هذه الحديقة مع كأس من الشمبانيا؟»

أحست بالدفء يسري من يده إلى يدها، فاستجابت لطلبه، وراحا يجولان في الحديقة، ويتحدثان عن باريس والحرب، وعن كل شيء لا يثير الأحزان. وفجأة وبدون أي مقدمات سألته من أي مدينة أنت في الولايات المتحدة؟

ـ نيويورك.

لم تكن زويا، تعرف شيئاً عن الولايات المتحدة الأميركية، حتى أنها لم تسمع بنيويورك من قبل.

ـ صفها لي.

كبيرة، منهمكة بالعمل ليل نهار. أحبها كثيراً، رغم أنها ليست بجمال باريس.

أحبُّ أن يسألها عن سان بطرسبورغ، لكنه أحس أن هذا ليس هو

الوقت المناسب، فقد يكون الحديث عن مسقط رأسها، مدعاة للحزن والتعاسة.

ـ وهل ترقصين كل ليلة؟

ـ يمكنك قول ذلك...

ـ وكيف تمضين أوقات فراغكِ.

ـ أذهب في نزهة مع جدتي.. أكتب رسائل للأصدقاء.. أنام.. ألاعب كلبي.

ـ «حياة هادئة.. أي نوع من الكلاب لديكِ؟» كان يدرك مدى سخافة هذا السؤال، لكنه، وبرغم فارق العمر بينهما كان يرغب بالبقاء إلى جانبها.

ـ كوكر سبانيال.. إنه هدية من صديق.

ـ صديق أو صديقة.

ـ بالتحديد صديقة. إنها ابنة عمي...

ـ وجلبته معكِ من روسيا؟

ـ نعم.. واعتنيت به طوال تلك الرحلة المتعبة. إنه تصرف غبي أليس كذلك؟

ـ أبداً.. ولكن هل من الممكن أن نتعارف؟

ـ لماذا لا؟... أدعى زويا أوسيبوف.

ـ كلايتون أندروز.... النقيب كلايتون أندروز.

ـ أخي كان نقيباً في الجيش الروسي، وفي فوج بريوبراجنسكي، لا أعتقد أنكِ سمعت به.

ـ رغم الظلمة كان يحدق بعينيها. في هذه الليلة، أدرك لماذا يقول الناس «العيون مرآة النفوس»، فعيناها تفشيان بما تحب أن تبقيه سراً، أو بما لا ترغب أن يعرفه الآخرون عنها.

ـ إني جد متأسف، فأنا لا أعرف الكثير عن روسيا.

ـ وأنا أيضاً لا أعرف شيئاً عن نيويورك.

عادا ودخلا إلى القاعة، ليقدم لها كأس شمبانيا، ويدعوها إلى الرقص... ترددت قليلاً قبل الموافقة، وضعت كأسها جانباً وتقدمت منه لتشاركه الرقص.

ـ أهكذا أنتِ دائماً؟ ترقصين مغمضة العينين.

سؤال لم يجد له جواباً... حتى هي غير قادرة على الإجابة، فلم يسبق لها أن راقصت أحداً. بعد إنتهاء الرقصة، أشار الجنرال برشينغ إليه، أن يحادثه قليلاً على انفراد، ولما عاد إلى القاعة، كانت زويا قد غادرت الفندق..

الفصل الرابع عشر

ـ إسمعيني زويا قسطنطينوفا، لا أريد تكرار ما حدث... فأنا لا أرسل فيودور معكِ، لإعادته إلى المنزل دامع العينين، مكسور الخاطر.

جاءت لهجة الكونتسية حازمة وجازمة، تعبر عن غضب لم تتمكن الساعات الماضية من القضاء عليه. وعبثاً حاولت زويا، شرح الموقف، وأنه لم يكن بمقدورها اصطحابه معها ولا إلى جعله ينتظر وحيداً ولساعات طويلة.

ـ أنا جد آسفة جدتي. لم يكن بمقدوري اصطحابه معي، إلى مقر قيادة الجنرال بيرشينغ... الذي أقام لنا حفل استقبال.

تذكرت زويا، أعمدة البلاط الرخامي، والحديقة والنقيب الذي التقته هناك، تذكرت فقط، إنما لم تقل شيئاً لجدتها عنه.

ـ هكذا إذن؟ وصلت بكِ الوقاحة إلى حد المشاركة في حفل ترفيه عن الجنود؟ الآن أدرك لماذا تمتنع الفتيات المحترمات عن الإنضمام إلى فرق الباليه، لأن هذا يحط من قدرهن. لذا أطلب إليكِ بحزم، أن تتركي الفرقة وملازمة المنزل، ريثما تكونين تدبرتِ عملاً، يليق بكِ يا زويا قسطنطينوفا أو يا سمو الأميرة زويا... أم أنكِ نسيتِ من تكونين.

ـ أرجوكِ جدتي... تعلمين كل العلم، أني لن ألبي هذا الطلب.

ـ بلى... عليكِ تنفيذ ما أقول.

ـ أرجوكِ، جدتي...

لم تكن زويا بحال نفسية، تسمح بمناقشة جدتها. لقد أمضت ليلاً أدخل السعادة إلى صدرها. التقت بذاك النقيب الوسيم المهذب، أو هكذا اعتقدت.

ـ آسفة جدتي.. لن يتكرر ما حدث أمس.

دخلت غرفة النوم وارتدت ثيابها، وعادت لتقف أمام جدتها والإبتسامة على شفتيها.

ـ إلى أين؟

ـ إلى حيث أذهب كل يوم.

ـ إنه أمر يتعبني. قالت الكونتيسة وهي تزرع أرض الغرفة بخطواتها المثقلة «باليه... باليه... باليه... كل ليلة باليه؟... إلى متى إلى متى؟».

إلى متى؟ ولكن إن لم تعمل زويا، «فكيف نتدبّر حياتنا هذه وتكاليفها. وإلى متى ستستمر الكونتيسة ببيع عقود الألماس والزمرد؟»

ـ متى ستعودين الليلة؟

ـ بحدود الرابعة، لا عمل عندي في الليل.

ـ أرجوكِ فكري بالتخلي عن عملكِ كراقصة.

لكن زويا، لن تفكر بهكذا أمر، حتى ولو لثانية واحدة، فهي عدا عن أنها تعشق الرقص؛ تتحمل الآن مسؤولية إعالة جدتها وتحمل أعباء

الإقامة في باريس. أمس اشترت لجدتها، ثوباً جديداً وشالاً صوفياً، وتحاول ما استطاعت أن تتحمل كل مصاريف الحياة؛ ولا يوجد من يساعدها سوى ما يقدمه الأمير ڤلاديمير علّه يحظى برضاها.

ـ بعد عودتي، سنذهب معاً، نتنزه في شوارع باريس وعلى ضفاف الأنهر.

ـ وما الذي يدفعكِ إلى ذلك؟

ـ لأني أحبكِ بقدر ما تحبينني وأكثر.

تقدمت زويا وقبّلت وجنتي جدتها تماماً كما كانت تفعل يوم كانت تلميذة في المدرسة وما تزال. تنهدت المرأة العجوز، فلو لم تكن زويا معها هنا، لكانت حياتها تختلف جذرياً، زويا لم تعد طفلة بل صارت امرأة مكتملة الأنوثة، قادرة على رعاية نفسها بنفسها.

بعد الإنتهاء من التدريب،خرجت زويا ووقفت على الرصيف بانتظار سيارة أجرة

ـ يبدو أنكِ متعبة يا آنسة أوسيبوف.

فوجئت بمن يناديها باسمها، التفتت فإذ بالنقيب كلايتون أندروز يقف إلى جانب إحدى السيارات العسكرية التابعة لهيئة أركان الجنرال بيرشيننغ.

ـ مرحباً... لقد أخفتني.

ـ إني هنا، انتظركِ منذ ساعتين.

ـ فعلاً... تنتظرني... منذ ساعتين؟

ـ لم أتمكن من وداعكِ ليلة أمس.

ـ أعتقد أنك كنت مشغولاً.

ـ أعرف أنكِ كنتِ من أوائل المغادرين.. كنت على عجلة من أمركِ.

أحنت رأسها موافقة على ما قال. لم تكن تظن أنها ستلتقيه ثانية. لذا فهي تشعر بالسعادة لرؤيته مجدداً.

ـ جئت وأنا أمني نفسي بتناول الغداء معاً... لكن الوقت متأخر الآن.

ـ عليّ العودة إلى المنزل... جدتي بانتظاري.

ـ كان كلايتون يرنو إليها بعين الحب والحنان. سحرته ابتسامتها، ومنظرها وكأنها تلميذة خارجة من المدرسة.

ـ أتعودين متأخرة كل ليلة...؟

ابتسمت، فشعر وكأنه يقف أمام فتاة صغيرة، أمام فتاة بريئة، وبالوقت ذاته مدركة وواعية.

ـ نعم أعود متأخرة، لكن جدتي ترسل من يرافقني في طريق العودة، وأمس رجوته أن يعود من دوني، لهذا كنت وحدي.

ـ في هذه الحال، أتسمحين لي أن أوصلكِ الآن إلى منزلكِ؟

سؤال محيّر. ترددت كثيراً قبل الموافقة على دعوته. إنه إنسان محترم ومهذب حتى الآن.

فتح باب السيارة، ومد يده داعياً إياها بالصعود والجلوس على المقعد إلى جانبه.

قبل مدخل البناية حيث تقيم، ترجلت زويا من السيارة، معتذرة منه وشاكرة له على ما فعل.

يبدو أنكِ لستِ فتاة شريرة. ولكن هل يحق لي دعوتكِ للعشاء هذه الليلة؟

ـ «لست متأكدة من ذلك... فجدتي تعرف أن لا عمل عندي هذه الليلة... ولا أريد أن أكذب عليها». زويا تعرف تماماً أن جدتها حساسة جداً إزاء البذة العسكرية. ولا تحب الجنود.

ـ ألن تسمح لكِ بمرافقة أحد؟

ـ لست متأكدة من ذلك... فلم يسبق لي وسألتها مثل هذا السؤال.

ـ عفواً آنستي... هل يحق لي السؤال كم تبلغين من العمر؟

ـ ثمانية عشر.

ـ وهل يعني هذا أنكِ... ولم يكمل قوله، لكنها أدركت ما يريد أن يقول.

ـ نعم بما فيه الكفاية، حتى أنها شجعتني للقبول بأحد أصدقاء العائلة.

احمرت وجنتاها وهي تخبره، وأحست بمدى غبائها. ولماذا تخبره عن ڤلاديمير.

ـ وكم كان عمره؟ ثلاثة وعشرون؟

ضحكت. «ماذا؟ ثلاثة وعشرون؟ أكبر بكثير، إنه بحدود الستين».

اندهش كلايتون لما سمع. ماذا؟ ستون؟ وماذا كان موقف جدتكِ؟

ـ إنه أمر يصعب إيضاحه. المهم أني لا أرغب به...

ـ أود أن أكون صادقاً... أنا في الخامسة والأربعين من العمر.

ـ ولم تتزوج حتى الآن؟

ـ بلى.. ولكن لم يكن بيننا أي تفاهم، فاتفقنا على الطلاق... كان ذلك منذ عشر سنوات. ومنذ ذلك الحين، لم تتمكن واحدة من الإستيلاء على قلبي... هل صدمتِ بما أقول؟

ـ لا.. أبداً. ولكن لماذا طلقتها؟

ـ منذ البداية، كنا مختلفين. لكل منا نظرته للحياة التي تتناقض مع نظرة الآخر. فافترقنا... إنها متزوجة الآن، وما زلنا أصدقاء، ولكن نادراً ما أراها فهي تعيش في واشنطن.

ـ وأين تقع واشنطن؟

أسئلة سخيفة، لكنها لا تعرف شيئاً عن أميركا أو عن مدنها.

ـ إنها قريبة من نيويورك، ليست قريبة جداً منها. إنها تبعد عن نيويورك بمقدار ما تبعد بوردو عن باريس، أو لربما بمقدار ما تبعد باريس عن لندن.

نظر إلى ساعته، فتعجب. لقد انتظرها طويلاً، «وماذا عن العشاء الليلة؟».

ـ لا أعتقد أني قادرة على قبول دعوتك.

ـ غداً... ما رأيك؟

ـ غداً.. عليّ أن أرقص مع الفرقة.

ـ بعد الإنتهاء من العرض.

كان كلايتون مصراً على دعوته؛ كان هناك إحساس في داخله يشده إليها ويتمنى لو يراها كل لحظة.

ـ لا أعدك.. بل سأحاول.

ـ حسناً... إلى اللقاء ليلة الغد.

شكرته وهي تترجل من السيارة، وتمضي بطريقها نحو الشقة وهو يلاحقها بنظراته وفي صدره يتردد صدى أغنية إسمها زويا.

الفصل الخامس عشر

لأول مرة في حياتها، وجدت زويا نفسها أمام خيارين: إما الكذب أو قول الحقيقة. وما الضرر إن كذبت لمرة واحدة؟ إنها راغبة في تناول العشاء مع كلايتون، وبالوقت نفسه تسائل نفسها، ماذا ستقول لجدتها.

لأول مرة، تشعر أن أمراً ما، أمراً أساسياً، يتغيّر في حياتها، صار لها تفكيرها الخاص المستقل؛ أخبرت جدتها، أن دياغيليف دعا جميع أعضاء الفرقة إلى مائدة العشاء، بعد الإنتهاء من عرض هذه الليلة، وتمنى ألا يتغيب أحد. إنه يريد تكريمهم، فرداً فرداً.

ـ وهل لا بد من تلبية الدعوة يا صغيرتي؟

ـ بودي لو بمقدوري، رفض دعوته.. ولكن... إذن لا تنتظريني لنتناول العشاء.

بعد الإنتهاء من العرض، كان كلايتون بانتظارها عند مدخل قاعة المسرح، إلى جانب سيارة أخرى، من سيارات هيئة أركان بيرشينيغ. أثناء الطريق إلى مطعم مكسيم، تحدثا كثيراً بطلاقة وبصدق، كل واحد منهما، يحاول أن يتقرب من الآخر، إنما مع الإبقاء على مسافة، وكأنه يحفظ خط العودة.

ـ كيف كانت ليلتك؟

ـ على خير ما يرام.. لكن نيجنسكي لم يرقص... إنه راقص مميز... أما ترى ذلك؟ وغرقت زويا بالضحك؛ انتبهت أن كلايتون لا يعير اهتماماً لرقص الباليه فتابعت تقول: «عفواً... نسيت أنك غير مهتم بهذا النوع من الفنون».

ـ لا ضرورة للإعتذار، لربما عليّ الإهتمام... من الآن وصاعداً على الأقل.

أجالت زويا النظر، في صالة مطعم مكسيم، سجاد أحمر، ثريات تتدلى.. كل شيء يدل على الفخامة، حتى الحضور يرتدون لباساً رسمياً. حبست أنفاسها وهي تفكر، كيف ستصف هذا الذي تشاهده الآن في رسالتها لماري، ولكن ماذا ستقول لها عن كلايتون؟ حتى هي، لا تدري لماذا قبلت دعوته، أو لا تدري لماذا تسمح لنفسها أن تصعد في السيارة إلى جانبه. كل ما في الأمر أن شعوراً بالإرتياح النفسي يغمرها.

إنه إنسان أنيق... مهذب... محترم... يحترم الآخرين، ويقدر أحاسيسهم ومشاعرهم... تشعر أنها منجذبة إليه... ولمَ لا؟ فهي لم تعد طفلة. لقد نضجت، جسدياً وفكرياً وعقلياً.

ـ جائعة؟ تساءل كلايتون وهو يطلب من النادل أن يأتيه بزجاجة شمبانيا فرنسية، لم يعد الجوع يعني لها شيئاً، إنها تريد ـ فقط ـ أن تجيل النظر في هذه القاعة.

ـ هل سبق لكِ وأتيتِ إلى هنا؟

بحركة من رأسها، نفت حدوث ذلك، وهي مستغرقة بالمقارنة بين ما تراه، وبين الشقة التي تقيم فيها، والفندق الذي

نزلت فيه ليلة الوصول إلى باريس. إن جدتها، تحضر أبسط الطعام، ليأكلاه معاً، وبمشاركة فيودور بالطبع.

ـ لا... لم يسبق أن زرت هذا المطعم وأي مطعم آخر في باريس، لكنها لم تشرح له أسباب ذلك.

ـ إنه مكان جميل... أليس كذلك؟ لقد تعودت الحضور إلى هنا، منذ سنوات، منذ ما قبل الحرب. أنا أحب باريس، وسعدت جداً لإرسالي إلى هنا.

ـ وهل تسافر كثيراً؟

ـ نعم، أقوم برحلات كثيرة. وأنتِ هل سبق لكِ أن زرتِ باريس؟ أعني قبل مجيئكِ إليها مؤخراً.

ـ لا... لكن والديّ كانا يزورانها باستمرار. أمي ألمانية الأصل.

أحس فجأة أنه راغب بسؤالها، عما تعني لها الثورة التي نشبت في بلادها. لكنه، تراجع عن سؤاله، إذ قد يتسبب لها ببعض الذكريات المؤلمة. غير أنه يرغب بالتحدث إليها بما يدخل الفرحة إلى صدرها ويضحكها.

ـ زويا... هل سبق لكِ ورأيتِ القيصر؟

سؤال أشد إيلاماً من السؤال عن الثورة. تنهدت زويا من أعماق صدرها، وتلألأت الدموع في عينيها، حتى أنها سمحت لتلك الدموع أن تنهمر وتحرق وجنتيها. لماذا هذا السؤال؟ كنت سعيدة بوجودي هنا، فلماذا أعادني إلى الزمن الماضي، إلى ذكريات أحاول أن أنساها ولو لهنيهات... «هل سبق لكِ ورأيتِ القيصر؟» رددت زويا بصوت مسموع وأنفاسها تحرق شفتيها.

ـ أهو سؤال سخيف؟ أم ماذا؟ ومن ثم لما هذه الدموع على وجنتيكِ؟

ـ تسألني إن كان سبق لي ورأيت عمي؟... إنه ابن خال أبي.

أحست زويا، برغبة قوية في التحدث عن الماضي، لكنها كانت خائفة من الذكريات، خائفة من العودة ـ في تفكيرها ـ إلى ستارسكوي سيلو، إلى مجالسة ماشكا أو تاتيانا أو أولغا أو أنستازيا، أو أليكس أو العمة ألكسندرا.

ـ لا عليك... يمكننا التحدث لاحقاً عن هذ الموضوع.

ـ «أنا بخير.. ولكن»... مدت يدها ومسحت الدمع بمنديل حريري، كان أمامها على الطاولة. «أفتقدهم جميعاً... أنا مشتاقة إليهم فرداً فرداً... إنهم ما يزالون هناك في قصر ستارسكوي سيلو، موضوعون تحت الإقامة الجبرية».

ـ وهل تلقيتِ أية أخبار عنهم؟

ـ «تلقيتُ رسالة من الدوقة ماري... إنها واحدة من بنات القيصر، وهي الصديقة الأغلى والأحب إلى قلبي، ربينا معاً، منذ الطفولة ونحن معاً. يوم غادرت روسيا، كانت تعاني من مرض الحصبة». ابتسمت قليلاً وكأنها شعرت أنها تجالس ماري «وأنا أيضاً أصبت بمرض الحصبة... انتقل المرض منها إلي».

كان يصغي إلى كل كلمة تقولها، فبدا له أن القيصر، يمثل لزويا، رجلاً أسطورياً، أكثر مما تعتبره عماً لها... تتحدث عنه، وكأنه إنسان خارق.

ـ هذا يعني أنكِ كنتِ على تواصل دائم معهم جميعاً.

أحنت زويا رأسها، فيما ارتسمت على شفتيه إبتسامة عريضة. أدرك أنه لا يجالس فتاة جميلة تعمل راقصة في فرقة باليه، بل فتاة من عائلة عريقة، فتاة ذات ماضٍ مميز ومشرّف. إنها ليست فتاة عادية كما اعتقد حين التقاها لأول مرة. واسترسلت زويا في الحديث عن قصر فونتانكا، عن الخدم والحشم. عن أخيها نيقولاي... عن مقتل أخيها على يد الغوغائيين كما أسمتهم، عن الأسبوع الأخير الذي أمضته في قصر تسارسكوي سيلو قبل المجيء إلى هنا، طلباً للنجاة، وبناءً على رغبة جدتها وإلحاحها، لأنه لو تُرِكَ الخيار لها، لما أتت.

ـ أحتفظ بصور كثيرة تجمعنا معاً... قد تراها يوماً ما،... كنا نمضي شهر آب من كل سنة في ليفاديا، وسيذهبون هذا العام إلى هناك، كما أخبرتني ماري في رسالتها، ولكن من دوني أنا. إنها المرة الأولى التي يذهبون فيها إلى ليفاديا ولا أكون معهم. كنا سنوياً نحتفل بعيد ميلاد أليكس على اليخت الإمبراطوري... كان هذا تقليداً سنوياً.

كانت زويا تتحدث بارتياح نفسي، تذكر أسماء الأشخاص والأمكنة التي تشكل جزءاً مهما من ماضي حياتها، من الذكريات التي تؤرّق ليلها ونهارها، تتحدث عن أولاد القيصر، عن لعب التنس، عن الرحلات البحرية، عن الحفلات، عن أمراء روسيا الذين هم الآن، يتسولون في شوارع العواصم الأوروبية، أو يعملون كسائقي سيارات أجرة في باريس كما يفعل الأمير فلاديمير ماركوفسكي.. وها هي الآن تعمل راقصة. ليس هماً، فهناك من يرافقها في ذهابها وإيابها إلى العمل، أوضحت له من يكون فيودور. كان الوقت يمر مسرعاً وممتعاً، وبالوقت ذاته أحس كلايتون بألم في الرأس مما يسمع وتأسف لما أصابها.

ـ وما تنوين فعله الآن؟

ـ لست أدري... فسيأتي يوم، إن عاجلاً أو آجلاً، لن يعود لدينا مجوهرات نبيعها ونعتاش من ثمنها. إذن عليّ الإستمرار في عملي كراقصة. جدتي غير قادرة على العمل، فهي إمرأة عجوز، وڤيودور لا يتكلم الفرنسية، مما يعني أن لا أحد يستخدمه. إضافة إلى أنه رجل كهل أيضاً.

ـ يبدو أن والدكِ ، كان رجلاً بكل معنى الكلمة.

ـ فعلاً كان كذلك.

ـ إنه لأمر صعب أن تتذكري كل ذلك... وهل ما زلتِ تأملين بالعودة إلى روسيا؟

ـ «هذا ما تعتقده جدتي... تعتقد أن الحرب قد تغير كل شيء. وقد تعود روسيا إلى ما كانت عليه قبل الثورة... وهذا ما قاله العم نيقولا قبل مغادرتنا».

العم نيقولا... القيصر نيقولا.. كلمات كانت تشد انتباه كلايتون.

ـ حتى الآن ـ على الأقل ـ سأواصل الرقص. منذ صغري وأنا أحلم بالذهاب إلى مدرسةماينسكي لتعلم رقص الباليه... إنه حلم من الماضي، وها أنا الآن أرقص، وأفضل الرقص على العمل كمعلمة للغة الإنكليزية، أو الروسية، أو الألمانية، أو العمل في الخياطة أو تصميم القبعات النسائية.

كان كلايتون، يحدق بها معجباً بصدقها وصراحتها. ولفت انتباهه تعدادها للبدائل في العمل.

ـ وحتى أنا لا أتخيلكِ تصممين القبعات.

ـ إن لم أقم بأي عمل، سنصل إلى مرحلة الجوع... وأعتقد أن عملي كراقصة هو الأفضل.

أخبرته عن أول تجربة إداء لها أمام دياغيليف، وعن أشياء كثيرة فازداد إعجابه بها، ولكن عليه الآن مواجهة أشياء استجدت. إن التي يجالسها، ليست هي تلك الفتاة التي التقاها قبل يومين في مقر قيادة الجنرال بيرشينغ، إنها ليست الفتاة الجميلة ولا الراقصة في الفرقة الروسية للباليه، إنها فتاة تتحدر من عائلة كريمة، فتاة رصينة تحترم ذاتها وتحترم الآخرين، فتاة لا تعرف الكذب. كل هذه، جعلته يرغب بالحفاظ عليها والإهتمام بها. وازداد إعجابه بها حين قالت «أتمنى لو يأتي يوم نلتقي فيه جدتي».

ـ لربما في يوم، أتمناه قريباً.

ـ ولكن... كيف سأقدمك لها؟ وبأية صفة؟

ـ على أني صديق لدياغيليف.

ـ هذا قد يثير غضبها... إنها تكرهه، وهي تفضل أن أتزوج من الأمير ڤلاديمير على أن أستمر في عملي كراقصة.

عند منتصف الليل. سدد كلايتون فاتورة المطعم وأصعد زويا إلى السيارة ليعيدها إلى منزلها «أتمنى لو نلتقي من وقت لآخر يا زويا» قال هذا، وهو يدري أن عليه ألا يتسبب بأذيتها ولو معنوياً. إنها ما تزال في مقتبل العمر، بريئة صادقة.

ـ ما رأيكِ لو زرتكم يوماً وتناولت الشاي مع جدتكِ؟

ـ وماذا أقول لها؟... من أنت؟ كيف تعارفنا؟

ـ ما رأيكِ... عند الرابعة بعد ظهر الأحد؟

ـ حسناً. نحن عادةً نذهب للتنزه في غابة بولوني.

ـ جيد، عند الرابعة إذن؟ ونقوم بنزهة معاً.

ـ وافقت زويا، لكنها ما تزال تفكر، ماذا ستقول لجدتها. حتى اقترح عليها قول الحقيقة «أخبريها أني واحد من أركان قيادة الجنرال بيرشينغ، وقد التقينا تلك الليلة... ليلة استضافته للفرقة. فقول الحقيقة أفضل بكثير من الكذب والمراوغة».

ـ هذا هو الحل المثالي.

كانت زويا، محتارة من أمرها وتسائل نفسها، «لماذا أنا مهتمة به؟... ولكن...».

ـ شكراً على هذه الدعوة... كان وقتاً ممتعاً.

ـ وأنا أشكر لكِ تلبية دعوتي. فعلاً كانت جلسة ممتعة.

مد يده ولامس شعرها بحركة جعلها تبدو عفوية وغير مقصودة، كان يرغب بضمها إلى صدره، لكنه لم يفعل... أو لم يتجرأ على فعل ذلك. إن اهتمامه بها، يزداد لحظة بعد لحظة وكذلك احترامه لها. لذلك أوصلها حتى مدخل الشقة، وبقي ينتظر على الرصيف، حتى تأكد أنها دخلت المنزل بسلام.

الفصل السادس عشر

لم يكن صعباً إقناع ايفيجينيا باستقبال كلايتون. كما كانت تتصور زويا. لقد أوضحت لجدتها أنها التقته في الحفل الذي أقامه الجنرال بيرشينغ على شرف دياغيليف وأعضاء فرقته. في البدء ترددت الكونتيسة العجوز بإعطاء الموافقة، لا لسبب، إلا ضيق ذات اليد. فهم ما يزالون، يعتمدون على ما يأتي به الأمير ڤلاديمير، لكن زويا، تمكنت من إقناعها، إن لا ضرورة أبداً لتقديم أكثر من الشاي وقطعة حلوى صغيرة.

لم يكن اهتمام الجدة بالشاي الفاخرة، ولا بالمحارم الحريرية أو أكواب البورسلين، والسماور الروسي، بل بسبب الزيارة؛ ومن هو هذا الآتي؟

عند الرابعة تماماً، وفي الموعد المحدد، كان فيدور يفتح الباب لكلايتون، وسرعان ما تبددت مخاوف الجدة. يبدو إنساناً محترماً، مهذباً، وسيماً، انحنى أمام ڤيودور معرفاً عن نفسه، كذلك فعل أمامها وهو يقدم لها باقة زهور خاصة بها، إضافة إلى باقة أخرى خاصة بزويا. وجلب معه أيضاً قالب حلوى.

لم يكن يلتفت إلى زويا كثيراً، وهو مسترسل في الحديث إلى الكونتيسة العجوز، عن حياته، منذ طفولته في نيويورك حتى اليوم،

وعن رحلاته وأسفاره، مبدياً أسفه لعدم إطلاعه على تاريخ روسيا.

زويا، كما جدتها، وجدت أوجه شبه قوية بينه وبين قسطنطين، الوسامة، الطلاقة في الحديث، الصدق في التعبير. وحين خرجت زويا من غرفة الجلوس إلى المطبخ لإعداد الشاي، بناءً لطلب الجدة، أخذت إيفيجينيا، تراقبه عن كثب وكأنها تدرك سبب زيارته... إنه أكبر منها بكثير، لكنها لن تسمح لنفسها في الدخول بنقاش مع صغيرتها حول هذا الموضوع، لأنه بالفعل رجل ترتاح إليه النساء.

إستغلت العجوز غياب زويا، فتوجهت إليه بالسؤال إنما بنبرة خافتة تعبر عن مدى إهتمامها بحفيدتها «حسناً إيها النقيب.. ماذا تريد منها؟».

ـ بصدق... لست أدري... لم يسبق لي أن فكرت بمصادقة فتاة من عمرها... لكنها إنسانة مميزة... لربما أكون صديقاً لها ولكِ... لكما معاً.

ـ أرجوك أن تكون صادقاً معها، حضرة النقيب كلايتون، فهي ما تزال في مقتبل العمر، لا تعرف الغش والخداع. صدّقني إنها أبرأ من البراءة، فلا تكن سبب تعاستها. يبدو أنها مهتمة بك... إنها ما تزال صغيرة... صغيرة جداً.

أحنى رأسه وهو يفكر، بصدق مشاعر هذه العجوز الجالسة قربه، وبعفويتها في التعبير عن مخاوفها، كذلك بما كان قد صمم عليه من قبل، ألا يقيم علاقة مع الفتيات الصغيرات. ومن ثم، ماذا بعد مغادرته باريس عائداً إلى بلاده؟ ليس من اللائق أن يجعلها تقع في حبه ثم يرحل.

ـ بكلمة أوضح، قد تتغير كل حياتها...

ـ هذا ما أخشاه صدقيني سيدتي الكونتيسة.

عادت زويا، وسكبت الشاي لكليهما، ومن ثم قدمت له مجموعة الصور التي حدثته عنها، في ليفاديا... هذه هي جوي والدة ساشا التي تلاعب قدميها... هذا هو ولي العهد، يضع رأسه على صدرها، وها هي أولغا... تاتيانا... أنستازيا... وهذه هي ماري صديقتي المفضلة. وها هي العمة ألكسندرا، أما هذا الذي يرفعني بيديه فهو القيصر بحد ذاته. كانت تحدثه بحرارة زائدة وترمقه من حين لآخر بنظراتها الساحرة، هكذا تأكد من صدق مخاوف الجدة؛ إنها لا تنظر إليه كصديق وحسب، بل أبعد من ذلك بكثير لكنها ما تزال فتاة صغيرة، تتمتع بمواصفات يندر وجودها في أية فتاة أخرى. إنها فعلاً مميزة، ولكن ماذا بمقدوره أن يقدم لها؟ إنه رجل مطلّق يبلغ الخامسة والأربعين من العمر. هو الآن في باريس، ليس في رحلة استجمام، بل في مهمة عسكرية، إنه هنا ليشارك في الحرب. إذن ليس بمقدوره أن يقدم لها شيئاً. إنها تستحق رجلاً أصغر منه عمراً، حنوناً، عطوفاً، يهتم بها، يرعاها، يسعدها في حياتها، إنها بحاجة لإنسان، عمره يناسب عمرها، لينموا معاً ويكبران ويتشاركان الذكريات. تمنى لو بمقدوره أن يأخذها بين ذراعيه، لكنه كبت مشاعره وكبح أمنيته.

بعد الإنتهاء من تناول الشاي، ذهب الجميع، باستثناء ڤيودور، لقضاء بعض الوقت في إحدى حدائق باريس، حيث شرع يراقب زويا وهي متناسية وجوده، وتلاعب ساشا التي تركض على العشب الأخضر، ثم تقف لتنبح قليلاً، ومن ثم تعود للقفز والوثب، وزويا تقفز أو تثب معها.

دون تفكير، وبعفوية زائدة، تقدم كلايتون ووضع يده حول خصر

زويا وشدها إليه؛ فنظرت إلى وجهه وهي تضحك ضحكة تلك الطفلة التي في الصورة. لاحظت إيفيجينيا هذا، لكنها لم تتفوه بأية كلمة، بل انتظرت حتى عادا إلى الشقة، ثانية، إستغلت الجدة، ذهاب زويا لإعطاء ساقا إلى ڤيودور، لتتوجه إليه وتقول: «فكر جيداً، حضرة النقيب.. قد تكون سبباً في تغيُّر مجرى حياة حفيدتي الصغيرة... كن واعياً... أرجوك كن رجلاً يتمتع بالشهامة».

ودع كلايتون الكونتيسة، كما قدم نفسه، منحنياً أمامها تعبيراً عن الاحترام والتقدير.

ـ ماذا قلت له يا جدتي؟

ـ شكرته على قالب الحلوى والزهور، ودعوته لزيارتنا ثانية.

ـ هذا كل شيء؟ لقد بدا جدياً فوق العادة، حتى أنه لم يبتسم وهو يقول إلى اللقاء.

ـ لربما يكون فكر بأمور كثيرة.. بالمناسبة. إنه أكبر منكِ سناً، عمره يضاعف عمركِ يا صغيرتي.

ـ هذا لا يهمني.. إنه رجل محترم.

ـ لا أنكر هذا... إنه فعلاً إنسان محترم.

أحنت الجدة رأسها وهي تتساءل عما إذا كانت حفيدتها قد وقعت في الحب.

الفصل السابع عشر

بعد أسبوع، أمضاه كلايتون بعيداً عن زويا، وجد نفسه مشدوداً إليها... مشتاقاً لرؤيتها، لرؤية عينيها، لرؤية شعرها، لسماع رنين ضحكاتها؛ لتلك الصور التي غيّرت رأيه في القيصر. كان يعتبره رجلاً ظالماً، مستبداً، لا أحاسيس تسيطر عليه ولا مشاعر، فإذ به، يتحول إلى إنسان عادي، يهتم ببيته وعائلته، يغدق دفقاً من الحب على أولاده وأقاربه، وفيضاً من حنان؛ فتألم كلايتون لما آل إليه مصير هذا الإنسان الذي عرفه من خلال صور.

وجد نفسه، يقود سيارته ليزورها في شقتها، وليس لينتظرها أمام المسرح. وبموافقة الجدة، اصطحب زويا لمشاهدة فيلم «الأرملة الطروب» الذي، روت زويا أحداثه لجدتها، بعد عودتها. فيما كلايتون يسكب الشمبانيا من زجاجة فاخرة، وفي كؤوس كريستال، جلبها معه. كان يرغب بجعلهما تستعيدان شيئاً من حياتهما السابقة. وجلب معه أيضاً، شاياً فاخراً، وأغطية صوفية ومحارم حريرية.

كانت إيڤيجينيا تشك بصدق نوايا كلايتون، ولكن لم تكن قادرة على الحؤول دون ذهابهما معاً، للتنزه في إحدى الحدائق العامة، أو تناول العشاء في المطاعم الشعبية، ويتبادلان أطراف الحديث، عن كل شيء، عن الباليه وعن الأطفال. زويا ما تزال تصر على إنجاب ستة

أطفال، الأمر الذي أضحك كلايتون وهو يتساءل «ولماذا ستة؟».

ـ لست أدري... ولكني أحب الأرقام المزدوجة.

كانت زويا، قد تلقت رسالة من ماري، تخبرها فيها أن تاتيانا مريضة مجدداً، وأن ناغورني ما يزال ملازماً لأليكس وتقول «أبي إنسان رائع، يحاول دائماً أن يجعلنا أقوياء، قادرين على مواجهة التحديات الحياتية والتغلب عليها... إنه حنون، عطوف».

لم يكن سهلاً على كلايتون، أن يتخيل، مدى العلاقة التي تربط هذه الفتاة التي تجلس قربه، بالقيصر وعائلته، وبماري خاصة. فما مرّ يوم، إلا وحدّثته عنهم، إلا واستعادت ذكرياتها معهم، في تسارسكوي سيلو، في ليفاديا، أو على متن اليخت الإمبراطوري. نادراً، ما تكلمت عن أمها، أو أبيها، أو شقيقها أو عن قصر فونتانكا، ربما تحاشياً لذكريات مؤلمة، تثير الحزن، فتنهمر الدموع، من تلك العينين الخضراوين، وتختفي الابتسامة عن شفتيها؛ حتى صار كلايتون يشعر وكأن عائلة القيصر هي عائلته. يتسقط أخبارها، ويخاف من أن يقدم الثوار على قتلهم، أو قتل أحد منهم.

كان صيف زويا، صيف مرح وحب، توزعت أوقاته، بين الرقص والتنزه مع كلايتون، أو تناول العشاء في المطاعم الباريسية الراقية أحياناً والشعبية أحياناً أخرى؛ وتلقي الهدايا التي كان يقدمها لها ولجدتها. كان هو بحاجة لإنسانة، تعيد إليه روح الشباب، تنسيه أنه هنا، في باريس، ليخوض حرباً قد تقضي عليه وعلى العديد من رفاقه، وكانت هي، بحاجة لمن ينسيها الأحزان التي تتراكم على صدرها، يوماً بعد يوم، فالتقيا، وأمضيا معاً لحظات لهو بريئة. كان يخاف

عليها من نفسه، ويدرك أن عمره يساوي ضعفي عمرها ونيفاً.

مع بداية شهر أيلول، بدا أن صيف زويا، لم يكن أكثر من سحابة صيف، كلايتون، عليه الإنتقال إلى شومونت على نهر المارن، حيث تدور أشرس معركة بين الحلفاء من جهة والألمان من جهة ثانية، قد تقرر مصير الحرب. ودياغيليف ينوي القيام بجولة على المدن البرتغالية والإسبانية. هكذا وجدت زويا نفسها أمام خيارين لا ثالث لهما، إما الإستمرار بالعمل مع الفرقة الروسية للباليه، أو البقاء في باريس إلى جانب جدتها. أمران أحلاهما مرّ، خاصة، بعد رحيل كلايتون.

ـ يمكنكِ العمل مع أي فرقة أخرى.. قال كلايتون.

ـ ولكن الفرق الأخرى، ليست بمستوى فرقة دياغيليف، ولا تدفع الأجر الذي يدفعه. ولكن... أيضاً وأيضاً... ما العمل؟ جدتها أنقذت حياتها، وحتى الآن... وإلى أن يأتي يوم ـ قد لا يأتي ـ تعود فيه وتلتقي بماري، لا أحد لها في هذا العالم سواها.

وراحت أخبار السوء تنهال. تلقت رسالة من الدكتور بوتكين، يعلمها فيها أنه يوم الرابع عشر من آب، أي بعد أسبوعين من عيد ميلاد ألكسي، أخلت العائلة قصرها في تسارسكوي سيلو، ورُحلت إلى توبولوسك في سيبيريا. كانت تأمل باللقاء في ليفاديا، أما اليوم، فكل شيء يمضي من سيء إلى أسوأ.

انفطر قلب كلايتون حزناً عليها، كان بوده، لو بمقدوره مواساتها والبقاء إلى جانبها، لكنه راحل غداً.

ـ قريباً جداً، تصلكِ رسالة أخرى.. أنا متأكد من ذلك يا زويا، فلا تخافي. قال كلايتون. وكيف يكون ذلك؟ ساءل نفسه. لقد فقدت كل

شيء خلال شهور عدة. أمها، أباها وشقيقها، إنها، تفتقد حياة، لا مجال لمقارنتها بهذه التي تحياها الآن، وها هو الخوف على مصير عائلة القيصر، يبرز من جديد. حتى هو، تملكه الخوف. ولكن ليس بوسعه أن يفعل شيئاً من أجلها. أميركا، اعترفت بالحكومة الروسية المؤقتة، وما من دولة أوروبية، مستعدة لقبول القيصر كلاجيء سياسي، أو حتى استقباله مع عائلته. ولا أحد قادراً على التكهن، عما ينوي الثوار فعله. إذن لم يعد هناك إلا الصلاة، إلا التضرع إلى الله؛ علّ هذا يدخل الطمأنينة إلى قلب زويا. والأسوأ، أنه راحل غداً.

ـ لن يطول غيابي يا زويا... هذا وعد مني...

نظرت إليه بعين حزينة... كل شيء حولها ينهار... عائلة القيصر منفية في سيبيريا، الفرقة الروسية للبالية تتجول بين مدن البرتغال وإسبانيا. وها هو صديقها الذي منحها الإستقرار النفسي، يرحلّ. منذ ثلاثة أشهر إلتقيا، ولم يتصرف إلا بشهامة ونبل، لم يقدم على أي عمل طائش كما كانت تتخوف إيفيجينيا. كان رفيق أوقات فراغها. يأخذها في نزهة، إلى المسرح لتتناول الطعام في مطعم مكسيم، أو حتى في غيره من مطاعم باريس. أنعش الأمل في صدرها، وأدخل الإطمئنان إلى قلبها. في سان بطرسبورغ، فقدت عائلتها، لكنه هنا، في باريس، صار هو عائلتها، وها هو مجبر على تركها، تصارع الأيام الآتية، وحدها. عليها، قبل كل شيء. أن تجد عملاً... حتى إيفيجينيا، وصلت إلى هذه القناعة.

يوم العاشر من أيلول، بدأت العمل، مع فرقة أخرى، لا أحد من زميلاتها في فرقة دياغيليف موجودة فيها، وبأجر أقل بكثير، إنما عليها، تأمين ثمن الطعام لها ولجدتها ولفيودور. الحرب تتخذ منحى تصعيدياً، والغارات الجوية تتوالى.

بعد أيام، تلقت رسالة من ماري؛ تخبرها فيها، أنهم، يقيمون في دارة للدولة في توبولوسك. دارة صغيرة «لكن أبي يحاول تأمين جميع وسائل الراحة، حول الدارة، حديقة صغيرة، نمضي أوقاتنا بالإعتناء بها، قتلاً للملل والضجر. وما يزال أبي يقرأ كتب التاريخ... احتفلنا بعيد ميلاد أولغا الثاني والعشرين. بيير غيليارد، ما يزال معنا، يساعد أبي في تحضير الحطب استعداداً لفصل الشتاء الذي يقولون إنه قارس جداً في سيبيريا، وما يزال مثابراً على تعليمنا... أمي متعبة جداً، وقلقة على أليكس، لقد أتعبته الرحلة من تسارسكوي سيلو إلى هنا. وفي الوقت ذاته، يمكنني القول. إن الوضع هنا أفضل بكثير. كلنا، أنا وأخواتي، ننام في غرفة واحدة، إنه منزل صغير، يشبه الشقة التي تقيمين فيها في باريس مع العمة إيفيجينيا التي نرجوك تقبيلها نيابة عنا جميعاً. أخبرت أمي أنكِ تعملين راقصة بالية، أحسست بشيء من خيبة الأمل، لكنها عادت وضحكت وقالت، هذا أفضل بكثير من العيش هنا... كلنا نرسل لكِ القبلات، وخاصة أنا» كانت الرسالة موقعة من أوتما أو الشيفرة التي تعودن أن تذيلن بها رسائلهن، وهي اختصار للأسماء الأربعة: أولغا... تاتيانا.. ماري.. آنستازيا.

بعد رحيل كلايتون، لم يعد لزويا، إلا العمل ومجالسة جدتها. تأكد لها أن كلايتون دللها كثيراً؛ بوجوده كانت تحس بالحياة، هدايا... نزهات... مفاجآت... أما الآن...؟ فلا شيء من كل هذا، سوى كتابة الرسائل له ولماري. أجوبته دائماً مختصرة. لا وقت لديه، إنه منهمك في تنفيذ أوامر الجنرال بيرشينغ.

تشرين الأول، لم يكن أفضل من أيلول، أصيب فيودور بالأنفلونزا الإسبانية، وأقعده المرض، حتى لم يعد قادراً لا على الشرب ولا الأكل..

بدأ ينهار. وزويا وجدتها تعتنيان به. إنهما تعترفان بما قدمه لهما، كان مخلصاً ووفياً، لكنه، كان كالسمكة التي سحبت من البحر، لم يكن قادراً على التكيف مع البيئة الجديدة التي فرضتها عليه الظروف، لهذا، وقبل أن يحني رأسه آخر انحناءة، إبتسم وقال لهما «الآن... يمكنني العودة إلى روسيا».

في مقبرة صغيرة خارج العاصمة، وبمساعدة الأمير ڤلاديمير دفن ڤيودور؛ الذي بكته زويا وكأنه والدها. كان آخر معين لهما، بعد الآن لن يتمكنا من تأمين الحطب للمدفأة. ولن يشعرا بالأمان.

بدا جلياً، أن سيرة آلام زويا لم تقترب من نهايتها بعد. كلايتون، غائب منذ شهرين، وذات ليلة، عادت زويا من عملها، لتجد رجلاً واقفاً في غرفة الجلوس، كادت أن تصاب بنوبة جنون، اعتقدت أنه طبيب.

ـ ما الأمر؟... تساءلت زويا، والإندهاش بادٍ على وجهها

نظر الرجل إليها، نظرة الإندهاش ذاتها التي ترمقه بها. وخيّم صمت للحظات، قبل أن يقول «آسف يا آنستي... أنا.... جدتك»

وقاطعته بانفعال «هل هي بخير؟».

ـ نعم إنها كذلك، على ما أعتقد.. وهي في غرفتها.

ـ وأنت... من تكون؟ لم تجد زويا تفسيراً لوجوده في غرفة الجلوس، يرتدي قميصاً ذا أكمام قصيرة، يبدو وكأنه آتٍ من عالم آخر.

ـ ألم تخبركِ؟... أنا مقيم معكما هنا... منذ الصباح وأنا...

كان رجلاً شاحب الوجه، بحدود الثلاثين من العمر، رقيق الشعر،

يشكو من علة في رجليه، هذا ما تأكد لزويا وهي تراقبه أثناء خروجه من غرفة الجلوس، قاصداً غرفة ڤيودور.

ـ ما الذي فعلته؟ لا أكاد أصدق ما رأيت... قالت زويا، وهي تجلس على الكرسي الوحيد الذي ما يزال في غرفة النوم. فإيفيجينيا، قد أعطت النزيل الجديد، من محتويات الغرفة ما يؤمن له سبل الإقامة في الغرفة التي كان يشغلها ڤيودور «من هو هذا الرجل؟... لماذا لم تقولي لي مسبقاً، حتى ولو تلميحاً؟... أكاد أجن يا جدتي...».

دون أن تتوقف عن حياكة الصوف، نظرت إيفيجينيا إلى حفيدتها «ماذا فعلت؟ أجّرت الغرفة التي لا حاجة لنا بها؟ عاجلاً أم آجلاً، سنكون مضطرين لفعل هذا... فما نملك من جواهر، قارب على النفاذ، وساعتئذٍ لن يكون لدينا ما نبيعه لنعتاش بثمنه.

ـ حسناً، ولكن لماذا لم تتحدثي إليّ حول هذا الموضوع؟ لم أعد طفلة.. وأعيش معكِ هنا... إنه إنسان غريب كلياً... لا نعرف عنه شيئاً، ماذا لو أقدم على قتلنا ونحن نائمتان. ماذا لو عاد يوماً ثملاً؟... أو جاء بامرأة عاهرة؟

ـ ساعتئذٍ، نطلب منه الرحيل... إهدئي زويا... إنه إنسان مهذبٌ، أصيب برجله بمعركة فردان التي جرت خلال العام الماضي، وهو يعمل أستاذاً.

ـ لا يهمني من هو ولا من يكون. إنه غريب عنا، يقيم معنا في هذه الشقة الصغيرة... وما نزال نملك من المال ما يكفي. وأنا أتقاضى أجراً... إذن لماذا؟.

أحست زويا، وكأن جدتها تنازلت عن البيت، أو عن هذه الشقة الصغيرة، له ، وأنها بحاجة إلى البكاء. لقد طفح الكيل.

ـ لا خيار لنا سوى هذا يا صغيرتي... من يدري، فقد تتحسن الحال ونطلب منه الرحيل... أما الآن... فلا...

ـ إفهميني جدتي. بت الآن غير قادرة، على إعداد كوب شاي ليلاً، أو الجلوس وأنا أرتدي ثياب النوم.

ـ هدّئي من غضبك يا زويا، فكري ببنات عمك القيصر، وكيف يعشن الآن في توبولوسك. قارني حياتكِ هنا، بحياتهن هناك.. أوليس بمقدوركِ امتلاك جرأتهن على مواجهة الصعاب؟

كلمات قليلة، جعلت زويا، تشعر بالذنب، وأحست أن جدتها محقة فيما تفعل.

ـ آسفة جدتي... فعلاً أنا آسفة... ولكني صدمت لرؤيته وسط غرفة الجلوس.. صدقيني، أرعبته، حتى أنه لم يعِ كيف خرج واتجه نحو غرفته... لقد زعقت بوجهه.

ـ إنه إنسان مهذب ولطيف، وعليكِ ـ غداً صباحاً ـ أن تعتذري منه.

لم تجب زويا، بل استرسلت في التفكير بما وصلتا إليه من عوز وحاجة. حتى كلايتون، الذي وعدها بالزيارة كلما سمحت له الظروف، يبدو أنه نسي وعده. في اليوم التالي، كتبت له رسالة دون أن تذكر له شيئاً عن النزيل الجديد الذي يدعى انطوان فاليه، الذي يزعجها جداً، حين يكون إلى جانبها في المطبخ. لاحظت أن حزناً ينبعث من

عينيه، فأسفت لحاله، لكنها لن تنسى أنه اخترق آخر حصن من حصون حياتها، أنه يشاركها العيش في هذه الشقة. إنما، ما العمل إذا كانت الظروف تقضي بهذا؟

صباح الخير يا آنسة، هل ترغبين ببعض القهوة؟

كانت رائحة بن شهي تعبق في المطبخ، لكنها هزت رأسها وهي تدمدم.

ـ لا.. شكراً.. أنا لا أشرب القهوة عند الصباح، بل الشاي.

ـ آسف جداً... قال وهو يُحدّق إليها بإعجاب، وأخلى المطبخ سريعاً، وخرج لإعطاء الدروس، غير أنها، حين عادت من عملها ليلاً، وجدته جالساً إلى طاولتها يصحح مسابقات التلاميذ، انتابها غضب شديد، فدخلت غرفة النوم مباشرة، وحدّقت إلى جدتها.

ـ هذا يعني، أنه حتى الطاولة، ليس بمقدوري استعمالها إلا بعد أن ينتهي هو من عمله؟ كنت أرغب بالكتابة إلى كلايتون.

ـ أنا متأكدة من أنه لن يمضي ليله في غرفة الجلوس. حتى الجدة، أحست أنها أصبحت حبيسة غرفة نومها. وأحست زويا أنها لم تعد قادرة على الإختلاء بنفسها، والاستغراق في التفكير. تمنت لو أنها وافقت على السفر مع دياغيليف إلى البرتغال. حانت منها التفاتة نحو جدتها، فإذ بالدموع تترقرق في عينيها، فركعت عند قدميها وأحاطت خصرها بيديها وهي تنظر إليها بنظرات تعبر عن الندم والأسف.

ـ آسفة جدتي... لست أدري ما بي... أنا لست على ما يرام... أنا جد متعبة نفسياً ومتوترة.

كانت إيفيجينيا، تدرك سبب معاناة حفيدتها... إنه غياب كلايتون، وبعدما يعود، تعود زويا إلى حالتها الطبيعية؛ ورغم اقتناعها أنه إنسان مميز، فهي تتمنى ألا يكتب إليها أبداً.

دخلت زويا المطبخ لإعداد الطعام، فلاحظت أن أنطوان ينظر إلى حيث تنبعث رائحة الطعام الشهي. فدعته لمشاركتهما المائدة، إن كان يحق لها أن تطلق عليها هذا اللقب.

ـ أية مادة تدرّس؟

ـ مادة التاريخ يا آنسة... أنا أعلم أنكِ ترقصين مع فرقة الباليه.

ـ نعم... إنه كذلك. لكن نبرة صوتها دلت بوضوح على عدم اهتمامها بعملها، فشتان بين هذه الفرقة والفرقة الروسية.

ـ أنا مهتم جداً برقص الباليه، وقد أذهب يوماً لمشاهدتكِ وأنتِ ترقصين.

كان يتوقع منها جواباً تشجيعياً، لكنها لم تفعل.

ـ أنا جد مسرور بوجودي في هذه الغرفة. فابتسمت إيفيجينيا وهي تقول: «ونحن مسرورتان لوجودك معنا».

ـ الطعام شهي جداً.

ـ شكراً. قالت زويا دون أن ترفع نظرها إليه.

أخذ أنطوان يتكلم عن أشياء كثيرة، دونما اهتمام بردة فعل سامعيّه. كان يتكلم لأنه يرغب بالتعبير عن ذاته، عما يختلج بصدره، من مشاعر وأحاسيس، الأمر الذي أزعج زويا.

بعد الإنتهاء من تناول الطعام، أحب أن يمد يد المساعدة لزويا، في جلي الصحون وتنظيف الطاولة، ومن ثم أوقد نار المدفأة؛ مما أثار غضباً داخلياً عند زويا. فيما مضى، كان ڤيودور يؤمن الحطب، أما الآن فمن يفعل ذلك؟

ـ سبق لي أن زرت سان بطرسبورغ. قال وهو ما يزال جالساً خلف الطاولة يراقب حركاتها خلسة. وتابع يقول: «إنها مدينة جميلة». أحنت رأسها وأدارت ظهرها له، وراحت تراقب لهب النار يتصاعد والدمع في عينيها. كان انطوان قد تزوج قبل بداية الحرب، ورزق بطفل توفي بذات الرئة، أما زوجته فقد هربت مع أعز صديق له. إنه كالعديد من البشر الذين يعانون من العذاب هذه الأيام، لكن زويا، لم ولن تسأله عن حياته الشخصية. فهو، بالنسبة إليها، مجرد رجل، نجا من الموت بأعجوبة، وبدلاً من مؤازرته ورفع معنوياته، كانت تحاول العكس.

استدارت زويا ونظرت إليه، فتعجبت كيف قبلت جدتها أن يشاركهما السكن في الشقة.

ـ البرد قارس، قال وهو يوقد المدفأة بالمزيد من الحطب. تابع «غداً، سأجلب الحطب للمدفأة يا آنسة، لأننا فعلاً بحاجة للمزيد منه... أترغبين بكوب شاي آخر؟... إني على استعداد لإعداده لكِ.

ـ شكراً... لا أرغب بالمزيد...

إنه في الحادية والثلاثين من العمر، لكنه يبدو أكبر من ذلك بكثير. إنها الحياة جعلته هكذا.

ـ أعتقد أني أشغل غرفتكِ يا آنسة.

ـ لا... إنها ليست غرفتي، بل هي غرفة أحد خدمنا الذي أتى معنا من روسيا وتوفي خلال شهر تشرين الأول الماضي.

ـ جد آسف... إنها أوقات صعبة والكل يعاني منها... منذ متى أتيتم إلى باريس؟

ـ منذ نيسان الماضي... تركنا مباشرة مع بداية الثورة.

ـ إلتقيت العديد من الروس هنا... إنهم فعلاً رجال شجعان وطيبون. كان يتمنى لو بإمكانه القول «وأنتِ أيضا» لكنه لم يجروْ على ذلك...

صمت قليلاً، علّه يلقى منها تعليقاً ولو مقتضباً، لكنها لم تفعل.

ـ أنا مستعد للقيام بما يطلب مني يا آنسة... فأنا أيضاً أقيم هنا، وعليّ واجبات... وتأكدي أني على استعداد كلي للقيام بما تطلبين أنتِ وجدتكِ. أنا أجيد الطبخ، فلربما نجعل هذه المهمة مداورة.

بقيت زويا مستمرة في صمتها. ربما هو ليس سيئاً، لكنه كذلك... ولا ترغب بوجوده.

لملم النزيل أوراقه ودخل غرفته. أما زويا فبقيت، تراقب النار وتفكر بكلايتون.

الفصل الثامن عشر

مع بداية فصل الشتاء، ومع اشتداد حدة المعارك، عرفت باريس أزمة معيشية حادة، نقص في المواد الغذائية، شتاء قارس، فقر وعوز وجياع. كل يوم وافدون روس جدد، يبيعون، ما تمكنوا من جلبه، من حلى ومجوهرات بأبخس الأثمان، حتى أن ايفيجينيا حين قصدت الصائغ لبيع آخر قرط ذهبي مرصع بالألماس، كاد يغمى عليها عندما حدد الشاري سعره، ولولا الحاجة الماسة لما وافقت. هكذا لم يعد لهما معين سوى أجر زويا على ضآلته، حتى الأمير ڤلاديمير ماركوفسكي صار يشكو غلاء الأسعار، وضيق ذات اليد، والأهم أنه يخبر الكونتيسه العجوز بما يترامى لمسامعه من أخبار عن روسيا.

أمام هذا الواقع، وجدت زويا أن جدتها كانت محقة فيما فعلت، باستقبالها النزيل في غرفة ڤيودور، فعدا عن أن ما يدفعه لقاء إقامته، فهو، كثيراً ما يجلب لهما الخبز الطازج، أو الحطب للمدفأة، وأحياناً بعض الكتب الروسية لإيفيجينيا.

أية حال وصل إليها المهاجرون الروس؟ يبيعون، حتى كتبهم.

ـ إنه كثير الإهتمام بزويا. ولماذا لا يفعل؟ فهي فتاة جميلة، ذكية،

جذابة رصينة؛ حتى أنه سعى أكثر من طاقته ليأتيها بلوح شوكولا، فقط لأنها تمنت أن تجد لوح شوكولا.

كُلّما مر أسبوع، يزداد تعبير انطوان عن شهامته وإنسانيته وكرم أخلاقه ويده، كان يغدق عليهما بالهدايا، ويعيل الجدة التي جعلها الروماتيزم شبه مقعدة، حتى أنه بعد ظهر ذات يوم، عادت زويا لتجده يحمل جدتها على ذراعيه لينقلها إلى غرفتها. إن اهتمامه لم يكن بإيفيجينيا فقط، بل بزويا أيضاً، رغم إدعائها أنها لم تلاحظ ذلك.

ـ لست أدري، كيف أنكِ لم تلاحظي مدى اهتمامه بكِ يا صغيرتي؟

كل اهتمام زويا، كان منصباً على جدتها. فهي خائفة من شدة سعالها الذي قد يكون نتيجة إصابتها بالسل المتفشي في باريس، أو بالإنفلونزا الإسبانية التي تسببت بموت فيودور، حتى هي، أصابها الوهن والضعف، عمل شاق ومتعب، وقليل من الطعام والنوم.

ـ كيف حال جدتكِ الآن؟ تساءل انطوان وهو يساعدها في إعداد طعام العشاء. «لم تكن بحال جيدة ... إنها بحاجة للغذاء، بحاجة للحم الطازج والخضار الطازجة، ولكن أين توجد هذه؟»».

ـ إني قلقة عليها... سعالها يخيفني أما توافقني الرأي يا انطوان؟

أحنى رأسه موافقاً على ما تقول، وأضاف إلى الجزر الذي كان يغلي على النار مكعبين من اللحمة المجلدة. الليلة، لا يوجد خبز. نعم حتى الخبز مفقود، وإن وجد فبأغلى الأثمان، ما جعل الفقراء عاجزين عن شرائه.

ـ أعتقد أنه يجب عليّ أخذها للطبيب.

ولكن... حتى أجرة الطبيب غير متوفرة. ولم يعد هناك شيء للبيع، سوى علبة سجائر والدها وثلاثة أقراط فضية هي هدية من أخيها، وأقسمت إيفيجينيا ألا تبيعها حتى ولو ماتت جوعاً.

ـ أعرف طبيباً في شارع غورو دي موري، بدل معاينته، لا شيء مقارنةً مع غيره. إنه يجري عمليات إجهاض للبغايا. أنا شخصياً قصدته مرات عدة من أجل رجلي، ووجدته طبيباً بارعاً.

رغم الألم كان انطوان يبدو سعيداً... تحسنت حالته النفسية. إنه الآن يقيم مع بشر محترمين، يهتم بهم، وبالجدة خاصة، أما اهتمامه بزويا فأمر آخر...

ـكيف حالك اليوم؟ سألته وهي ما تزال في المطبخ بانتظار نضوج الجزر، إنه إنسان طيب القلب، يتحلّى بعِدّة صِفاتٍ حسنة. يساعد الجدة أثناء الهروب إلى الملجأ، إتقاءً للغارات الجوية ويجلب الحطب.

ـ «على ما هي؛ وأنتظر عطلة نهاية الأسبوع، لأرتاح قليلاً وأقرأ بعض الكتب... هل ترغبين بمشاهدة أحد العروض المسرحية الهزلية؟ لديّ صديق، قادر على إعطائنا بطاقتين مجانيتين للدخول إلى مسرح الأوبرا الهزلية». كلامه هذا، ذكرها بكلايتون، الذي وحده الله يعلم متى تعود وتلتقيه، فظروف عمله تفرض عليه التكتم على أماكن تمركز وحداته العسكرية.

ـ الحقيقة أرغب بزيارة المتحف يوماً ما. هذا إذا سمحت الظروف.

ـ لا عليك... قريباً جداً سنزور المتحف. ولكن كيف حال الذي نطهوه ونسميه طعاماً.

ـ قارب على النضوج.

ـ بودي لو أجد شرائح لحم طازج.

ـ وأنا بودي لو بمقدوري شراء المواد الطازجة، من الخضار إلى الفاكهة إلى اللحم والدجاج... فكلما تذكرت، ما كنا نأكله في سان بطرسبورغ، كلما رغبت بالبكاء... كانت الناس، قبل هذه الحرب، تحلم بأشياء حلوة كثيرة، أما اليوم فهي تحلم بالطعام. هذا ما حصل معي ليلة أمس. حلمت أني أقطع اللحم الطازج للشواء، حلمت بالتفاح، بالبرتقال، بالفراولة.

أما هو فقد حلم بزوجته وبما فعلت، لكنه لم يخبرها شيئاً، بل ساعدها في وضع الصحون على الطاولة.

ـ بالمناسبة كيف حال قدمك؟

ـ تؤلمني... فالبرد القارس يزيد من شعوري بالألم. أشكري الله على أنكِ ما تزالين صبية، على عكس ما نحن عليه، جدتكِ وأنا.

في فونتانكا، كانت الصحون المصنوعة من البورسلين الصيني المزخرف، تُصف على الطاولة. وفي الوسط أشهى المأكولات وأطيبها. أما اليوم، فليس هناك أكثر من ثلاثة أطباق معدنية، ولا طعام شهياً. إنه لأمر مؤسف أن تكون الحياة قاسية إلى هذا الحد!!!

ذهب أنطوان لمساعدة إيفيجينيا على الخروج من غرفتها والمجيء إلى غرفة الجلوس لتناول الطعام، لكنه عاد ليقول إنها غير جائعة وتفضل البقاء في غرفتها.

ـ أعتقد أن علينا استدعاء الطبيب.

ـ هو ما يجب فعله، ولكن من أين لنا دفع بدل أتعابه؟ لا شك أنه سيتقاضى أجره مضاعفاً . فمن الأفضل الذهاب أن نقصد عيادته.

ـ سأعد لها بعض الشاي، قد يساعدها...

هز أنطوان رأسه موافقاً على ما تقول، لكنه، كان يدرك في قرارة نفسه، أن الأزمة المعيشية هي السبب الرئيسي في تدهور حالة الكونتيسة العجوز «على كلٍ يا آنسة، سنبقي لها حصتها من الطعام، فإن لم تتناوله اليوم، فقد تفعل غدًا.. بالمناسبة كيف كان عملكِ اليوم؟».

ـ «نوعاً ما... أتمنى لو تعود الفرقة الروسية للباليه لأعاود الرقص فيها، هؤلاء الذين أعمل معهم، لا يدرون ماذا يفعلون... بإمكانك أن تقول عنهم كل شيء، سوى أنهم يرقصون الباليه» رغم هذا كانت زويا تشعر بالفرح، لسبب وحيد، هو الأجر الذي تتقاضاه لقاء عملها.

ـ أمس كنت أسترق السمع في أحد المقاهي إلى حديث عن محاولة الإنقلاب التي جرت مؤخراً في روسيا. كان المتحاورون يشددون على دموية البولشفيك، لهذا أجد نفسي إلى جانب الإنقلابيين ضد سفك الدماء.

ـ شخصياً أنا قلقة على آل رومانوف. فمنذ ترحيلهم إلى سيبيريا وأنا لا أعرف عنهم شيئاً .

من يدري فقد يكون الدكتور بوتكين عجز عن إيصال رسائلها إلى ماشكا، إذن ما عليها إلا الصبر... الصبر هو الدواء الوحيد لمعالجة الحالة التي تمر فيها روسيا وكل أوروبا أيضاً. الكل يترقب تحسن الحال، وزويا تترقب أخباراً من عائلة القيصر. هناك شائعات عن إمكانية مهاجمة

الألمان لباريس، ولكن كيف يمكن أن يكون ذلك، بوجود قوات أميركية وبريطانية؟ قد يكون ضرباً من الجنون... إنما بعد الذي جرى في روسيا، فلا شيء مستحيلاً أو مستبعداً.

وقفت زويا وتناولت طبق الطعام المخصص للجدة، ودخلت به إلى غرفة النوم، لكنها سرعان ماعادت «إنها نائمة... أعتقد من الأفضل أن تبقى نائمة... وضعتُ حراماً صوفياً فوقها، حتى لا تشعر بالبرد. لا تنسَ يا انطوان إعطائي عنوان الطبيب الذي حدثتني عنه».

ـ هل تسمحين لي بمرافقتكِ؟

شكرته زويا على عاطفته هذه، إلا أنها ما تزال قادرة على تحمل مسؤولياتها منفردة.

بعد الإنتهاء من جلي الأطباق. جلست قرب المدفأة فيما هو كان يراقب انعكاس لون النار على شعرها. لم يتمكن من السيطرة على انجذابه إليها، تقدم وجلس قربها، متذرعاً برغبته في التدفئة لكن الحقيقة، كانت غير ذلك؛ إنه راغب أن يكون قريباً منها متمنياً لو يأخذها بين ذراعيه ويضمها إلى صدره.

ـ منحكِ الله شعراً جميلاً... قال غير مقدر لردة فعلها.

ـ ماذا؟ قالت زويا مستغربة وبلهجة عدائية. لكنها التفتت إليه «أنا آسفة. لم أقصد إهانتك.. كنت أفكر بأخي».

أحس أن قلبه يكاد ينشطر إلى نصفين، وأنه راغب بضمها إلى صدره، وبصوت خافت قال «كيف كان يبدو؟».

ـ رائع.. مرح.. مغامر... شجاع.. بهي الإطلالة. كان مثار

إعجاب معظم الفتيات والنساء، أسود الشعر... أخضر العينين.

ضحكت زويا قبل أن تكمل «كان مولعاً بالراقصات.. أتصدق؟ معظم رجال العائلة الحاكمة، بمن فيهم القيصر، كانوا مولعين بالراقصات. ولهذا أعتقد، أنه لو كان ما يزال حياً، لما وافق على عملي كراقصة..».

ـ لكنه كان سيقدر الظروف... علينا أن نعمل لنأكل... لا خيارات أمامنا... يبدو أن علاقة حميمة كانت تربطكما.

ـ نعم... كنا أشقاء... وأصدقاء... كان يبالغ بإظهار اهتمامه بي... كان يخاف عليّ من نسمة الريح.

ومضت زويا تخبره، عن ليلة موته، ومحاولات جدتها وقف النزيف الدموي، وأخبرته عن جنون والدتها. اغرورقت عيناها بالدمع وعادت تفكر بالماضي، بحلوه ومره. ولولا مجيء ساشا للتقوقع عند قدميها لما عادت إلى الواقع. خيم صمت رهيب، لم تعد قادرة على الكلام، حتى أنها تمنت لو تفقد ذاكرتها، لتعيش حاضرها فقط. أما هو فكان منغمساً في النظر إليها بلهفة وشغف، مفكراً بكيفية البوح عن مشاعره. إنه خائف من ردة فعلها، وخائف أيضاً أن يكون صمته سبباً في خسارتها. استجمع قواه وفاجأها بالسؤال «ولكن ماذا عن حياتكِ الخاصة؟... هل فكرتِ بها يوماً؟».

باستغراب أجابت: الرقص ولا شيء غيره.

ـ وماذا أيضاً؟ تساءل، محاولاً اقتناص فرصة وجودهما معاً.

ـ أفكر بالزواج وإنجاب الأولاد.

ـ والآن؟ ألا تفكرين بالزواج وإنجاب الأولاد.

ـ لا... فمعظم الراقصات لا يتزوجن، حتى ينتهي المطاف بهن، إما إلى مدرِّبات أو إلى الموت.

معظم الراقصات المشهورات لم يتزوجن، أمضين حياتهن عازبات. دون أن تجروْ إحداهن على التفكير بالزواج. كلايتون مجرد صديق، والأمير ماركوفسكي تخطى السنين من العمر، أما زملاؤها في العمل، فهم لا يفكرون بالزواج، وليس بمقدورها تخيل أن تكون زوجة انطوان، ولكن هل هناك أي رجل آخر؟ على كلٍ، فالآن، ما عليها إلا الإهتمام بجدتها.

ـ قد تكونين أفضل زوجة.

ـ لو سمعك أخي تقول هذا، لاعتقد أنك مجنون. أنا لا أجيد الطبخ ولا الخياطة، لا أهتم بالرسم أو بحياكة الصوف، لا أتصور أني ربة بيت مثالية... على كلٍ، ليس هذا هو موضوعنا الآن.

ـ الزواج لا يعني الطبخ والخياطة فقط.

ـ حسناً، ولكني لا أعتقد أني قد أكون المرأة التي تسعد زوجها.

صُدم بما تقول.

ـ زويا!!! قال وهو يحدق بها.

ـ نعم انطوان.

ـ لربما، يأتي يوم، تتعرفين فيه على رجل يطلب منكِ التوقف عن الرقص؟

لم يكن يدري أن الرقص يلعب دوراً مهماً في حياتها، وأنها لا ترقص لتأمين مورد مالي وحسب، بل تحقيقاً لحلم قديم.

ـ من الأفضل لي الآن، مساعدة جدتي في وضعها على السرير وإلا سيزداد الألم في رجليها، إنها ما تزال على الكرسي.

نهضت ودخلت غرفة النوم، لتجد جدتها ما تزال مستيقظة.

ـ أما ترغبين بتناول الطعام يا جدتي؟

ـ لا... يا صغيرتي.. أنا جد متعبة... دعيه للغد، فليس مستحسناً في أيام الجوع هذه أن نرمي الطعام... ماذا كنتِ تفعلين في غرفة الجلوس؟

ـ أتحدث مع أنطوان.

ـ إنه رجل طيب.

ـ فعلاً إنه كذلك. لقد أعطاني عنوان طبيب. سنذهب إليه غداً.

ـ لا ضرورة للطبيب يا صغيرتي.

ـ بلى... هناك ضرورة قصوى.. سعالكِ يخيفني.

ـ كل اللواتي بعمري يسعلن هكذا.. يكفي أني ما أزال على قيد الحياة...

ـ لا تقولي هذا.. أرجوكِ جدتي.

الفصل التاسع عشر

تقاضى الطبيب أجراً زهيداً، لكنه أفرغ محفظة زويا. المهم أنه سعال عادي. لم تقل زويا شيئاً لجدتها أثناء العودة مع الأمير ماركوفسكي الذي تركته في الشقة مع ايفيجينيا، يتحدثان عن روسيا، عن ماضٍ لن يعود ثانية، وعما آلت إليه الحال.

بعد عودتها مساءً، توقعت أن يكون الدواء بدأ يعطي مفعوله. في المطبخ كان انطوان يطهو الدجاج الذي تمكن من الحصول عليه، بشق النفس. اليوم دجاج، وغداً حساء الدجاج. هذا ما فكرت به زويا، لكنها تذكرت ماشكا.. تُرى هل هم ما يزالون قادرين على الحصول على وجبات طعام شهية في سيبيريا؟ وتمنت لو أنهما الآن معاً لتلهو قليلاً، غير أن «الرياح تجري بما لا تشتهي السفن».

أسعدت مساءً يا انطوان، وشكراً على إعطائنا عنوان الطبيب.

ـ لم يكن ضرورياً إنفاق المال. قالت إيفيجينيا وهي تقرب كرسيها من المدفأة التي كانت تأكل الحطب الذي جلبه ڤلاديمير... «يا له من يوم رائع يذكر بما مضى. دجاج وحطب».

ـ لا تكوني سخيفة يا جدتي... أنا على استعداد لدفع روحي فداءً لكِ.

بعد تناول العشاء الفاخر، ذهبت الجدة إلى غرفة نومها فاستغل انطوان المناسبة، ليتحدث مع زويا. حدثها عن أعياد الميلاد أيام طفولته، وعن الهدايا ليلة رأس السنة. إنها ذكريات...

ـ عيد الميلاد في روسيا يقع في السادس من كانون الثاني وليس في الخامس والعشرين من كانون الأول.

ـ أعرف ذلك.

ـ أعتقد أننا سنذهب إلى الكنيسة الروسية لتأدية صلاة العيد هذا العام.

كانت تنتظر حلول عيد الميلاد، وبالوقت ذاته تتخيل كم سيكون مؤلماً أن يأتي العيد، ولا أهل ولا أصدقاء. سيكون الحزن مسيطراً على الأغلب الأعم من المتواجدين في الكنيسة. كلهم سيتذكرون عالمهم الذي فقدوه. لم تكن متأكدة من قدرتها على تحمل تلك اللحظات، إنما تدرك، أن جدتها ستصر على حضور القداس. إنه أول عيد بلا هدايا.

مع حلول يوم العيد، كانت المفاجأة. أهداها أنطوان وشاحاً صوفياً، وقفازين وزجاجة عطر صغيرة، من النوع الذي طالما رددت على مسمعه أنه عطرها المفضل... زجاجة عطر ليلاس الذي سبق لماشكا أن أهدتها زجاجة منه. فرحت زويا كطفل صغير تلقى هدية العيد. نظرت إليه والدموع تنهمر من عينيها، وبحركة طفولية ضمته إلى صدرها وقبلته على وجنتيه. قبلة أخوية، هكذا هي اعتقدت، أما هو فقد شعر بالنار تحرق جسده، هذا ما كان يتمناه منذ زمن، ولا يجرؤ على فعله.

بكت الجدة وهي تتناول الهدية منه. إنه ليس الرجل المناسب جداً لزويا، لكنه خير من تعرفهم، وكانت متأكدة من أنه سيعتني بها ويوليها

اهتمامه. ولهذا، حين تحدث معها بموضوع رغبته بالزواج من حفيدتها، لم تتوانى عن منحه بركتها ورضاها، ولكن دون علم زويا.

حملت الكونتيسة العجوز هداياها وتسللت إلى غرفة النوم، وهي تتضرع لله أن يتمكن من نيل موافقة زويا على الزواج منه.

ـ «لا بد أنك أنفقت كل ما لديكِ من مال». قالت زويا وهي تحرك النار بقضيب معدني طويل، وساقا تهز ذيلها «هذا جنون... ولكنه يعبر عن كرم ونبل... شكرًا أنطوان... أما العطر فلن أستعمله إلا بالمناسبات المميزة جدّاً» وعيد الميلاد الروسي، هو تلك المناسبة.

جلس على كُرسي قبالتها، محاولًا أن يستجمع قواه. طيلة السنوات الواحدة والثلاثين من عمره، لم يخف من شيء، حتى من معركة فردان، إلا أنه الآن خائف... خائف جداً، ولا يدري كيف يبدأ حديثه.

ـ أود أن أتحدث معكِ يا زويا عن مناسبة جد مميزة.

ـ ما تعني بقولك هذا؟

ـ أعني... أعني... أحبكِ يا زويا.

ـ ماذا؟... قالت باستغراب لا يوصف.

ـ أحبكِ... أحببتكِ منذ اليوم الذي التقينا فيه واعتقدت أنكِ كنتِ تتوقعين هذا الإعتراف.

ـ ولماذا أتوقع؟ قالت بغضب واضح «فأنت حتى الآن، لا تعرف شيئاً عني».

ـ منذ شهرين ونحن تحت سقف واحد، أوليست هذه مدة كافية

لأعرف من أنتِ؟ ويمكننا البقاء هنا، في هذه الشقة إنما نتشارك، أنتِ وأنا غرفة واحدة.

ـ رائع!!! انتصبت وهي ترفع يدها في وجهه غاضبة. «كيف استطعت أن تفكر بهذه السخافة التي تفوهت بها؟ كلنا جياع، ولا أحد منا يملك حتى فلساً واحداً... وأنت تعرض الزواج. لماذا؟... لماذا؟... أنا لا أحبك، وبالكاد أعرف من أنت، وكذلك أنتَ... أنطوان نحن مجرد اثنين غريبين.

ـ أبداً لسنا كذلك يا زويا... نحن أصدقاء... والصداقة، بنظر الأغلب الأعم هي الطريق إلى الزواج الناجح.

ـ أنا لا أؤمن بما تقول. لن أتزوج إلا من أحبه بجنون.

ـ تعتقد جدتكِ أننا قد نكون أسعد عروسين.

ـ إذن ما رأيك لو تتزوج جدتي؟... أنا لا أفكر بالزواج. أنا محاطة بالمرض، بالصقيع والموت. الجوع والفقر في كل مكان، فكيف نبدأ حياتنا إذن؟

ـ تقصدين أنكِ لا تحبينني.

إرتمى على الكرسي بتثاقل، غير مقتنع بما يسمع وكأنه متأكد من حبها له.

ـ الحب الذي تتحدث أنت عنه شيء، والصداقة شيء آخر. أنا اعتبرتك صديقاً ليس أكثر... حتى أنت تعاملت معي على هذا الأساس، لم تلمح يوماً إلى الحب.

ـ لم أفعل ذلك بسبب الخوف. ولكن.. هل ستفكرين في الأمر يا زويا؟

هزت رأسها وانهمرت دمعة من عينيها «أنطوان، لن أسمح لنفسي بالكذب عليك، ولا أعدك بشيء، هذا ليس من مصلحتنا نحن الإثنين... أتمنى لو أني أحبك... لكنت استجبت لطلبك فوراً ودون تردد. إنما المشكلة هي أنني لا أحبك فقط لا غير».

ـ حاولي.

ـ لا.. الحب أحاسيس تأتي بشكل عفوي... أنا آسفة أنطوان...

أدارت ظهرها واتجهت نحو غرفة النوم، تاركة، ما جلبه لها من هدايا حتى زجاجة العطر.

أطفأ أنوار غرفة الجلوس. وذهب إلى غرفته متأملاً، أن تتمكن جدتها من إقناعها.

زويا؟... قالت الجدة الممددة على السرير، فيما هي ترتدي ثياب النوم ومن ثم تقف عند النافذة المطلة على الحديقة والدمع في عينيها. عادت الجدة وناداتها، فاستدارت نحوها، فإذا بالدموع تتلألأ على خديها «لماذا يا جدتي؟... لماذا فعلتِ هذا؟ لماذا شجعته على حبه لي؟ هذه جريمة بحقنا نحن الإثنين: أنا وهو».

كانت زويا تتألم معه: وتعي أنه الآن في حالة نفسية لا يحسد عليها؛ وتتمنى لو بمقدورها مساعدته. ولكنها غير مستعدة للزواج منه، شفقة عليه.

ـ لا... ليس جريمة... عليكِ أن تتزوجي أحداً ما، وكلي يقين أنه يحبكِ. إنه أستاذ ومحترم... ويحبكِ... يحبكِ.

ـ لكني لا أحبه.

ـ أنتِ طفلة لا تعرفين ماذا تريدين... كانت الجدة تعتقد أن زويا ما تزال تفكر بكلايتون ابن الخمس والأربعين عاماً الذي انقطعت أخباره منذ شهر ونيف.

ـ إني أرغب بالزواج من الرجل الذي أحبه... أما يحق لي هذا يا جدتي.

ـ في الأيام الطبيعية، نعم... ولكن... في ظروفنا هذه، عليكِ أن تفكري بواقعية. أنا إمرأة عجوز ومريضة. ماذا ستفعلين بعد موتي؟ ستبقين هنا، ترقصين وتعودين إلى هذه الغرفة التي ما من أحد فيها، يقول لكِ «صباح الخير» أو «مساء الخير» تعقّلي واقبلي به عريساً، وحاولي الوقوع في حبه.

ـ جدتي.. ما هذا الذي أسمعه منكِ؟ أمعقول ما تقولين؟

ـ أقول هذا من تجربتي الحياتية على مدى أربع وثمانين عاماً. علمتني الحياة، متى عليّ أن أقاوم، ومتى عليّ أن أستسلم، ومتى أجري مصالحة مع قلبي. لا تفكري، ولو لحظة واحدة، أني لا أتمنى، أن تتزوجي أميراً وتسكني قصراً، أفخم من قصر فونتانكا. ولكن... أين هم الأمراء؟ إنهم سائقو سيارات أجرة، وقصر فونتانكا احترق. روسيا كلها احترقت يا زويا... عليكِ أن تفكري بالعقل وليس بالقلب، أتمنى أن أطمئن على أنكِ مع رجل يقدر إنسانيتكِ ويرعاكِ، أتمنى ذلك، حتى أرحل عن هذه الدنيا مرتاحة الضمير والبال.

ـ أما تهتمين بعدم حبي له؟

ـ هذا ليس هماً... تزوجيه، وكوني على ثقة أنكِ أنتِ الرابحة.

ـ لكنه قبيح الوجه، أعرج... إنه أشبه بمعاق.

كانت زويا مقتنعة، أن الحب يجعلها لا ترى أياً من هذه العيوب.

ـ هذا مستحيل يا جدتي.

ـ لا، ليس مستحيلاً... إقبلي به إكراماً لي ... زويا... دعيني أرحل وأنا مطمئنة أنكِ بين أيادٍ أمينة، ومع رجل يحميكِ.

ـ يحميني؟ مِمَّ... من الجوع؟ كلنا جياع، وهو غير قادر على فعل شيء لتغيير هذا الواقع... على كلٍ، أنا لا أهتم لمثل هذه الأشياء. أفضل أن أبقى وحيدة مع جوعي، على أن أتزوج رجلاً لا أحبه.

ـ لا تركبي عنادكِ يا صغيرتي... فكري...

ـ حسناً دعيني الآن.. أرغب بالنوم.

صباح اليوم التالي، وفيما هي تشرب الشاي، وهو يشرب قهوة الصباح، كانت زويا صريحة وواضحة وحازمة معه.

ـ أريدك أن تتأكد، وبدون أدنى شك، أني لن أتزوجك يا أنطوان... أرجوك... إنسَ الموضوع نهائياً... إنزعه من رأسك.

ـ ليس بمقدوري فعل ذلك... ليس بمقدوري الإقامة معكِ وأنتِ تعرفين حقيقة مشاعري نحوكِ.

ـ «لكنك فعلت ذلك سابقاً»... فكّرت زويا بما يدفعه من أجر لقاء إقامته معهما.

ـ نعم... ولكنكِ لم تكوني تعرفين أني أحبك، أما الآن....؟ الآن تعرفين.

ـ أعدك أن أنسى كل ما قلته لي.

ـ هذا ليس حلاً... ولكن لماذا لا تحاولين التفكير ملياً قبل إعطاء الجواب النهائي زويا.

ـ لا... لا أريد أن أجعلك تعيش مع الأوهام، وعلى آمال كاذبة... لن أتزوج منك، لا الآن، ولا غداً، ولا بعد غد.

ـ هل هناك من رجل آخر في حياتك؟ كان أنطوان يشير إلى صديقها الأميركي كلايتون. لكنه لم يكن في يوم من الأيام، يعتقد أن علاقتها به هي علاقة حب جدي.

ـ لا... إنما أحلم ولا أحب أن أتخلى عن أحلامي...

ـ ربما تتحسن الحال بعد الحرب، وننتقل من هذه الشقة إلى شقة أفضل.

كانت أحلام أنطوان صغيرة لا تتعدى مساحة شقة، بينما أحلام زويا لا حدود لها.

ـ أنطوان... قالت بحزم... لن أتزوج منك، عليك الإقتناع بهذا.

ـ حسناً، إذن سأرحل غداً.

ـ لا... أرجوك. أقسم أني سأبقى بعيدة عنك... رحيلك قد يدمي قلب جدتي.

ـ وأنتِ يا زويا؟ هل ستشتاقين إليّ؟

ـ أعتقد ما من صديق إلا ويشتاق لصديقه يا أنطوان. أليس كذلك؟

ـ سأكون أوفى صديق، إنما لن أبقى هنا.

عبثاً حاولتا معاً، زويا وإيفيجينيا إقناعه بالبقاء معهما، حتى دون أن يدفع أجر الغرفة. وعبثاً حاولت زويا إقناعه بأهمية علاقة الصداقة، أحس أنطوان أن كبرياءه قد جرحت.

صباح اليوم التالي، استفاقت زويا لتجد على الطاولة إيجار الغرفة مع رسالة يتمنى لها فيها حياة سعيدة وزجاجة العطر التي كان قد جلبها لها لليلة الميلاد؛ ولم تجد أنطوان... باكراً رحل أنطوان، حتى دون وداع إيفيجينيا التي تأثرت جداً لرحيله.

الفصل العشرون

رحل أنطوان... وخيّم صمت ممزوج بالأسى والوحدة، على تلك الشقة قرب القصر الملكي. زويا شبه عاطلة عن العمل، والحال المادية تسوء من يوم لآخر... إيڤيجينيا، ما تزال تتساءل عن أسباب رفض زويا الزواج من أنطوان... أهو عدم الحب كما تدعي... أم حب إنسان آخر؟

بعيد رأس السنة، وقبل حلول عيد الميلاد الروسي، وجدت إيڤيجينيا نفسها مضطرة لبيع، ما سبق لها وأقسمت ألا تبيعه. علبة السجائر الذهبية التي كانت لابنها، وثالث علب فضية مرصعة بالياقوت، كانت لحفيدها نيقولاي... إنه الجوع الكافر.

برفقة ڤلاديمير، مستغلة غياب زويا، قصدت إيڤيجينيا أحد صاغة شارع كامبون الذي عرض ثمناً بخساً، بسبب كثرة عروض البيع... ففي كل يوم، هناك أمراء روس، يبيعون ما تمكنوا من أمثال هذه العلب وغيرها من المجوهرات.

«إنه قدرنا المشؤوم» علّق ڤلاديمير. كنا نشتري الذهب والألماس، وها نحن اليوم نبيعه، لنقتات بثمنه.

ـ فعلاً إنه قدر مشؤوم يا سمو الأمير...

قبيل عودة الجدة إلى الشقة، كانت زويا، تقف في غرفة الجلوس متسائلة «ترى أين ذهبت جدتي؟ ومع من؟»».

ـ أين كنتِ جدتي؟... تساءلت زويا وهي تساعدها للجلوس على الكرسي.

ـ كنت في نزهة مع ڤلاديمير.

ـ في نزهة؟... أهذا كل شيء... أصدقتني القول يا جدتي...

دخل ڤلاديمير حاملاً، بعضاً من الخبز والحليب ومكعبات اللحم المجفف.

ـ ومن أين هذا يا جدتي؟

اغرورقت عينا إيڤيجينيا... تبللت خداها بالدموع، ولم تجد بدا من قول الحقيقية... إنها جد متعبة... في أواخر أيامها خدعتها الحياة، وما تزال مجبرة على الصراع من أجل البقاء، لا حباً بالحياة، بل من أجل زويا.

ـ جدتي...؟

ـ إنه إنسان طيب... أرادت إيڤيجينيا أن تغير موضوع الحديث... «سيأخذنا الليلة إلى كنيسة القديس ألكسندر، لتأدية صلاة عيد الميلاد... لا شك، معظم الأمراء سيكونون هناك».

احتارت زويا... فهي، تدرك أن وجود جدتها بين أبناء قومها سيدخل الفرح في قلبها... ولكن، هل من الحكمة، أن تُخرجها في هذا الطقس العاصف، وعند منتصف الليل؟

ـ جدتي... أمتأكدة أنتِ.. أنكِ بخير...

ـ ما تعودت أن أتغيب عن حضور قداس منتصف الليل... إنه القداس الإحتفالي بعيد ميلاد المخلّص.

ما من شك، أن هذه الليلة، هي ليلة مميزة... هي غير تلك الليالي، ستتذكران الأيام السالفة، أيام سان بطرسبورغ، وتسارسكوي سيلو، ستتذكران أناساً كانوا يشاركونهما فرحة العيد. فأين هم اليوم؟ أمضت زويا يومها تفكر بماشكا وشقيقاتها وبعيد الميلاد في توبولوسك بسيبيريا.

سأعود عند الحادية عشر. قال ڤلاديمير وهو يودعهما. قررت زويا أن تلبس أجمل وأرقى ما عندها من ثياب. فستان أسود مرصع بحبات اللؤلؤ.

عشية الميلاد، كانتا وحيدتين، في شقة يلفُّها السُّكون، غرفة أنطوان الفارغة، بدت وكأنها توجه اللوم لزويا. لم ترغب زويا بالإنتقال إليها، بل أصرت على الإستمرار في البقاء في غرفة الجدّة ذاتها، بانتظار نزيل جديد.

حضّرت زويا عشاء الميلاد من لحم الدجاج، بالطبع إنه عشاء فاخر في مثل هذه الأيام. كانتا كلتاهما، تحاولان عدم تذكر أيام العز في السنوات الماضية، كانت العائلة ليلة الميلاد في القصر، وعند منتصف الليل يذهب الجميع لحضور القداس، وعند الصباح يقصدون تسارسكوي سيلو للإحتفال مع القيصر وعائلته.

سمعت زويا طرقاً خفيفاً على الباب فأسرعت، وأسرعت معها ساشا التي كانت تأمل أن تأكل بعضاً من الدجاج. أسرعت زويا لترى منْ الطارق، آملة أن يكون الله قد استجاب لدعواتها وأرسل نزيلاً جديداً

يأتي به ڤلاديمير. ولكن هل يعقل أن يأتي نزيل في هذا الوقت من الليل؟

إلى جانب الطرق الخفيف على الباب، سمعت زويا صوتاً مألوفاً.. صوتاً أدهشها وأفرحها... ولكن من غير المعقول أن يكون هو. فتحت الباب، فتسمرت مكانها تنظر إليه وهو يرتدي بذته الرسمية والنجوم النحاسية تلمع على كتفيه، وعيناه الزرقاوان مملوءتان بالحب والحنان.

ـ عيد ميلاد سعيد يا زويا...

إنه كلايتون يقف أمامها؛ منذ شهور أربعة لم يأتِ لزيارتها، لكنه يدرك أهمية هذه الليلة عند زويا وجدتها، فصمم على تمضية إجازته الممتدة لأربعة أيام معهما.

ـ هل يحق لي الدخول؟

ـ أنا... يا إلهي.. أهذا أنت حقاً؟

ـ أظن ذلك.

ابتسم وانحنى ليقبل وجنتيها دون أن يأخذها بين ذراعيه مع أنه كان يتمنى ذلك. دخل كلايتون، وسارت زويا خلفه، تنظر إلى منكبيه العريضتين وقامته الممشوقة والفرح يغمرها من أخمص القدمين حتى شعر الرأس. لاحظت أنه يحمل حقيبة، تحتوي على ما يعتبر كنزٌ بالنسبة لهما، وفي هذه الأيام بخاصة، طعامٌ مطهو من مواد طازجة، ألواح شوكولاته، نقانق، خسة كبيرة، بعض التفاح، وزجاجة نبيذ فاخر من الذي يشربه الجنرال بيرشينغ شخصياً. إنهما ثريتان جداً.

«ميلاد سعيد سيدتي الكونتيسة» قال وهو منحنٍ يقبل يد ايڤيجينيا

«إني مشتاق لكِ كل الشوق، مشتاق لكما معا» لكن شوقه للجدة لا يقارن بشوقه لزويا، وليس بمقدار شوق زويا إليه.

شكراً أيها النقيب. «ما أخبار الحرب؟».

كانت الجدة تكلم كلايتون وعيناها على حفيدتها، التي استعادت حيويتها، وعادت الفرحة تغمرها، إنه الرجل الذي تريده زويا، وسيم، طويل القامة، معتز بنفسه.

ـ للأسف، ما تزال مشتعلة، ولكن ليس لأكثر من شهور عدة.

بقايا عشائهما التي كانت ما تزال على الطاولة، بدت لا شيء مقارنة مع ما جلبه كلايتون. كانت زويا، تنظر إلى ألواح الشوكولا، كطفل صغير جائع، ضحكت جداً وهي تقدم بعضاً منها لجدتها، فيما هي تلتهم الباقي، وكلايتون يراقبها ضاحكاً ملء شدقيه. إنه مسرور جداً برؤيتها بعد غياب أربعة شهور.

ـ ما أزال أتذكر أنك تحبين الشوكولا.

ـ إم... إم.. ما ألذ الشوكولا.. شكراً جزيلاً.

ضحكت إيفيجينيا، وسرت جداً لرؤية حفيدتها سعيدة إلى هذا الحد، لقد عادت طفلة صغيرة. أدرك كلايتون مدى تأثير الأيام الصعبة عليهما، فالجدة مثلها مثل زويا، بدت وكأنها في التسعين من العمر. لكنه، رغم نحول جسد زويا، ما يزال يراها جميلة، ما تزال أجمل نساء العالم في عينيه، وما يزال يتمنى لو يأخذها بين ذراعيه ويطير بها على بساط الريح.

ـ ما بك ما تزال واقفاً... تفضل واجلس حضرة النقيب.

ـ شكراً سيدتي... لا شك أنكما ستذهبان إلى الكنيسة هذه الليلة؟

كان يعرف أن هذا تقليد عائلي، لقد سبق لزويا وأخبرته عن احتفالات عيد الميلاد في سان بطرسبورغ، وبدا واضحاً أنه يرغب بمرافقتهما إلى الكنيسة، لقد سعى جاهداً للوصول في الوقت المناسب.

ـ أترغب بمرافقتنا؟

ـ أكون شاكراً لو سمحتما لي.

فتح كلايتون زجاجة النبيذ، وسكبته زويا في الكؤوس ذاتها التي سبق له وجلبها خلال الصيف الماضي. كان حلماً، بالنسبة لزويا أن تراه، بعد هذا الغياب، وفي بذلته الرسمية. وتذكرت فجأة، ما قالت لأنطوان، بأنها غير قادرة على الزواج من رجل لا تحبه. إنها تحبه وتتمنى الزواج منه، بغض النظر عن فارق العمر، فليكن ما يكون.

ولكن ما هذه الأفكار السخيفة التي تراودها، فهو حتى الآن، لم يعبر لها عن أحاسيسه ومشاعره، كل ما تعرفه أنه إنسان شهم ونبيل قطع كل تلك المسافة من شومونت إلى باريس ليكون إلى جانبها ليلة الميلاد؛ ولا تعرف شيئاً آخر. لكن ايفيجينيا التي كانت تراقب حركاتهما تمكنت من اكتشاف ما هما عاجزان عن فهمه، يمكنها القول إنها تعرف كلايتون، أكثر مما يعرف هو نفسه.

بُعيد الحادية عشر. وصل ڤلاديمير، فاستغرب وجود رجل غريب يتصرف وكأنه صديق حميم. تولت العجوز تعريف كلايتون وسكبت له كأس نبيذ.

خرجت زويا باتجاه المطبخ وتبعها كلايتون. كان مشتاقاً لها انحنى وقبل شعرها، أحاط خصرها بذراعه وجذبها إليه قليلاً.

ـ اشتقت إليكِ يا صغيرتي... لم أتمكن من الكتابة، بسبب الظروف التي تعرفين... إنها لمعجزة أني تمكنت من الحصول على إجازة أربعة أيام، أحببت تمضيتها معكِ.

لم تتمكن زويا من الإجابة. فقط ترقرق الدمع بعينيها، وكأنها تريد أن تروي مدى المعاناة التي تعيش، عبر الدمع وليس من خلال الكلمات. فقر، عوز، نقص في المواد الغذائية، شتاء بارد، وها هو الآن، يقف إلى جانبها، ها هو الآن يأتيها بالخبز والطعام والنبيذ الفاخر والشوكولا «وأنا أيضاً اشتقت إليك» لم تشأ زويا أن تلتقي عيناها بعينيه، لكنها تشعر بأمان غريب حين يكون إلى جانبها، فجأة سمعت صوت سعال خفيف، كان الأمير ڤلاديمير.

ـ حان وقت الذهاب إلى الكنيسة يا زويا قسطنطينوفا. قال ڤلاديمير بالروسية، ثم التفت إلى كلايتون يخاطبه بالفرنسية «أترغب بالذهاب معنا؟ فالسيدتان ذاهبتان لحضور قداس منتصف الليل».

ـ شرف عظيم لي أن تسمحوا لي بمرافقتكم. ثم التفت نحو زويا متسائلا «وهل تمانع جدتكِ؟»".

ـ بالطبع لا...؟

كانت زويا ترحب به نيابة عن جدتها وعنها بشكل خاص. فهي ما تزال غير مصدقة، أنها تقف أمامه، حتى أنها فكرت بدعوته للمبيت في الغرفة التي كان يشغلها انطوان، لكنها خافت من جدتها وردة فعلها وقد تعتبر دعوتها هذه، منافية للياقة والإحتشام. ولكن ما معنى كل هذه المفاهيم في زمن لا طعام فيه، لا مال، ولا دفء. وبعد فقدان مجد لن يعود؟ هذا ما فكرت به زويا وهي تمسك بيدِ كلايتون ويخرجان من

المطبخ جنباً إلى جنب، وساڤا تنظر إليهما آملة أن يتكرموا عليها بشيء من الطعام. حتى ساڤا صارت تلعن هذه الحال.

فيما السيدتان ترتديان ثيابهما، كان ڤلاديمير وكلايتون، يتحدثان عن الحرب والطقس، وإمكانية اقتراب موعد عودة السلام إلى العالم. رأى ڤلاديمير أن كلايتون إنسان مهذب ومثقف. لكنه أكبر من زويا عمراً، ومن السخافة أن توافق الكونتيسة على زواجه من حفيدتها. فعاجلاً أم آجلاً ستنتهي الحرب، ويعود هذا الضابط إلى نيويورك، وينسى لعبته الصغيرة التي يلهو بها الآن في باريس. هذا هو رأي ڤلاديمير الذي كان ما يزال، يتمنى لو تقبل به، رغم أنه تعرف منذ شهر، على فتاة روسية محترمة وفدت مؤخراً إلى باريس، وتعمل الآن، مع ابنته في الخياطة.

ساعد كلايتون الكونتيسة في خروجها من الشقة نحو سيارة ڤلاديمير التي تنتظر أمام مدخل البناية. ببطء وهدوء، قاد الأمير مالكوفسكي سيارته عبر شوارع باريس الهادئة، وكلايتون يجيل بنظره على الكل، وعلى زويا بخاصة، تأكد له، أنها بحاجة إلى مرح، إلى التغذية، إلى معطف جديد يقيها صقيع الشتاء، ويزرع الدفء في جسدها.

كان اللاجئون الروس، متحلقين أمام كنيسة القديس الكسندر نيفسكي، عدا عن الذين بداخلها. أحس كلايتون وهو يصغي إلى صوت موسيقى الأورغن والترانيم الدينية، بخشوع رهيب. بكت زويا وهي تتطلع إلى تلك الوجوه المألوفة، مع أنها لا تعرف أسماء أصحابها، الكل يتحدث الروسية، رباه... وكأنهم في روسيا وكأن ما حدث لم يحدث، اللغة الروسية، وجوه مألوفة، وشموع مضاءة. تناول ڤلاديمير

ثلاثة منها، واحدة للسيدة العجوز وثانية لكلايتون والثالثة له. أما زويا فقد أخذت واحدة من طفل صغير قدمها لها. عادت الدموع إلى عيني زويا التي كانت تحاول تصور كيف تمضي ماشكا هذه الليلة، وكذلك تاتيانا، وأولغا وأنستازيا، والطفل المدلل ألكسي. تقدم كلايتون وأمسك يدها، محاولاً إعادتها إلى الواقع، كان يعرف بما تفكر، وما تتخيل، وهي مغمضة العينين. لا شك إنها تتخيل نفسها بسان بطرسبورغ تقف ممسكة يد شقيقها ويتوسطان والديهما. بدت فعلاً وكأنها ما تزال طفلة وهي تلتصق بكلايتون.

بعد الانتهاء من القداس الإحتفالي. أخذ العديد يتقدم ويقبّل يد الكونتيسة العجوز، أما الذين هم من عامة الشعب، فكانوا ينحنون وهم يقبلون يدها. قدمت زويا كلايتون لكل من تقدم منها ملقياً التحية عليها متمنياً لها ميلاداً مجيداً.

المفاجأة، تمثلت بوجود الغراند دوق سيريل والعديد من آل رومانوف وأقارب القيصر، وكلهم يرتدون ثياباً بالية، يحاولون إخفاء الأحزان المختزنة في صدورهم، رغم أن الدموع كانت تفضح أسرار. مشهد العناق بين الغراند دوق والكونتيسة لم يكن معبراً وحسب. بل، حتى أنه أبكى كلايتون.

«كان قداساً رائعا» قال كلايتون، وهو معجب بكل واحد تعرف إليه، ما من أحد إلا ولاحظ الحب الذي يجمعهم، واعتزازهم بأنفسهم رغم معاناتهم، ويقدّر إيمانهم بربهم، كلهم يتضرعون لله أن يحفظ القيصر وزوجته والأولاد.

بعد العودة، جلس الأربعة معاً، يشربون ما تبقى من نبيذ. لاحظ

كلايتون الحزن في عيني الكونتيسة العجوز، اقترب منها ووضع يده على كتفها واعتذر لعدم جلبه البراندي أيضاً. كان يعرف أنه المشروب المفضل لها.

ـ أنتِ متعبة جدتي. ما رأيكِ لو تأوين إلى فراشك؟

ـ بعد قليل.

كانت الكونتيسة سعيدة لسعادة حفيدتها بوجود كلايتون، لقد نسيت كل شيء ولم تعد تفكر إلا به.

ـ أتمنى لكم ميلاداً مجيداً... قالت إيفيجينيا وهي ترفع كأسها لترتشف ما تبقى فيه من نبيذ «سأترككما الآن، أنا جد متعبة» لاحظ كلايتون أنها متعبة فعلاً، ولولا مساعدة زويا لما تمكنت من الوصول إلى غرفة النوم...

بعد ذلك بقليل، شرب ڤلاديمير نخب الجميع، ونخب روسيا وترك زويا وكلايتون وحدهما؛ وهو يدمدم بينه وبين نفسه «إنه رجل محظوظ... لكنه أكبر منها».

ـ ميلاد مجيد يا زويا. قال الأمير وهو يقبل وجنة زويا مودعاً عند مدخل الشقة. فابنته وصديقتها تنتظران في منزله.

أغلقت زويا الباب وعادت لتجلس قبالة كلايتون، لتعيش الذكرى والواقع؛ قسطنطين.... نيقولاي... ڤلاديمير... أنطوان. الأهم أن كلايتون هو الآن هنا إلى جانبها. بهدوء تقدم منها وأمسك يديها وقبلها قائلاً «ميلاد مجيد» باللغة الروسية أو كما حفظها عند سماعه لها أمام الكنيسة وبالمثل ردت عليه زويا.

ـ أحبك.. أحبكِ زويا. لم يسبق له أن أعلن حبه لها، لم يكن متأكداً، أما اليوم، وبعد غياب أربعة شهور، تأكد أنه يحبها بجنون. لذلك يحق له البوح بحبه.

ـ وأنا أحبك أيضاً يا كلايتون... قالت بصوت منخفض. ولكن ماذا بعد؟ ستنتهي الحرب وسيعود إلى نيويورك. إذن ما نفع هذا الحب؟

ـ كنت جد قلقاً عليكِ يا زويا... وكم تمنيت لو أني أمضيت تلك الشهور هنا إلى جانبكِ. والآن... أتمنى لو أبقى هنا إلى الأبد... وليس لأربعة أيام فقط.

ـ كنت أعرف أنك ستعود... أو قل كنت آمل ذلك.

في قرارة نفسها، شكرت زويا الله لأنه أمدها بقوة ممانعة جدتها، فلم توافق على الزواج من ڤلاديمير أو من أنطوان، وإلا ماذا كان عليها أن تفعل الآن... بعد عودة كلايتون؟

ـ زويا... حاولت جاهداً مقاومة مشاعري... حاولت نسيانك. تنهد كلايتون، قبل أن يكمل حديثه. نظر إلى ما في الغرفة، فتأكد له مدى معاناة المقيمين فيها، كل ما فيها بال، وبحاجة إلى التغيير، كل ما فيها لا يجذب النظر. إلا هذه الفتاة الجالسة قربه، التي رغم شحوب وجهها، والحزن الواضح في عينيها، ما تزال مثيرة وجذابة، ما تزال، تتحدى الصعاب وتتطلع إلى الغد؛ باستثناء هذه الفتاة، التي حاول جاهداً، نسيانها، حباً بها، لا رغبة في النسيان، لقد أكسبته السنين خبرة وزودته بالحكمة «زويا... أنا أكبر منكِ بكثير، أنتِ بحاجة لإنسان يكتشف ذاتكِ، يمنحك السعادة».

ولكن أين هو هذا الإنسان؟ أين هم أبناء الأمراء الروس؟ الحقيقة أن

زويا لم تكن بحاجة لفتى، يكتشف جسدها، بل هي بحاجة لمن يرعاها، ويهتم بها... وكان كلايتون يتمنى لو يكون هو... هذا الإنسان.

ـ غيرت مجرى حياتي يا كلايتون، منحتني من السعادة ما يكفي ويزيد... أنا لا أبحث عمن هو أصغر منك سناً، المشكلة ليست هنا، إنما هي في أحاسيسي ومشاعري... أنا لا يهمني، إن كنت فقيراً أو غنياً، إن كان عمرك عاماً أو عشرين. مشكلتي هي أني أحبك وهذا هو المهم.

ـ ولكن، قد يلعب العمر دوراً في التقارب بين اثنين، وكذلك الوضع المادي... إننا نعيش ظرفاً استثنائياً... أنت خسرت كل شيء، تركت كل شيء، وأتيت إلى هنا، إلى بلاد غريبة، إلى مجتمع غريب، أنت الآن تعانين من أمور كثيرة. من خسارتك الفردوس الذي كنتِعيشين فيه، من الإحساس بالغربة، من المعاناة من الحرب وآثارها. كلانا، غريبان هنا يا زويا... سيأتي يوم، تقفين فيه أمام نفسكِ وتتساءلين عما فعلته بنفسك، ولماذا قبلتِ بي؟

ابتسم كلايتون، وهو خائف أن تكون توقعاته هذه، حقيقة واقعية. ومضى يقول «إنها الحرب تترك آثارها على كل شيء، حتى على مشاعرنا» قال هذا انطلاقاً من مشاهداته، وعما رأى ويرى.

ـ بالنسبة إلي... لا نهاية لهذه الحرب... أنا يستحيل عليّ العودة إلى وطني... يعتقد البعض، أن هناك إمكانية العودة، هذا وهم. حتى الثورة في روسيا، لم تعد هي التي عرفناها في بدايتها. إننا أمام ثورة جديدة... كل شيء تغير، وسيبقى يتغير. نحن الآن هنا، وهذه حياتنا الجديدة.. هذا هو الواقع.

نظرت إليه بجدية، فأيقن أنه ليس أمام طفلة، بل أمام إنسانة علمتها الحياة «كل ما أعرفه يا كلايتون... هو أني أحبك».

ـ «جعلتني أفكر وكأني أصغر سناً يا زويا... إنكِ تمنحينني سعادة لا حدود لها».

أمس كان يحلم بها، وها هو الآن يقاوم عواطفه ورغباته. ابتعد عنها، ثم وقف قبالة النافذة المطلة على الحديقة. عاد إلى باريس، ليراها، ليضمها إلى صدره، ليشبعها قبلات، وها هو الآن، خائف مما قد يحدث. اعتراه توتر شديد، أما زويا، فكانت تنظر إليه بهدوء، لا خوف يعتريها ولا قلق. وجوده يشعرها بالأمان.

ـ أنا لا أريدكِ يا صغيرتي أن تفعلي شيئاً، قد تندمين عليه غداً... هل لديكِ عمل هذا الأسبوع؟

ـ لا... كل العروض معلقة.

ـ حسناً، هكذا يمكننا استغلال إجازتي هذه. أما الآن فعليَّ الرحيل... إنها الثالثة فجراً.

ـ وأين تقيم؟

ـ في الفندق المخصص للجنرال بيرشينغ... أيمكنني زيارتكِ غداً؟

ـ أتمنى ذلك.

ـ عند العاشرة سأكون هنا.

ـ إلى اللقاء عند العاشرة.

الفصل الحادي والعشرون

ـ لا شك أطلتِ السهر ليلة أمس يا صغيرتي؟ قالت الجدة وهي تتناول فطور الصباح، فيما زويا تقدم لها شرائح التفاح، وتحمّص بعض الخبز الذي جلبه كلايتون.

ـ لا يا جدتي... أجابت زويا وهي ترتشف الشاي وتأكل الشوكولا خلسة عن مرأى جدتها.

ـ ما تزالين طفلة يا ابنتي...

بعينين حزينتين، نظرت الجدة إلى حفيدتها. وبنظرات تعبر عن قلق ينتابها، إنها خائفة من أن تقدم الصغيرة على عمل طائش؛ لا تنكر أن كلايتون إنسان وسيم وواعٍ، لكنه ليس الأنسب. أمس حاول ڤلاديمير إقناعها، أن تعاود المحاولة بالتحدث مع زويا لكنها رفضت، فالجواب معروف سلفاً.

ـ بلغت الثامنة عشر يا جدتي.

ـ وماذا يعني هذا؟

ـ يعني أني لست بلهاء كما تعتقدين.

ـ لا... أنتِ فعلاً كذلك، وإلا كيف تقعين في حب رجل من عمر

والدكِ، رجل من بلاد غريبة. جندي في زمن الحرب، رجل سيأتي يوم إن عاجلاً أم آجلاً، وسيعود إلى بلاده، وتبقين أنتِ هنا... فكري بكل هذه، قبل القيام بأي عمل طائش.

ـ تأكدي... لن أقوم بأي عمل طائش.

ـ أتمنى ذلك، لكن لن يتزوجكِ...

ـ حتى أنا لا أفكر بالزواج به... كانت زويا تكذب. وهي تعرف. كما جدتها. أنها تكذب.

في الموعد المحدد، وصل كلايتون، جالباً معه باقة ورد وبيضاً طازجاً والخبز أيضاً.

ـ يبدو أن زياراتك ستسبب لي بالسمنة يا حضرة النقيب.

ـ «لا ضرر في ذلك سيدتي»، قال وهو ينحني ليقبّل وجنتها. ما رأيكِ لو ترافقيننا في نزهة إلى تويليريس؟

ـ ولماذا لا؟ وارتسمت على شفتيها ابتسامة، وأحست أن وجود كلايتون، ينعش حياتهما، ويدخل السعادة إلى شقتهما، إنه يغدق عليهما بالهدايا، فوق هذا، فهو يتمتع بروح مرحة. إنه يعاملها وكأنه ابن لها. وتابعت تقول «غير أني خائفة من ألا تساعدني ركبتاي... قد أصاب بالروماتيزم هذا الشتاء».

ـ إذن، هل تسمحين لزويا أن ترافقني؟

ـ أنت تطلب مني ذلك؟ فهذا لطف منك... ولكن، أعتقد أني لست قادرة على منع زويا من مرافقتك.

ضحك الإثنان فيما زويا، ذهبت والإبتسامة على شفتيها لترتدي

أجمل ما عندها من ثياب، لأول مرة، منذ شهور تفكر هكذا... هي تعرف أن لا خيارات أمامها بانتقاء أي ثوب ترتدي. كان هذا في الماضي... يوم كانت في سان بطرسبورغ، يوم كانت خزانتها ملأى بالثياب الفاخرة؛ بالثياب التي التهمتها النيران، ولولا ذلك لكانت جلبتها معها.

قبّلت زويا يد جدتها مودعة، وأمسكت يد كلايتون وخرجا إلى حيث كانت إحدى السيارات المخصصة لكبار قادة الجيش الأميركي في الخارج، متوقفة أمام مدخل البناية.

ـ إلى أين تحبين أن نذهب؟ أنا اليوم بخدمتكِ ورهن إشارتكِ. دعنا نذهب إلى فوبورغ سان هونوري... أريد إلقاء نظرة على هذا الشارع، وعلى ما تعرضه محلاته.

في الطريق أخبرته، كم كانت هي وماشكا، مولعتان بشراء الثياب، وعن أناقة العمة ألكسندرا «والدتي أيضاً كانت كذلك. ولكن لم تكن إنسانة سعيدة في يوم من الأيام... كانت بطبعها حزينة» كان من السخافة أن تخبره عن أشياء تعتبر من أسرار العائلة، وفي الوقت ذاته كانت تعتبر الأمر طبيعياً. تريده أن يشاركها في كل شيء، في تفكيرها، في أمانيها، في أحلامها، وحتى في ذكرياتها؛ هكذا يتعرف إليها عن كثب، هكذا يكون مطلعاً على كل شيء في حياتها. «أمي كانت عصبية المزاج، وجدتي كانت تعزو ذلك إلى تصرفات أبي الذي كان يفرط في تدليلها».

ـ لا شك كنتِ أنتِ أيضاً مدللة... ومن يدري قد تصبحين كوالديكِ؟

ضحكت ملء شدقيها، وهي تترجل من السيارة، للقيام بنزهة سيراً على الأقدام «نعم كنتُ كذلك... ولكني لست عصبية، ولن أكون».

تأبط ذراعها ومضيا معاً، تغمرها السعادة، ورنين ضحكاتها يشد مسامع المارة، أثناء الغداء في كافيه دي فلوريه، أحست أنها غير زويا الصيف الماضي. بدأت الأحزان تتلاشى، ولكن ما يزال من الصعب نسيان حياتها في سان بطرسبورغ.

ـ هل استلمتِ أية رسالة من ماري مؤخراً؟

ـ «نعم... وأخيراً، بعد طول انتظار وصلت رسالتها التي تخبرني فيها عن حياتهم في سيبيريا. إنهم يقيمون في منزل صغير، حتى أنها تشارك شقيقاتها غرفة النوم. العم نيقولا ما يزال يقرأ كتب التاريخ، وحتى في سيبيريا لم ينقطعوا عن تلقي الدروس. يعتقدون أنهم قد يتمكنون من مغادرة روسيا قريباً. ويقول العم نيقولا إن الثوار لن يتسببوا لهم بأي أذى، وإن وجودهم في سيبيريا، هو مؤقت... لكني حتى اليوم ما أزال أتساءل عن الأسباب التي دعت الإنكليز إلى عدم استقبالهم وإلا، لكنا الآن معاً إما في لندن أو هنا في باريس. وإني لعلى يقين أن جدتي ستذهب إلى لندن فيما إذا هم جاؤوا إليها».

ـ هذا يعني أننا ما كنا التقينا. لذا كان مجيئكم إلى باريس، وانتظار خروجهم من روسيا هو الأفضل.

لم يكن يرغب بإثارة قلقها. كان عنده إحساس ـ مجرد إحساس ـ أن الخطر يتهدد حياة القيصر وعائلته طالما هم في روسيا.

بعد الغداء، ذهبا إلى بوليفارد سان جرمان. كانا يسيران على غير هدى، بدون هدف محدد، المهم أن يكونا معاً، وهكذا

وجدا نفسيهما في شارع مارينيس، قريباً من المنزل الذي ينزل فيه.

ـ أترغبين أن نقصد المنزل لبعض الوقت؟

ـ ولما لا؟... فهي تحمل أطيب الذكريات عنه. في الطريق، حدثها عن نيويورك، عن طفولته وعن المنزل الذي عاش فيه، والذي يعتبره أفضل منزل في العالم.

ـ لماذا لم تنجب أولاداً من زوجتك؟ أما كنت تحب ذلك؟

ـ كنت أتمنى ذلك... ولكن زوجتي لم تكن ترغب... كانت إنسانة جميلة، أنانية، تمتلك مزرعة في فيرجينيا، تهتم بالخيول كثيراً... هل سبق لك وامتطيت الجياد؟

ـ نعم... أثناء الصيف في ليفاديا، وأحياناً في ستارسكوي سيلو. كنتُ في الرابعة حين علمني أخي امتطاء الخيول. وكان يصفني بالغبية، إن سقطت يوماً عن صهوة الجواد.

أوقف كلايتون السيارة أمام المنزل، وفتح الباب بمفتاحه الخاص، لم يكن هناك أحد في المنزل، فكل الجنرالات هم في شومونت. «هل ترغبين بالشاي؟» تساءل كلايتون وهما للتو يدخلان القاعة الرخامية.

ـ أتمنى ذلك.

رغم شروق الشمس ذاك اليوم كان الطقس بارداً. كانت زويا نسيت قفازيها في الشقة. وفجأة تذكرت أنها تركت قبعتها الفاخرة في سان بطرسبورغ.

أمضيا ساعات طويلة يتجاذبان أطراف الحديث حتى قاربت الشمس على الغروب.

- والآن عليّ إعادتكِ إلى المنزل... وإلا ستغضب جدتكِ.

لكن زويا كانت ترغب بالبقاء إلى جانبه ولا تريد إضاعة حتى دقيقة واحدة من هذه الأيام الأربعة.

- لا تخف... أخبرتها ألا تنتظرني للعشاء لأني قد أتأخر... ما رأيك لو أعد طعام العشاء... هل لديك هنا ما يمكن إعداده.

- لا أدري... قد نذهب إلى أي مطعم. ربما إلى مكسيم، أما أحببته؟

- لا فرق عندي. بصدق قالت هذا. كل همها أن تبقى معه.

- آه زويا... أعتقد أنه علينا الذهاب إلى أي مكان. لم يكن راغباً بالبقاء معها في المنزل، مخافة أن يحدث ما لا تحمد عقباه.

- ولماذا؟ وهل هذا يزعج الجنرال بيرشينغ؟

حدق بها، فرأى براءة الطفولة في عينيها وعلى محياها.

- لا يا صغيرتي... ولكن أرى أنه من الأفضل ألا نبقى وحدنا هنا، أنتِ جد جميلة، جد جذابة مما يجعلني لا أثق بنفسي. أنتِ جد محظوظة، لأني لم أضمكِ إلى صدري وأعريكِ من ثيابكِ.

- أهذا ما تخطط له يا حضرة النقيب؟

- لا... ولكن أحب أن أفعل ذلك.

تقدم منها ولاعب شعرها المنسدل على كتفيها دون أن تبدي أي اعتراض.

- هذا ما أحبه... أن نذهب إلى جنوب فرنسا، بعد انتهاء الحرب طبعاً، إلى إيطاليا، هل سبق لكِ وذهبتِ إلى هناك؟

رفعت رأسها علامة النفي وأغمضت عينيها وكأنها تريد أن تبقى تحيا في حلم وجوده معها.

- علينا الذهاب.. دقائق لأبدل ثيابي وأعود.

استغلت زويا هذه الفرصة لتتجول في المنزل وفي غرفه الفخمة المتعددة. أحبت المخاطرة، وصعدت على الدرج الرخامي نحو الطابق الثاني؛ حيث غرف جلوس كثيرة، ومكتبة ملأى بالكتب الفرنسية والإنكليزية، إضافة إلى غرف كثيرة مغلقة... سمعت صوته يدندن أغنية وهو يستحم...

- هالو... صاحت زويا. لكنه لم يسمع نداءها بسبب صوت تساقط المياه في غرفة الإستحمام، المفاجأة كانت بعد عودته إلى غرفة النوم إذ وجدها بانتظاره، ودون أن تأبه لوجوده أمامها عاري الصدر.

- ماذا تفعلين هنا؟

- أحسست بالوحدة وأنا في الطابق السفلي.

حدقت به، فوجدت نفسها منجذبة إليه، ودون وعي، تقدمت منه، فأخذها بين ذراعيه، شدها إلى صدره، قبل وجنتيها وشفتيها متذوقاً طعم بشرة جسدها الغض.

- إنزلي إلى الطابق السفلي يا زويا... أرجوكِ..

- لن أفعل.

- أرجوكِ زويا... لكنه عاد وقبلها، أحس بقلبه يكاد ينفجر لازدياد عدد دقاته «أرجوكِ... إذهبي ولا تعودي إلى هنا ثانية».

عبثاً حاول إبعادها عنه، فلم تتزحزح من مكانها. «ليس بمقدوري

ضبط نفسي أكثر من ذلك يا صغيرتي... فأرجوكِ إنزلي إلى الطابق الأول وإلا لن أغفر لنفسي... إذا؟».

ـ إذا ماذا؟ إذا مارست الحب معي؟ ما هو السوء في ذلك يا كلايتون... فلا مستقبل لي... أنا أفكر بهذه اللحظة. ليس هناك من يوم آخر سيأتي... أحبك.. أحبك» مأساة خروجها من روسيا، جعلتها لا تفكر بالمستقبل، فلطالما حلمت به وهي تتكيء إلى جانب ماشكا على نافذة غرفة نوم هذه الأخيرة. كانت عيناها تقولان إنها لا تخاف شيئاً. وإنها تحبه.

ـ أنتِ لا تدرين ماذا تفعلين يا زويا... لا أحب أن أكون سبب أذيتكِ.

ـ لن تسبب لي أي أذى.. أنا أحبك بجنون... وأنت لن تؤذيني أبداً.

لم يستطع كلايتون إيجاد كلمة تقنع زويا، بخطورة ما تفعله؛ ولم يعد قادراً على تمالك نفسه، فوجد يديه تعريها من ثيابها قطعة بعد قطعة وشفتاه تتنقلان بين الوجنتين والعنق والشفتين فحملها على ذراعيه ووضعها على السرير؛ عاريان تمددا جنباً إلى جنب. منذ زمن لم يمارس كلايتون الحب مع امرأة. وها هو الآن مع صبية في مقتبل العمر. ينظر إلى جسدها العاري، ونار الشهوة تلتهب في جسده.

ـ ماذا تشعرين يا زويا... أولستِ نادمة.

ـ نادمة؟ أتعرف يا كلايتون، أنت الآن، تمنحني الحياة. أنظر في عيني... ماذا ترى؟ أترى حزناً أم فرحاً؟

ـ زويا، أعود وأكرر السؤال هل أنتِ نادمة أيتها الفتاة المجنونة؟

ـ لو كنت نادمة لما كنت أرغب بالمزيد... إبقَ إلى جانبي. هكذا عاري الجسد، كما أنا، أنظر إلى جسدي، أما يثير شهوتك؟

قارب الليل أن ينتصف وهما ما يزالان في السرير معاً.

ـ عليّ إعادتكِ إلى المنزل، وإلا ستقتلني جدتكِ.

ـ لا عليك فلن تفعل هذا أبداً.

الفصل الثاني والعشرون

صباح اليوم التالي، جاء كلايتون ، وجلب معه اللحم والخبز والفاكهة ونوعين من الجبنة. قبّل زويا على خدها، وانحنى وقبّل يد الكونتيسة العجوز التي لاحظت، أن الذي يربط بين هذين الأحمقين، قد يكون تعدى حدو العلاقات البريئة، فانتابتها الهواجس.

نعم، إنه رجل وسيم وسخي ولا شك يحب زويا، لكنه هنا، في مهمة عسكرية، ومن يدري، قد يصبح يوماً ما، معاقاً، أو يدرج إسمه على لائحة شهداء الوطن؟... إنها الحرب. وماذا يكون مصير هذه الصغيرة؟ في الوقت ذاته. كانت تدرك، كل الإدراك، أنها عاجزة عن كبح جماح حفيدتها واندفاعها نحوه.

أصر كلايتون على اصطحاب إيفيجينيا في نزهة. فهي نادراً جداً، ما تخرج من بين هذه الجدران وهموم الحياة، إضافة إلى آثار الحرب، قد تدمرها. إنه محق... فالسيدة العجوز، ما تزال تستمد قوتها، من رغبتها في الإستمرار برعاية الصغيرة التي أفقدتها الثورة، كل من كانت تحب، وقضت على أحلامها.

لم يكتفِ كلايتون بدعوتها إلى التنزه وحسب، بل وإلى تناول الغداء في أحد مطاعم باريس الفاخرة، حيث استعادت العجوز، ذكريات

سان بطرسبورغ وستارسكوي سيلو. منذ زمن لم تتناول الطعام في طبق من البورسلين الصيني، ولا بملعقة فضية، لاحظ كلايتون أن العجوز تحاول حبس الدموع في عينيها. إنها إنسانة جبارة، لكنها أصبحت شبه عاجزة. مما اضطره إلى مساعدتها في تسلق الدرج الصغير الذي يوصل إلى الشقة حيث تقيم.

بعد الظهر. عاد كلايتون واصطحب زويا في نزهة كما ادعى. لكنه اصطحبها إلى مقر إقامة الجنرال بيرشينغ. حيث مارسا الحب أمس، وليمارساه من جديد، دون خوف من أن تصبح زويا حاملاً.

فعلاً إنها فتاة مجنونة، إن أرادت شيئاً، لا أحد يتمكن من ثنيها عنه. وماذا ستخسر أكثر مما خسرت، فقدت الأب والأم والشقيق، فقدت الصديقة الأغلى والأحب، فقدت كل شيء. حتى طفولتها، تحولت إلى ذكرى تبكي ولا تفرح.

صبيحة اليوم الثالث من الإجازة، تأخر كلايتون بالقدوم إليهما بعض الشيء. إنها الحادية عشرة ولم يأتِ بعد... القلق ينتاب زويا، ولا وسيلة اتصال به. لكنه، وعند الحادية عشرة والنصف وصل ومعه هدية كبيرة الحجم، وضعها على الطاولة في المطبخ. كلتاهما تساءلتا، عما يوجد داخل هذا الصندوق الملفوف بورق فضي. جاءت إيفيجينيا إلى المطبخ لتراقب حفيدتها وهي تنزع الورق. ويا للمفاجأة... سماور روسي مصنوع من الفضة الخالص ومحفور عليه إسم العائلة التي كانت تقتنيه لكنها اضطرت إلى بيعه بثمن بخس، لتؤمن ثمن الخبز وبعض اللحم المجلد وليس الطازج كالذي يجلبه كلايتون.

ـ أنت كريم جداً يا كلايتون، قالت العجوز والدموع تنهمر على

خديها وتقدمت منه وقبلته، فأحست بنعومة بشرة وجهه وتذكرت إبنها قسطنطين، وتأكد لها أن لا أحد يحق له توجيه الملامة لزويا. أما هدية زويا، فكانت فستاناً حريرياً أبيض، من تصميم مصممة أزياء بدأت تشق طريق الشهرة. تذكرت تلك الفساتين التي كان والدها يشتريها لها وكيف التهمتها ألسنة اللهب.

ـ أحبك كلايتون... هكذا بكل صراحة ووضوح على مسمع من الجدة. لقد سبق لها وعبّرت عن حبها كثيراً، وهي عارية إلى جانبه فوق السرير، أو حين كان أمس، وأول من أمس، فوقها وهما يمارسان الحب.

ابتسمت الجدة لما سمعت. وماذا بمقدورها أن تفعل، سوى مشاركة حفيدتها فرحها، وقلقها الذي كاد يقتلها في اليوم الرابع من الإجازة؛ في اليوم الذي على كلايتون العودة، إلى هناك، إلى شومونت حيث الحرب مستمرة، حيث قدره، إما أن يكون قاتلاً أو مقتولاً..

حتى العجوز بكت وهي تودعه؛ وتذكرت من سبق لها وودعت، لكنها تمنت أن يكون هذا الوداع مختلفاً عن غيره.

ـ إعتنِ بنفسك أيها النقيب، سنصلي من أجلك... قالت الكونتيسة العجوز وتظاهرت بالتعب، لتدخل غرفة النوم، ليبقيا معاً.

كلاهما كان يبكي... وكلاهما خائف على الآخر.

ـ أحبكِ بجنون يا صغيرتي... أرجوكِ إعتني بنفسك.

وماذا بمقدورها أن تفعل وخطر الغارات الجوية يتهدد كل الباريسين. وكذلك الجوع والفقر والعوز؟

ـ سأعود إليكِ كلما سنحت لي الفرصة ولو لساعة واحدة.

ـ إقسم أنك ستعود... أنا بحاجة إليك.

ـ وأنتِ اقسمي لي أنكِ لن تندمي على ما فعلناه.

ـ أندم؟... بودي لو لديك الوقت لأعود وأمارس الحب معك.

وبدون خوف من عودة جدتها، ضمته إلى صدرها وقبلته على شفتيه قبل أن ينصرف ويلوح بيده مودعاً.

الفصل الثالث والعشرون

لم يتمكن كلايتون من الوفاء بوعده. إنه غير قادر على المجيء إليها، وحتى على الكتابة... إنها الحرب.

مع بداية شهر آذار، كان الألمان يضيقون الحصار على باريس ويستعدون لاقتحامها. القصف يطال كل مكان حتى دور العبادة، وهكذا امتزج الخوف مع الفقر والعوز والجوع. كل من في باريس صار خائفاً، ولهذا رفضت زويا السفر مع الفرقة الروسية للباليه إلى إسبانيا وترك جدتها وحيدة هنا. ولكن ما العمل. كل العروض للفرقة التي كانت تعمل فيها: قد أُجلت أو أُلغيت. الخوف مزروع في كل النفوس.

الكل يرحل باتجاه ليون... رفضت الجدة هذه الفكرة، طالبة من حفيدتها أن تدعها تموت حيث هي؛ أوليس أفضل من تمضية ما تبقى لها من سنوات في ترحال دائم هرباً من قدر محتوم. حتى الحكومة الفرنسية، قررت الإنتقال إلى بوردو، وأعلن فيشي أنه سيدافع عن العاصمة حتى آخر رجل. ومن بناية إلى بناية، ومن سطح إلى سطح. على جبهة المارن، حيث كلايتون. تراجع الحلفاء أمام اشتداد الضغط الألماني، ولا علم ولا خبر عن الذي أحبته حباً دفعها أن تمنحه جسدها وعذريتها. فقد وصلت رسالة من ماري تخبرها فيها أنهم نقلوا من سيبيريا إلى إيكاترينبيرغ في جبال الأورال حيث الحياة صعبة جداً،

ممنوع عليهم إقفال الأبواب، حتى في لحظات تغيير الملابس، فالحراس يرافقون، أفراد العائلة إلى المراحيض. مسكينة تاتيانا، إنها جد خجولة.

«دائماً تطلب منا الماما إعلاء الصوت حين نرتل الأناشيد الدينية، فالجنود ينشدون الأغاني الثورية، أما أبي فيطلب منا عدم القيام بأي شيء قد يستفزهم فيقدمون على قتلنا جميعًا أمضي وقتي بكتابة القصائد التي سأتلوها على مسمعكِ، حين نعود ونلتقي. أتعرفين؟ بلغنا التاسعة عشر، لقد كبرنا يا زويا، هذا ما أعتقد، ولكن، ما نزال في مقتبل العمر. فحرام أن نموت الآن. ليس بإمكاني البوح عن مشاعري هذه، إلا لكِ يا ابنة عمي الغالية. كلنا هنا مشتاقون لكِ، وللجدة. ونتمنى أن تكوني سعيدة في باريس، وتشعرين بالأمان. لم توقع رسالتها بالتوقيع المتعارف عليه أي أوتما،بل بـ «المحبة ماشكا».

اختلت زويا بنفسها، وهي تقرأ الرسالة، والدموع، لا تبلل خديها وحسب، بل وحتى الرسالة، التي تقبلها حيناً، وتعود لقراءتها حيناً آخر، والألم يعتصرها والقلق ينتابها، وعلى شفتيها ألف سؤال صامت «هل سنعود ونلتقي؟ يبدو أن لا أمل في ذلك».

الحال من سيء إلى أسوأ، لا نزيل جديداً، ومن أين يأتي هذا النزيل، والناس ترحل جنوباً. حتى اللاجئون الروس، رحلوا عن باريس الجائعة، الغارقة بالفقر والعوز، المسكونة بالخوف.

قارب تموز أن ينتصف. الحر يجتاح المدينة، وكذلك الجوع. الأمير ڤلاديمير وابنته يلينا، يلتقطان الحمام السارح في الحدائق العامة. ليسدا جوعهما. ترى ما الذي حل بهؤلاء الروس، الأمراء منهم والعاديون؟ هربوا من الخوف، وها هو الخوف يستقبلهم في باريس، تركوا الموائد

العامرة. والعربات الفخمة التي تجرها الخيول. وجاؤا إلى هنا، ليكونوا سائقي سيارات أجرة، ويبحثون، في كل مكان، عن لقمة عيش.

لم تكن زويا، أفضل حالاً، من غيرها. بعيد ظهر الثالث عشر من تموز، الخوف ينتابها، والقلق يسيطر عليها. قلق على كل شيء على العائلة في جبال الأورال، وعلى كلايتون في شومونت. ووسط العتمتين، عتمة الليل، وعتمة الذات، أطل وجه كلايتون. فتحول الليل نهاراً، وانجلى الهم عن نفس زويا وزال القلق. جاء لثلاثة أيام فقط. في اليوم التالي، ذكرى سقوط الباستيل كانا معاً يشاهدان العرض العسكري الذي يقام سنوياً، إحتفالاً بهذه المناسبة. إلى جانب فرق من الجيش الفرنسي، كانت هناك فرق عسكرية بريطانية وفرقة عسكرية من الروس البيض المناهضين للثورة والجند يرتدون ثوب الجنود القوزاق، وعلى رؤوسهم قبعات الفرو.

المشاهدون للعرض بالآلاف، وزويا لم تكن ترى سوى كلايتون، وتنتظر إنتهاء هذا الإحتفال بفارغ الصبر، ليذهبا معاً إلى مقر قيادة الجنرال بيرشينغ ويمارسا الحب، حتى ولو أشرقت صباح اليوم التالي، وهما في السرير عاريان.لكن ذلك لم يحدث إذ أبلغ كلايتون ضرورة الإلتحاق بمقر قيادة الشرطة العسكرية الأميركية في باريس، الألمان، صاروا على بعد خمسين كيلومتراً من العاصمة الفرنسية، يستعدون لاقتحامها، هكذا، لم يجد أمامه متسعاً من الوقت لإعادة زويا إلى الشقة لكنه لم يتخل عنها وأوصلها.

أمضت الليل زويا، لا تكاد تمسح دمعة، حتى تنهمر أخرى. حاولت الجدة تهدئة خواطرها، أعدت لها الشاي وجلست إلى جانبها تخفف عنها، ولكن، وبعد مجيء ڤلاديمير،حاملاً عدداً من أعداد جريدة

الإزفستيا، والدمع في عينيه «لقد قتلوه... قتلوه.. يا إلهي.. قتلوه».

ـ ما الذي تقوله يا سمو الأمير؟ قالت ايفيجينيا.

ـ ما سمعته... يا سيدتي الكونتيسة «أما عائلته فقد رُحّلت إلى مكان آخر أكثر أمنا».

ـ وأين هم الآن... صاحت زويا. أين حبيبتي ماشكا؟ أخذت الجريدة من يده، وهو يقول «رحمك الله يا سيدي» وراحت تقرأ، وتقرأ. كل ما هو مكتوب، ترى من التي ستمسح دموع الأخرى؟

الفصل الرابع والعشرون

لم يكن تموز سوى كابوس. موت القيصر، أبكى جميع الروس، حتى الفلاحون الذين قامت الثورة بإسمهم، بكوا القيصر. الحرب في كل مكان.

زويا عزلت نفسها عن العالم، رفضت طلب دياغيليف مرافقة الفرقة إلى لندن، لئلا تبقى جدتها وحيدة مع أحزانها وخوفها وجوعها. كذلك رفضت دعوة إحدى زميلاتها، أولغا كوخلوفا، لحضور حفل زفافها على الرسام الإسباني بابلو بيكاسو في كنيسة القديس الكسندر نيفسكي. لم تكن قادرة على فعل شيء، سوى إعداد الطعام وتناوله ومساعدة جدتها.

انسحبت أحزان تموز على آب، أما في بداية شهر أيلول، تمكن الحلفاء، ليس من وقف الزحف الألماني، بل والتقدم أيضاً، وإجبار الألمان على طلب المفاوضات[1] لإنهاء الحرب، وإحلال السلام. ولكن أين كلايتون؟ لا علم ولا خبر. ولم تكن راغبة بالكتابة إليه، أو التفكير به... إنه الخوف يدفعها إلى ذلك، يكفي أنها، منذ شهرين، تلقت خبر

1 ـ الحقيقة أن الحرب العالمية الأولى انتهت بموجب إتفاقية فرساي التي وقعت بتاريخ الثامن والعشرين من شهر حزيران 1919 وأصبحت نافذة بتاريخ العاشر من كانون الثاني عام 1920, بعد مصادقة مجلس النواب الألماني عليها. المترجم.

وفاة نيقولا،... ماذا لو كان مصير كلايتون كمصيره؟ كل ما فعلته، كتبت ثلاث رسائل لماري، دون أن تلقى جواباً. لم تتعجب لذلك، فقد يكون الدكتور بوتكين، لم يتمكن من الوصول إليها، حيث هي الآن؟

مرّ تشرين الأول دون رسالة من ماري، ودون عودة كلايتون، لكن تشرين الثاني جاء وجلب السلام معه. خرج الناس إلى الشوارع منشدين الأغاني الوطنية، قرعت أجراس الكنائس فرحاً وابتهاجاً. العالم كله يحتفل بانتهاء الحرب.

سكبت زويا الشاي لجدتها، واتجهت لتقف قرب النافذة لتراقب الإحتفالات في الشوارع. جنود الحلفاء في كل مكان، أميركيون، بريطانيون، فرنسيون وإيطاليون، إنما هناك شخص واحد لم تره. تُرى هل ما يزال حياً؟

ـ «أعتقد أن الحال ستتحسن يا صغيرتي». قالت الكونتيسة بصوت متقطع بسبب السعال الذي يأتيها من حين لآخر؛ وبالوقت ذاته، كانت تعرف، ما الذي يشغل بال حفيدتها، إنه كلايتون الذي غادر منتصف ليل ذكرى سقوط الباستيل، ولم يعد «تأكدي يا صغيرتي، سيعود إليكِ، كوني على ثقة من ذلك».

ـ كيف تقولين ذلك؟ كثيرون ذهبوا... ذهبوا.

ـ لا تكملي... فالحياة ستستمر، الناس يولدون ويموتون، ومن ثم يولد أناس جدد. الأحزان هي سبب آلامنا، نحن الآن نتألم بينما نيقولا ينعم بالسلام في جنة الخالق.

ـ حسناً... العم نيقولا يرقد بسلام، والآخرون؟ كتبت لماري خمس رسائل، وحتى الآن لم أستلم جواباً.

ـ دعينا نصلي من أجلهم. وهل باستطاعتنا أكثر من هذا؟

كان من الصعب، خلال الأيام التي تلت إتفاق الهدنة، أن يتجول أحد في الشوارع، بسبب الجماهير التي تعبر عن الفرح، غير أن ما في المنزل من مواد تموينية كاد أن ينفذ، فا ضطرت للخروج وشراء ما هما بحاجة ماسة إليه، وبما تبقى معها من مال قد أدخرته.

ـ هل لي أن أساعدكِ يا آنسة؟

وأحست أن يداً تمتد لتأخذ ما تحمله، فاستدارت بغضب قاتل، حتى أنها كانت على استعداد للقتل في سبيل بعض الخبز الذي اشترته. تجمدت مكانها، رمت كل ما تحمله أرضاً وأخذت من خاطبها بين ذراعيها وراحت تقبله أمام آلاف المارة، غير مبالية بما سمعت من تعليقات.

ـ يا إلهي... يا إلهي... هذا أنت؟ ما تزال حياً؟... شكراً لله. كلايتون...

كان يرتدي بذته الرسمية. غير حليق الذقن. لم يكن لديه وقت لفعل ذلك. أحب رؤيتها فور وصوله، قصد الشقة فلم يجدها، فخرج يبحث عنها في الشوارع.

مرت الأسابيع التالية، شبه رتيبة ومملة. لم يتمكنا من ممارسة الحب، إلا مرة واحدة، وفي الغرفة التي كان يسكنها أنطوان، بعد أن تأكدا من نوم الجدة. لم يكن كلايتون يقيم وحده،بل يشارك العديد من زملائه الإقامة في فندق قريب من مقر قيادة الجنرال بيرشينغ. كذلك، كان يشارك زويا مخاوفها حول مصير عائلة القيصر دون أن يفصح عن مخاوفه بل يحاول أن يزرع الأمل في حياتها.

ـ قد يكون الدكتور بوتكين غير قادر على إيصال الرسائل... من يدري يا صغيرتي... ما عليكِ إلا التحلي بالصبر.

ـ تتكلم كجدتي تماماً.

ـ قد يكون ذلك.

منذ أن عاد كلايتون، لاحظ أن صحة الجدة تتدهور يوماً، بعد يوم، قد اجتمعت عوامل عدة، أدت إلى ذلك: التقدم في العمر، الشعور في الغربة، الحزن، الأسى، الخوف، الجوع، الفقر والعوز، ولولا مساعدة كلايتون، لكانت حياة تلك الشقة الصغيرة المتواضعة جداً، أسوأ بكثير مما هي عليه الآن... قبل سنتين، كانت إيفيجينيا سيدة مطاعة، هي تأمر والآخرون ينفذون، في حين أنها اليوم، تبحث عن لقمة عيش، عن فسحة أمل، عن خبر عن العائلة التي تركتها في الوطن الأم. وفي الوقت ذاته لاحظ تغيراً في حياة زويا. نحل جسدها، وشحب وجهها، ودخل اليأس إلى نفسيتها؛ وأدرك أن وجوده يمنحها أملاً في الحياة، هو يحبها وهي تحبه، ولكن هناك فارقاً كبيراً في العمر. كثيراً ما كان يلوم نفسه لمعاملته لها، إنه السبب في حبها له.

يوم العاشر من كانون الأول، وبعد شهر من سكوت المدافع، وجد كلايتون نفسه أمام أمر كان يتوقعه، غير أنه، كان يحاول ألا يفكر به؛ حتى لا ينقطع حبل سعادته وسعادة زويا. عليه العودة إلى الولايات المتحدة الأميركية.

ـ ومتى سيكون ذلك؟ تساءلت زويا وهي لا تصدق ما تسمع. كانت تنتظر مثل هذه اللحظة، إنما لم تكن تتوقع أن تأتي الآن، بل بعد شهور، أو لربما سنة.

ـ بعد يومين.

ـ هكذا؟ بهذه السرعة؟ وهل ستعود إلى باريس؟ إنها الآن أمام وداع جديد.

ـ لست أدري.

ـ «يبدو أن هناك أشياء لم تخبرني عنها». كانت تعتقد أنه ربما يكون متزوجاً وأولاده ينتظرونه في نيويورك. سبق للحياة وخدعتها، إنما خديعة كلايتون لا تغتفر، إنها الأشد إيلاماً.

ـ زويا، إن ما سأقوله قد لا يروق لكِ، ولكن لا بد من قوله... لكل شيء نهاية... الآن إنتِ حرة في التصرف بحياتكِ، فكرت، بأن نسافر معاً إلى نيويورك... إنما هل جدتكِ قادرة على تحمل مشاق هذه الرحلة؟... زويا... أنا أكبر منكِ سناً... لقد سبق وأوضحت لكِ ذلك، وهذا ما يحول دون استمرار حياتنا معاً... بعد سنوات، تكونين أنتِ في الثلاثين من العمر. أما أنا فأكون في الستين، أعني أنكِ أنتِ تكونين على أبواب الحياة. بينما أكون أخطو أولى خطوات الخروج منها.

ـ كن واضحاً وصريحاً، قل إنك لا تحبني، وإن ما قلته، كان كذباً بكذب، وقوفك إلى جانبي، لم يكن سوى استغلال لمأساتنا وليس تعبيراً عن شعور صادق وعن إحساس بالحب.

ـ أكون كاذباً إن قلت لا أحبكِ. غير أني، مجبر على اتخاذ قرار عقلاني وليس عاطفياً. أنتِ جئتِ إلى هنا بظروف غير اعتيادية. لم تسمح لكِ، بالتعرف على إنسان مناسب لكِ. إنما الآن، ها هي الحرب انتهت، والحياة تعود إلى ما سبق وكانت عليه، وستلتقين الإنسان المناسب. أنا لست أنانياً أبداً... صدقيني، أفعل ذلك من أجلكِ أنتِ وليس من أجلي أنا.

– إذن... تمكنت من اللعب بمشاعري، استغليت وضعي. أحببت أن تجد لعبة تتسلى بها خلال وجودك هنا، فكنت أنا.

تمنى لو يصفعها، كيف تقول هذا؟ إنه أبعد ما يكون عن الحقيقة.

– إسمعيني زويا. ما تقولينه منافٍ للحقيقة ولمشاعري... أنا فعلاً أحبكِ وأعبدكِ حتى. إفهميني أنا أكبر منكِ سناً بكثير، عمري يضاعف عمركِ ويزيد... أنا في السادسة والأربعين، وأنتِ في التاسعةعشر... أنتِ تستحقين من هو أفضل مني.

– الآن جئت تقول هذا؟ الآن جئت تقول لي إبحثي عن الرجل الذي يمنحكِ سعادة كالتي عشتها معك. أمضيت، نصف فترة هذه الحرب، وأنا أنتظر عودتك سالماً معافى، أمضيتها خائفة عليك كخوفي على من تركتهم في روسيا، لا بل أكثر. الآن، بكل بساطة، وبدم بارد، جئت تقول «أنا عائد إلى نيويورك».

– لا... ليس الأمر كذلك. أنا أحبك...

حاول أن يقف قبالتها وجهاً لوجه، لكنها اتجهت نحو الباب وفتحته وهي تصرخ بوجهه «أخرج ... الآن... الآن، لماذا الإنتظار يومين... دعنا ننهي كل شيء الآن... أخرج».

– أرغب بوداع الجدة.

– إنها نائمة، وأشك أنها ترغب بوداعك، فهي ما أحبتك يوماً، إنما كانت تستقبلك إكراماً لي ليس أكثر.

– زويا أرجوكِ...

كان يتمنى لو يأخذها بين ذراعيه، لكنه تراجع، وإلا يكون إنساناً

أنانياً قذراً. من الأفضل أن تنتهي هذه العلاقة الآن. تمنى لو يموت قبل أن تغلق الباب خلفه. فعلاً إنه يحبها، لكنه يعتقد أن ما يفعله هو الصواب، غير مقدر للألم الذي ستشعر به منذ الآن، ومن يدري إلى متى. مهما يكن، فهذه اللحظة ستأتي فيما بعد، وسيكون الألم أشد وأقسى.

قبل سفره بيوم، ذهب إلى المصرف وسحب خمسة آلاف دولار وضعها في ظرف مع رسالة موجهة إلى جدتها، يرجوها فيها قبول هذا المبلغ من صديق أحب حفيدتها حتى الجنون.

«إن ما أفعله هو لمصلحتها، وأعرف أنك يا سيدتي مقتنعة بما أقول، أنا أكبر منها سناً، وسرعان ما ستنساني وتقع في حب جديد، أنا متأكد من ذلك... إني أستودعكما الله، وثقي يا سيدتي الكونتيسة أني أحببتكما حباً أعجز عن وصفه. صدقيني أن قلبي يكاد ينشطر... لن أنساكما ما دمت حياً، وما دمتما أحياء... وسأكون خير صديق».

وقّع الرسالة وأرسلها مع أحد مساعديه ولم يغادر باريس إلا بعد أن تأكد من وصولها للجدة، يداً بيد.

غادر كلايتون، صبيحة وصول السيدة ويلسون إلى باريس لحضور الإستعراض العسكري. كل هذا لم يعد يعني له شيئاً. إنه مغادر والدمع في عينيه. وزويا في قلبه.

الفصل الخامس والعشرون

بعد أسابيع على مغادرة كلايتون، كانت زويا وحيدة في الغرفة التي كان أنطوان يقيم فيها، تكفكف دموعها، غير مبالية بالحياة وأمورها، حتى الجوع لم يعد يعني لها شيئاً؛ كل همها إعداد الطعام لجدتها، إنما المفاجأة الكبرى تمثلت في أن لدى جدتها الكثير من المال، ادعت أنها وفرته مما كانت تتقاضاه زويا، وها هو الوقت المناسب لإنفاقه. كل هذا لا معنى له. إن فراق كلايتون يكاد يقضي عليها.

حالة اليأس هذه، مع وجود مال يؤمن مستلزمات حياة جدتها، جعلتها ترفض دعوة دياغيليف للعمل مجدداً في الفرقة الروسية للباليه، إنها ترفض كل شيء، الطعام، الخروج من الشقة، التحدث إلى الأصدقا، وترفض صداقات الرجال خاصة. كان غبياً حين قال لها إنها بحاجة لمن هو أصغر منه سناً؛ فهي ليست بحاجة لأحد، مهما كان عمره، فقط هي بحاجة لطبيب يداوي آلام جدتها التي تتفاقم يوماً بعد يوم، خاصة منذ ليلة الميلاد؛ كانت متعبة جداً وأصرت على حضور قداس منتصف الليل، ليس هناك سوى الأمير ڤلاديمير لجلب الطبيب.

كان الطبيب رجلاً عجوزاً، يتكلم الروسية بطلاقة، وهذا ما أفرح الكونتيسة.

ـ إنها مريضة جداً يا آنسة إلى درجة أنها على فراش الموت، وقد لا تبزغ شمس الغد..

أدركت زويا أن عليها توقُّع ما لم تكن تفكر فيه حتى اليوم، أن تودع جدتها لتبقى وحيدة، تصارع الحياة، إلى جانبها عاد ڤلاديمير ووقف، بعد أن ودع الطبيب، مبدياً استعداده للبقاء معها. لم يكن عند زويا أي شك في صدقه، خاصة وأنه الآن يعيش مع صديقة ابنته. شكرت له اهتمامه، ودخلت إلى غرفة نوم الجدة، التي بدت أنها تصارع الموت فعلاً، جلست إلى كرسي جانب السرير «هذه أنا يا جدتي... أرجوكِ لا تتكلمي... غداً تكونين بخير».

ـ عليكِ يا زويا...

ـ أرجوكِ جدتي... لا تتعبي نفسكِ بالكلام.

غير أن المرأة العجوز، كان عندها الكثير لتقوله، قبل رحيلها.

ـ عليكِ شكر ذاك الأميركي... أبلغيه أني جد ممتنه له... وأني كنت سأعيد له...

ـ أشكره؟...

ولماذا عليها شكره؟ ألأنه تلاعب بعواطفها ومشاعرها؟ أم لأنه تخلى عنها وعاد إلى نيويورك؟

لكن إيفيجينيا، كانت تدل بيدها إلى الطاولة الصغيرة في زاوية الغرفة.

ـ أنظري... في وشاحي الأحمر.

فعلت زويا ما طلبت الجدة منها، فإذ به ثروة كبيرة. خمسة آلاف دولار أميركي.

ـ «رباه... جدتي.. متى أعطاكِ هذا المبلغ؟ وبالوقت ذاته تسائل نفسها ولماذا فعل هذا؟».

ـ قبل مغادرته بساعات... أرسله مع أحد مساعديه... كنت سأعيده له، ولكن فكرت كثيراً... أنت الآن بحاجة إلى مثل هذا المبلغ، وسنعيده حين نتمكن من ذلك.

ـ إرتاحي جدتي.. أرجوكِ إرتاحي.

احتارت زويا بما تفكر؟ بجدتها، أم بما قدمه كلايتون؟ وانتابها نوع من الغضب؛ فهي لا تريد إحساناً من أحد، ولا ثمناً لممارسة الحب معه، إن الذي فعلته كان تعبيراً عن أحاسيس، عن مشاعر، عن حب، لكن المفاجأة الثانية كانت حين ناولتها جدتها بيد مرتجفة وشاحاً آخر «نيقولا...» لم تعد قادرة على الكلام، غير أن زويا، عرفت أنه الوشاح الذي قدمه لها القيصر لحظة الوداع.

ـ حافظي عليه، وعلى ما فيه... يمكنكِ بيعه ساعة لا بد من فعل ذلك... إنه آخر ما تبقى يا ابنتي.

ـ علبة سجائر أبي وهدايا نيقولاي؟

ـ بعتها منذ عام... لم يكن أمامي أي خيار آخر.

على سريرها، فتحت زويا الوشاح لتفاجأ أن جدتها كانت تخبيء فيها إحدى هدايا القيصر لزويا بمناسبة عيد الفصح، يومها كانت زويا ما تزال في السابعة من العمر. إنها بيضة عيد الفصح المصنوعة يدوياً من قبل فابيرغ، وهي عبارة عن بيضة مصنوعة من معدن المينا البنفسجي اللون، المزنرة بشريط من الألماس، تفتح فتبدو أوزة من الذهب الخالص

تسبح على بحيرة من الزبرجد، وإن لمستها يد، تفتح الأوزة جناحيها وتبدأ بالمسير فوق الزبرجد.

ـ احتفظي بها يا ابنتي... إنها تساوي ثروة.

أعادت زويا لف البيضة بالوشاح وأعادته إلى مكانه، في جارور طاولتها الصغيرة.

ـ جدتي... أرجوكِ لا تتركيني وحيدة.

ـ كوني فتاة عاقلة... لطالما كنت فخورة بكِ.

أيقنت زويا، أنها أمام قدر محتوم، لا مفر منه، ولكن، كيف بمقدورها مواجهته؟ من يقف إلى جانبها بعد الآن؟ ومن أجل من ستعمل؟ وإن عادت ليلاً، فمن سيكون في انتظارها؟

عبثاً رجت زويا، جدتها، ألا ترحل وتتركها وحيدة.

دخل ڤلاديمير، لكن زويا لم تنتبه لدخوله. كانت غارقة في دموعها تنادي جدتها.

ـ لا جدوى من كل هذا يا زويا قسطنطينوفا... إيڤيجينيا بيتيروفنا أوسيبوف...

لم يتمكن ڤلاديمير من إكمال ما كان عليه قوله، فهو، مثله، مثل زويا، يرفض تصديق أن ايڤيجينيا بيتروفنا أوسيبوف قد رحلت.

الفصل السادس والعشرون

يوم السادس من كانون الثاني عام 1919 يوم وفاة الرئيس الأميركي تيودور روزفلت، توفيت الكونتيسة ايڤيجينيا بترونوفا أوسيبوف، وإن كان الأميركيون قد شيعوا رئيسهم بمأتم مهيب، فإن الكونتيسة دفنت بصمت وهدوء، في مقبرة روسية صغيرة، بالقرب من باريس، وبحضور عدد قليل من المهاجرين الروس، الذين حاولوا مواساة زويا، إنما دون جدوى.

لم تكن زويا قادرة على تقبل فكرة العيش وحيدة، في هذه الشقة الصغيرة دون جدتها؛ وفي الوقت ذاته كانت ما تزال مندهشة ببيضة عيد الفصح التي أخفتها جدتها عنها طيلة العامين المنصرمين، وبما تركه كلايتون من مال قبل رحيله، يكفي لإعالتها على مدى عام كامل.

لأول مرة، منذ سنوات، لم تعد زويا راغبة في الرقص، تغلبت الأحزان على الأحلام، فلا رقص بعد اليوم. كل ما تريده هو البقاء في هذه الشقة، مع سافا، حتى تأتي الساعة وترحل عن هذا العالم. لكنها هزئت من هكذا سخافات، فجدتها أوصتها أن تعيش الحياة.

بعد أسبوع من الوحدة الموحشة القاتلة. تركت بصماتها على جسدها نحولًا وعلى وجهها شحوبًاجاءها ڤلاديمير، بعد لأي

فتحت له الباب. فرأت إنساناً آخر معه لم تتبين ملامحه بسبب الظلمة. ولكن سرعان ما اكتشفت أن هذا الواقف في عتمة الليل ليس إلا بيير غيليارد، أستاذ بنات القيصر منذ مدة طويلة.

ـ وأخيراً هل تمكنوا من الخروج؟

ـ احتار بيير ماذا يقول، لكنه آتٍ إليها، ليقول الحقيقة.

ـ لا... لا...

ـ وهل هم بخير؟ كانت تتساءل والدموع تنهمر على خديها، وتدرك كل الإدراك، أن هذا الرجل الواقف أمامها يمتلك من المعلومات عن بنات القيصر، ما لا يمتلكه أحد غيره. أحست وكأن ألف عام مرت على آخر لقاء لها معه يوم مغادرتها تسارسكوي سيلو آتية إلى هنا.

ـ أنا آتٍ لتوي من سيبيريا... سأخبركِ كل شي بصدق... أعرف أن ما سأقوله لا يصدق. أو أنكِ لا ترغبين بتصديقه... خلال شهر حزيران طلب منا، أنا والدكتور جبس، مغادرة إيكاترينبيرغ.

ـ إذن لم تكن هناك يوم...

لم تكن زويا قادرة على إكمال ما تعرفه عن مقتل القيصر... كان من الصعب جداً أن تقول «يوم مقتل نيقولا».

ـ خلال شهر آب سمحوا لنا بالعودة إلى المنزل، لكننا لم نجد أحداً... قيل إنهم رُحّلوا إلى مكان ما، غير أننا توقعنا ما هو أسوأ، وكنا نعي أنهم يكذبون... عدنا أدراجنا إلى ايكاترينبيرغ، ووصلنا إليها يوم عيد ميلاد ألكسي... ولكن...».

تنهد غيليار ومسح الدموع عن خديه، «ولكن ما إن رأيت آثار الرصاص على الجدران، أدركت أنهم قتلوا».

ـ ماذا؟ آثار رصاص؟ قتلوا نيقولا على مرأى من أولاده؟

ـ في البدء، قتلوا ناغورني، لأنه لم يسمح لأحد الجنود، أن يستولى على بعض مجوهرات ولي العهد... وعند منتصف تموز، قيل لهم سترحلون إلى مكان آخر، لأن هناك من يحاول فك الحصار المفروض على العائلة... وعند منتصف الليل، طلب منهم ارتداء ملابسهم.

أحس بيير غيليارد أنه غير قادر على الإستمرار في الحديث، في حين أحس بألم براحة يده، بسبب ضغط يدي زويا عليها. زويا التي كانت تحدق به وكأن نظراتها ترجوه أن يكمل... أن يقول كل شي.

ـ نزل الجميع، القيصر، الإمبراطورة والأولاد، إلى الطابق الأسفل من البناء، تمهيداً لترحيلهم... نيقولا كان يحمل ألكسي، عندما فتحوا النار عليه.

ـ يا إلهي؟ أي إجرام هو هذا الذي أسمعه؟

لم يعد هناك دموع تذرف من عيني زويا. حتى قلبها تجمد، فالذي تسمعه، هو أقرب إلى الخيال ـ برأيها على الأقل ـ منه إلى الحقيقة والواقع.

ـ أطلقوا النار عليهم جميعاً يا زويا قسطنطينوفا... نعم أطلقوا النار على الجميع دون استثناء؛ حتى أنهم، حين اكتشفوا أن ألكسي ما يزال حياً، عادوا وأفرغوا رصاص رشاشاتهم برأسه، وحين حاولت آنستازيا الصراخ، طعنوها بالحراب.

كان يتكلم وهو ينظر إلى زويا، وكأنه بنظراته يرجوها أن تصدق، ما يقول، لأنه هو، يكاد لا يصدق نفسه. وكيف يطلب من زويا أن تفعل ذلك؟ وهي التي كانت ـ حتى قبل دخوله عليها ـ تحلم بلقاء ماشكا وشقيقاتها، وتحلم بتمضية الصيف معاً في ليفاديا.

ـ وماذا بعد يا بيير غيليارد؟

ـ وضع الجميع في حفرة منجم وصبَّ الأسيد فوق أجسادهم.

ـ ماذا؟ ألم يكتفوا أنهم قتلوهم جميعاً، فأحرقوهم بالأسيد؟

ـ نعم... فعلوا ذلك.. بعد مدة وجدنا جوي مع أحد الجنود الذي قال إنه وجدها تنتحب قرب المنجم حيث دفنت جثث الذين أحبتهم وأحبوها..

ـ يا إلهي...؟ يا إلهي؟ مسكينة أنتِ يا صديقتي؟ أين هي أحلامك الآن؟ أو بالأحرى أي هي أحلامنا معاً...؟

حاول بيير غيليار التخفيف عن زويا، ولكن حزنه كان أشد من حزنها وأقسى.

ـ حاول القيصر منعهم من ذلك... لكنه عبثاً حاول... ما من أحد كان قادراً على إيقاف إجرامهم... أتساءل أحياناً، هل كان بمقدورنا فعل شيء فيما لو كنا موجدين؟ ولكن... كلي ثقة ويقين، أن وجودنا لم يكن ليغير بالأمر شيئاً.

أدركت زويا، أنها الآن صارت وحيدة في هذه الدنيا، فلا أب ولا أم.. لا أخ ولا جدة، لا أحباء ولا أصدقاء.

تذكرت لحظة وداعها لماري، وعدتها أن تعود لزيارتها في اليوم

التالي... أين هو هذا اليوم؟... يومها، كان هناك أمل بلقاء. إن لم يكن وجهاً لوجه، فليكن عبر الرسائل ولكن، لمن ستكتب بعد اليوم... وأية رسائل ستنتظر؟ وممن؟ في آخر رسالة قالت ماشكا «لقد بلغنا التاسعة عشر يا زويا... أصبحنا راشدتين جداً... لكنه ليس العمر المناسب للموت... حرام أن نموت في هذا العمر».

ـ جدتي... شكراً لله أنكِ رحلتِ قبل هذه اللحظة... لقد قُتلوا كلهم يا جدتي... بمن فيهم صغيرتي ماشكا.

الفصل السابع والعشرون

ماذا بمقدور زويا أن تفعل بعد الآن؟ لا شيء مطلقاً، كما قالت لبيير غيليارد الذي زارها صباح اليوم التالي، ليخبرها أن الدكتور بوتكين، قتل هو أيضاً، إضافة إلى عدد كبير من أفراد العائلة الحاكمة.

إنها الآن تبحث عن مفهوم جديد للحياة، مفهوم لم تكن تتصور يوماً، أنها ستفكر به... إنه الإغتيال، إغتيال الأبناء على مرأى من أبائهم أو إغتيال الآباء على مرأى من الأبناء.

أمام هذا الواقع الجديد، لم تعد الحياة، تعني شيئاً لزويا. حتى اتفاقية فرساي وانتهاء الحرب... لقد خسرت كل شيء، خسرت أمها، أباها وشقيقها، خسرت العم نيقولا والعمة ألكسندرا، خسرت أولغا، تاتيانا، آنستازيا، والصديقة الأغلى والأحب إلى قلبها ماري. وخسرت حتى الطفل المدلل المريض ألكسي... منذ أيام خسرت جدتها. والأهم أنها خسرت الوطن. حتى الإنسان الذي أحبته ومنحته جسدها لتعبر له عن حبها، تركها ورحل.

أيامها الآن، انفراد وانعزال. وحشة ووقوف قرب النافذة، لمراقبة الشوارع المكتظة بالناس الذين أمضوا شهوراً في الملاجيء والأقبية، يعانون الخوف من الغارات الجوية والقلق على المصير يؤرق ساعات

استراحة المدافع. أي سلام هو هذا الآتي؟ إنه لا يعني شيئاً، لم يعد لديها إنسان تتقصى أخباره أو تأمل بلقائه.

عند اقتراب كانون الثاني من نهايته، استعادت باريس حيويتها، وعادت المسارح إلى العمل، وفتحت دور السينما أبوابها، وشوارعها تضج بالجنود الأميركيين الآتين لمشاركة الفرنسيين فرحتهم في انتهاء الحرب وبداية مرحلة جديدة يعمها السلام. زويا، ما تزال سجينة شقتها وأحزانها، لم ينقطع ڤلاديمير عن زيارتها للإطمئنان عليها. لكنها نادراً ما تتفوه بكلمة، دموع وتنهدات وآهات، يأس وسأم. هذه هي حياة زويا.

ـ ما رأيكِ زويا لو ترافقينني في نزهة قصيرة، فقد تكون مفيدة لكِ؟

ـ ولماذا؟ لدي كل ما يساعدني على البقاء حية.

ـ ولكن... حتى الطعام لم تتناوليه، وهذه زجاجة الفودكا لم تمسها يد. لماذا تفعلين هذا بنفسكِ؟

الجواب دائماً، دائماً هو ذاته، وما نفع حياتي بعد الآن؟ كثيرون من اللاجئين الروس، حاولوا زيارتها، بناءً لطلب ڤلاديمير، لكنها رفضت استقبال أحد، باب شقتها مغلق دائماً ودموعها تبلل النافذة؛ لا شيء يثير اهتمامها سوى سافا، إنها الوحيدة الباقية من الماضي.

يوماً بعد يوم، أخذت المخاوف تنتاب ڤلاديمير، بات يخشى أن تقدم على عمل طائش. ولماذا لا؟ طالما أنها ترفض الحياة؟ وبعد ظهر ذات يوم، كان يتجول بسيارته في شوارع باريس، عله يحظى بأميركي يريد اصطحاب فتاة هوى إلى أحد الفنادق، ويتضرع لله أن يكون إلى جانب زويا. لم يعد ڤلاديمير يهتم بها كأنثى، بل كإنسان يذكره بماضيه كأمير.

فجأة لمح رجلاً طويل القامة، يرتدي بذة ضابط أميركي «إنه هو» قال لنفسه. أوقف سيارته، وعبر الشارع متمنياً ألا يختفي قبل الوصول إليه، فصرخ منادياً «كلايتون... كلايتون».

باندهاش كلي إلتفت كلايتون، وعاد أدراجه والخوف بادٍ على وجهه «ڤلاديمير... ما بك هكذا؟».

ـ شكراً لله أني وجدتك. كان الأمير ماركوفسكي، يشك في قدرته على إقناع كلايتون بمرافقته لرؤية زويا، فهو يعرف كل شيء، لكنه يعرف أيضاً، أن حباً كان يجمعهما.

ـ هل أصابها سوء؟

منذ يومين، كان كلايتون قد عاد إلى باريس، وكان مصمماً على عدم رؤيتها، لأنه يريد لها أن تبحث عن حب إنسان جديد، عن إنسان قادر أن يمنحها أكثر مما هو قادر عليه. كان يعاند نفسه لكنه كان يعتبر ذلك لمصلحتها «زويا؟... ما بها زويا؟».

ـ أيمكننا التحدث لبعض الوقت؟

ـ أخبرني، ما الذي حدث؟ هل هي بخير؟

صعد كلايتون إلى جانب ڤلاديمير، الذي بدا أسوأ حالاً مما كان عليه في الماضي، لكنه ، رغم كل مظاهر الفقر والعوز، ما يزال يتصرف كرجل نبيل.

ـ هي ما تزال بخير..

في أحد المقاهي جلسا يرتشفان القهوة «لقد توفيت جدتها...»

ـ منذ متى؟

- منذ ثلاثة أسابيع.

- كنت أتوقع ذلك.. كانت جد مريضة، وتحاول التظاهر أنها بحال جيدة.

- هناك ما هو أسوأ...

- ما هو؟ هل من أخبار عن العائلة في روسيا؟

- نعم.. لقد جاء بيير غيليارد من سيبيريا... أخبرها بما لا يمكن أن يتصوره العقل...وأنا خائف عليها. إنها تمضي أيامها ولياليها سجينة غرفتها، تبكي وتنتحب.

- وهل كان غليارد هناك يوم مقتل القيصر؟

لم يكن كلايتون يعرف غليارد إلا من خلال روايات زويا عن ليفاديا وتسارسكوي واليخت الإمبراطوري. كذلك لم يكن يهتم بأخبار القيصر، لكن الذي روته زويا، جعلته معجباً به، مشدوداً لتقصي أخباره.

- لا... لم يكن هناك... لأن الجنود السوفيات طلبوا منه المغادرة قبل ذلك بأيام قليلة، لكنه حين عاد ثانية، وبعد شهرين بالتحديد روى له الفلاحون في إيكاترينبيرغ ما حصل... لقد أعدموا جميعاً.. أعدموا كلهم بذات الوقت... بما فيهم الأولاد...

لم يخجل ڤلاديمير من الدموع التي بللت خديه، فهو لطالما بكى وانتحب كلما تذكر أيامه الماضية وأصدقاءه، لكن كلايتون شاركه البكاء وهو يسأل «وماري أيضا؟»».

- كلهم... كلهم. وراح يخبر أندروز، ما لم يتجرأ غليارد على

إخباره لزويا. أخبره عن التنكيل بالجثث. عن تذويبهم بالأسيد، عن حرق عظامهم بعد ذلك، وكأنهم يرغبون - أي السوفيات - ليس بمحو آل رومانوف من الوجود، بل باجتثاثهم، حتى لا يعود أحد يتذكرهم أو يبقى ما يذكر الناس بهم...ولكن الحقيقة، بالنسبة للأغلب الأعم من الروس، حتى بالنسبة لقسم كبير من الفلاحين الذين قامت الثورة باسمهم، ما يزال آل رومانوف أحياء.

- وكيف تلقت زويا هذه الأخبار؟

- لست متأكداً من أنها ستبقى حية... إنها تنحل يوماً بعد يوم، لا تأكل... لا تشرب، لا تهتم بشيء أبداً إلا بسافا...

- تذكرها بماري وبهم.

- هل تتكرم وتزورها؟

كان ڤلاديمير مستعداً أن يرجوه بإلحاح. إيفيجينيا كانت إمرأة عجوزاً، أما زويا فهي ما تزال في التاسعة عشر، ما تزال في مقتبل العمر، ما تزال في العمر الذي فيه تتفتح زهور الحياة، ولا تذبل.

تنهد كلايتون، وارتشف ما تبقى في فنجان القهوة. لقد صدم بما سمع، أحس بقلبه يتمزق «وحتى ألكسي... الطفل المريض؟».

- قلت لك جميعهم... جميعهم.

- أتعتقد أنها ستسمح لي بزيارتها؟

- ما عليكِ إلا المحاولة... أرجوك حاول.. إنها لا تفتح الباب لأي طارق، حتى أنا، كثيراً ما أضطر لوضع الطعام عند عتبته. وأعود دون أن أراها، ولكني لست متأكداً من أنها تتناول الطعام. إن حزنها، ليس

على جدتها... كان من الأفضل ألا أسمح لغيليارد بمقابلتها... ولكن، حتام نبقى نعيش على أمل كاذب.

ـ سأفعل ما بوسعي.

عاد كلايتون إلى الفندق لحضور اجتماع مع القادة الأميركيين وهو شارد الذهن، حتى أن أحد زملائه سأله «هل أنت معنا يا كلايتون؟» كان خائفاً ألا تستقبله. صمم ألا يتراجع. عند العاشرة ليلاً انتهى الإجتماع، فأسرع إليها، ستة أسابيع فقط مرت على آخر لقاء، إنها فترة زمنية قصيرة، لكنها حفلت بأحداث لا توصف، وجلبت من المآسي والأحزان، ما يعجز كبار الكتاب عن وصفه.

أمام مدخل الشقة وقف يسترق السمع، إذ لربما تكون قد نامت، طال وقوفه، لكنه سرعان ما سمع وقع خطوات أقدامها، دق الباب برقة، فلم يعد يسمع شيئاً؛ وبعد أن تأكدت زويا من رحيل الطارق، عادت لتتحرك داخل شقتها، فعاد كلايتون وسمع وقع أقدامها وكذلك سمع نباح سافا. كاد يطير فرحاً وهو يتخيلها بين ذراعيه. لكنه لام نفسه على هذا التفكير، فهو آتٍ الآن لمساعدتها وليس لإطفاء نار حبه. مجدداً طرق الباب وهو يقول «برقية مستعجلة» أدرك أنها الوسيلة الوحيدة لجعلها تفتح الباب، الذي ما إن فتح، حتى أسرع كلايتون ودخل إلى الشقة، قبل أن تتأكد من شخصيته ولا تسمح له بالدخول.

ـ عليكِ أن تكوني أكثر حرصاً يا آنسة.

ـ ماذا تريد بعد؟... لماذا أنت هنا؟

ـ لرؤيتك.

ـ لماذا أتيت؟

كان الغضب بادياً عليها، لكنه تأكد مما قاله ڤلاديمير، رغب أن يضمها إلى صدره، لكنه لم يفعل مخافة ازدياد غضبها.

ـ أتيت لأراكِ... أنا هنا ضمن الوفد الأميركي للمفاوضات وتوقيع إتفاقية فرساي لإحلال السلام. أتسمحين لي بالدخول لدقائق قليلة.

ـ لماذا؟

ـ لأني أحبك يا زويا...

ـ تحبني؟؟ لم يعد هذا يعني لي شيئاً.

ـ بل يعني لي كثيراً.

ـ أولم ترحل منذ ستة أسابيع؟

ـ بلى... ستة أسابيع كانت مهمة جداً في حياتي. تأكدت خلالها من أن ما فعلته لم يكن صواباً.... صدقيني زويا أنا أحبك، حين تخليت عنكِ اعتقدت أن هذا هو الأفضل لكِ... وليس لي. أنا لست ذاك الشاب الفتي... صدقيني زويا تركتكِ لأني أحبك، وليس العكس. أنا لم أتخلَ عنكِ... ولم أكن أعلم بما سيحدث بعد رحيلي.

ـ ما الذي تقصده؟ كانت ما تزال تقف أمامه حزينة، كئيبة، لكن إحساساً انتابها أنه يعرف كل شيء. إنما كيف؟

ـ لقد قابلت ڤلاديمير.

ـ وماذا قال لك؟

ـ أخبرني كل شيء يا صغيرتي... نعم أخبرني كل شيء في الوقت

الذي كنت فيه أقاوم رغبتي بزيارتكِ، إن آل رومانوف ليسوا عائلتكِ فقط، بل عائلتي أيضاً.

تقدم منها بهدوء وحذر وأخذها بين ذراعيه، وفوجيء بعدم مقاومتها له. «نعم لقد أخبرني عن وفاة جدتكِ... عن... عن... عائلة القيصر والمسكينة ماشكا».

ألقت رأسها على صدره وأخذت تنتحب وتبكي وتروي له ما سمعته من بيير غيليارد، ويده تلاعب شعرها حيناً وكتفيها حيناً آخر، وسمح لنفسه بتقبيل وجنتيها ومن ثم شفتيها. فعلاً إنه مشتاق لها.

ـ تمنيت لو كنت هنا، إلى جانبكِ ساعة أتى.

ـ كذلك أنا... تمنيت لو كنت إلى جانبي... إيفيجينيا كانت قد رحلت، ماشكا يا كلايتون.. يا إلهي... المسكينة ماشكا... أخبرني غيليارد أنها قتلت على الفور وليس كالآخرين.

ـ تذكري جدتكِ التي فعلت المستحيل من أجلكِ... تذكري كمَ تعذبت حتى أتت بكِ إلى هنا حفاظاً على حياتكِ، ورغبة في جعل أيامكِ القادمة من صنع يديكِ. ولم تفعل هذا، من أجل أن تفقدي كل أمل في الحياة، ولا من أجل البقاء في هذه الشقة رفيقة الأحزان والذكريات الأليمة حتى الموت. لقد أنقذت حياتكِ، فلماذا أنتِ لا تحافظين عليها... فلعل هذا هو نكران للجميل. فإن كنتِ فعلاً تحبينها، ما عليكِ إلا القيام بكل ما تستطيعين القيام به لتحقيق أهدافها وغاياتها التي لم تكن إلا سعادتكِ

ـ أعتقد أنك على حق.. ولكن.

ـ ولكن ماذا؟

ـ هذا يتطلب وقتاً...

مدت يدها وحكّت جبينها لقد تذكرت شيئاً مهماً «أخبرتني جدتي عن المبلغ الذي تركته لنا... كنت أنوي إعادته إليك... ولكني...» أحنت رأسها خجلاً «تصرّفت بقسم منه».

ـ هذا ما كنت أتمناه.. أن تكون فعلتِ ذلك... أخبرني ڤلاديمير أنكِ منذ شهور بلا عمل.

ـ نعم... في البدء بسبب مرض جدتي، ومن ثم بسبب وفاتها، والآن...

ـ أعرف ولا تكملي...

ـ دياغيليف عاد إلى باريس، وطلب مني العودة إلى العمل معه، إذا ما رغبت في ذلك.

ـ لن يكون ذلك.

ـ ولماذا؟

ـ لأنكِ ستذهبين إلى نيويورك.

ـ من... أنا؟ ولماذا؟

ـ لنتزوج... أعرفتِ لماذا؟... أمامكِ أسبوعان ليس أكثر وبعدها نرحل.

بدا الإندهاش واضحاً على وجهها «هل أنت جاد فيما تقول؟».

ـ نعم... إلا إذا كنتِ لا تحبينني.

حدق بها فوجد نفسه أمام كونتيسة حقيقية، أمام زويا القديمة التي كانت تعيش في قصر فونتانكا، فقرر أن يتم عقد الزواج في باريس.

ـ ماذا؟

ـ أو إذا كنت غبية إلى حد تقبل تمضية بقية حياتك مع رجل عمره يضاعف عمرك... هذه مشكلتكِ وليست مشكلتي يا آنسة أوسيبوف إني أحذركِ الآن، ولن أحذركِ مرة أخرى.

ـ حسناً... أخذته بين ذراعيها وراحت تبكي، إنما فرحاً وليس حزناً.

ـ والآن، ما عليكِ إلا أخذ ما تحتاجينه، لأني لن أدعكِ هنا، ولست مستعداً للوقوف مجدداً، عند الباب وأنا أقول برقية مستعجلة.

ـ إلى أين؟

ـ إلى الفندق، لتكوني تحت أنظاري، فلا تقدمي على أية حماقة.

ـ هذه حماقة منك...

ـ قولي ما شئتِ أن تقولي. خذي ما تحتاجينه لليلة فقط، وسنعود فيما بعد، لتوضيب ما تبقى.

ـ ولكن... ليس لدي الكثير. قالت هذا وهي تنظر إلى الغرفة التي إن عبرت عن شيء، فهي تعبر عن الفقر والعوز، وإن كان هناك شيء لا بد من أخذه، فهو السماور وبعض حاجيات جدتها ليس أكثر. إنها ترمي الماضي خلف ظهرها، وتتطلع إلى الغد الآتي ولكن «أجديٌ أنت؟» كانت تخشى أن يعود ويتخلى عنها، إن لم يكن هنا في باريس، فقد يفعل ذلك في نيويورك.

ـ نعم... أنا جديّ فيما أقول، لن أعود إلى نيويورك، إلا وأنتِ معي يا سيدة أندروز...

ـ ماذا؟... أحاطت عنقه بذراعيها وهي تقبل شفتيه.

ـ نعم... كما أقول.

ـ وهل بإمكاني أخذ سافا معي إلى الفندق؟

ـ بكل تأكيد. انحنى كلايتون وأخذ سافا بين ذراعيه، فيما زويا وضبت حقيبة صغيرة تكفي لتمضية يوم أو يومين. أطفأت الضوء، تأبطت ذراع كلايتون، وأغلقت الباب وراءها دون التفات إلى الوراء... إنها تخطو نحو حياة جديدة

الفصل الثامن والعشرون

بعد يومين عادت إلى الشقة، جمعت ما هي شديدة الحاجة إليه. السماور وبعضاً من الأشغال اليدوية للجدة وثيابها والوشاح الذي أوصتها الكونتيسة الحفاظ على ما به، ووزعت الباقي بين ڤلاديمير وكاهن كنيسة القديس ألكسندر نيفسكي.

ودّعت ڤلاديمير بحرارة لا توصف. وما هي إلا أيام قليلة، حتى وقفت أمام الكاهن وكلايتون إلى جانبها، ليعلنهما زوجاً وزوجة. لحظة هي أشبه بالحلم؛ امتزجت فيها دموع الفرح مع دموع الحزن. دموع الحزن، على ما خسرته منذ قيام الثورة في بلادها، وها هي الآن تخسر إسمها، فلم تعد الآنسة زويا أوسيبوف، بل صارت السيدة زويا أندروز. ودموع الفرح لأنها تزوجت ممن تحب ولأن الحياة تمد لها بساطها لتسير عليه ويد كلايتون تشد على يدها؛ فلا خوف، بعد الآن، أن يبدّل كلايتون رأيه فيعود ويتخلى عنها. بعد الزواج بيومين، ركبا القطار باتجاه سويسرا لتمضية شهر العسل أولاً، ومقابلة بيير غيليارد ثانياً.

ما إن توقف القطار في محطة بيرن، حتى أجالت زويا النظر في الطبيعة السويسرية الخلابة، سهول خضراء تمتد على امتداد النظر،

وجبال مكللة باللون الأبيض الناصع . تباً لهذه الحياة، زويا تريد الهرب من الماضي، تطلعاً إلى حياة سعيدة، ولكن ها هي هذه المناظر تذكرها بسهول روسيا وجبالها.

غيليارد، كان في استقبالهم في محطة القطار حين وصولهما، واصطحبهما لتناول الطعام في منزله، حيث كانت زوجته، الممرضة السابقة لأولاد القيصر، باستقبالهما، ولتعانق زويا عناقاً أبكى كلايتون.

على الغداء، كان الحديث كله، يدور حول الماضي، حول فونتانكا وتسارسكوي سيلو، اليخت الإمبراطوري وليفاديا... كلام ودموع، وغصة في الصدر وحرقة في القلب.

أبدى كلايتون اهتماماً زائداً برغبة غيليارد بالعودة إلى سيبيريا وإيكاترينبرغ لتقصي الحقائق عما سمعه عن مقتل جميع أفراد العائلة. كان يعتقد أنه لا بد أن أحداً من أفراد العائلة قد نجا، خاصة وأن الجنود الذين كانوا يتولون مهمة الحراسة على المنزل الذي كان يقيم فيه القيصر وعائلته، قد أقاموا علاقة صداقة مع أفراد العائلة ومع القيصر خاصة الذي طالما كان يقول «سيأتي يوم ينصفني فيه التاريخ».

تأكد كلايتون، بعد ما سمعه عن ماضي حياة زويا، أنه لن يكون بوسعه أن يؤمن لها ما كانت تنعم به، ولكن، ستكون سعيدة ولن تتعرض للمتاعب والمصاعب بعد اليوم، ولن يخيم شبح الفقر والعوز والجوع فوق رأسها؛ وآلى على نفسه أن يسعى أكثرمما يستطيع لتأمين حياة كريمة، تعيد لها بعضاً مما خسرته، وفكر بشراء منزل جديد أوسع وأرحب من منزله الحالي.

من بيرن إلى جنيف، إلى لوزان وإلى باريس، ومنها على متن

الباخرة السياحية، «باريس» فخر شركة الخطوط البحرية الفرنسية، نحو نيويورك.

طيلة فترة الرحلة كانت زويا تتصرف أشبه بطفل صغير أهداه والده دمية جميلة، فاستعادت بعضَ الوزن الذي خسرته، وأخذت وجنتاها تتوردان من جديد. كانا يتناولان العشاء على طاولة قبطان الباخرة، ثم يرقصان ويلهوان ويمرحان، حتى أنها كانت تشعر بالذنب أحياناً. أيعقل أن تلهو وتمرح هكذا، وتنسى كل الذين خسرتهم، لكنها صممت أن تترك الماضي للماضي، وأن تتطلع إلى حياة جديدة، كما كان يطلب منها كلايتون، خاصة حين يحدثها عن المنزل الذي سيبنيه لها، وعن الأولاد الذين سيرزقون بهم. فهي ما تزال في العشرين من العمر، والمستقبل كله أمامها.

قُبيل الوصول إلى نيويورك، قدمت زويا لكلايتون، هدية الزواج وهي بيضة الفصح التي أعطتها إياها جدتها لحظة وفاتها.

ـ إنها أجمل ما رأيته في حياتي... عفواً إنها ثاني أجمل شيء أراه في حياتي.

تعجبت زويا، لماذا كانت أجمل شيء ومن ثم تحولت إلى ثاني أجمل شيء. بدا التساؤل واضحاً في نظراتها. إنها أغلى ما تملكه، وما قد يملكه إنسان، إنها الكنز الوحيد الذي يربطها بالماضي.

ـ ما هو الأول؟

ابتسم كلايتون، وضمها إلى صدره؛ أنتِ يا حبيبتي. أنت أجمل ما رأته عيني.

ـ كم أنت سخيف، ورغم سخافتك أحبك.

لم يناما تلك الليلة، حتى لم يدخلا حجرتهما، كانت زويا تريد أن تنظر إلى تمثال الحرية قبيل بزوغ الفجر، موعد رسو الباخرة باريس في ميناء نيويورك.

الفصل التاسع والعشرون

رويداً رويداً، بدأت تتضح ملامح نيويورك. ها هو تمثال الحرية يرحب بها، وها هي الشمس تختال في الأفق، تلقي بضوئها على مياه الميناء، تزرع الدفء في نفوس الناس.

ما إن وطئت قدما زويا، رصيف الميناء، حتى أحست أنها تبدأ حياة جديدة، وأن عليها نسيان ما مضى. ولكن كيف يكون ذلك؟ فكما التاريخ هو ذاكرة الأمم والشعوب والدول، فتاريخ الإنسان هو ذكرياته. ولكن عليها الآن، أن تسعى لإسعاد من أنقذها من البؤس الذي كانت تعيشه.

على طول الطريق، من الميناء حتى الجادة الخامسة، كانت تراقب كل شيء؛ وكل شيء هو جديد كلياً. «حسناً يا صغيرتي بماذا تفكرين؟» تساءل كلايتون، وهما يتجهان نحو المنزل . إنه منزل صغير، لكنه فخم ومريح. كل ما فيه من مفروشات، كان من صنع السيدتين ألسي وولف اللتين أشرفتا على زخرفة وتأثيث منازل الأثرياء في نيويورك ومنازل العديد من الأصدقاء في بوسطن.

ـ إنه منزل رائع يا كلايتون.

منذ زمن وهي تحن لرؤية الثلج يغطي الطرقات، يغطي أسطح البيوت

والشرفات؛ وها هي اليوم تراه، على الطرق، عربات خيل، سيارات، نساء يسرن متدثرات بالثياب الأنيقة، وعلى رؤوسهن قبعات الفرو، ورجال يسرعون الخطى، ولكن، إلى أين؟ مشاهد كثيرة تثير الدهشة في نفس زويا التي رقصت عيناها وهي تترجل من السيارة، وتنظر إلى المنزل ذي السقف القرميدي. إنه أصغر من قصر فونتانكا، لكن، بالنسبة للأميركيين، هو قصر فعلاً. في القاعة الرخامية، كانت خادمتان في استقبالهما.

ـ السيدة أندروز. هكذا قدمها كلايتون للخادمتين، ولرئيس الخدم الإنكليزي الأصل، الذي لا تعرف الإبتسامة طريقاً إلى شفتيه، على عكس الأثاث الذي يوحي بالإستراحة، والذي يجمع بين الطرازين، الكلاسيكي والحديث.

ـ يمكنكِ إحداث أي تغيير ترينه مناسباً... إنه الآن منزلكِ يا صغيرتي زويا.

لكنها أحبت هذا المنزل وكل ما فيه، خاصة تلك النوافذ الفرنسية الطراز التي تطل على الحديقة المغطاة بالثلج. طوق خصرها بيده، وقادها عبر الدرج إلى الطابق الثاني، حيث غرفة النوم خاصتهما، سرير معدني وثير، وأغطية من الساتان الزهري اللون، وستائر تتدلى، لتضفي بألوانها الزاهية، جواً رومانسياً، وإلى جانبها، غرفة الملابس الخاصة بها، التي ذكرتها بغرفة نوم والدتها، مع فارق كبير، أن هذه الغرفة ما تزال خزائنها فارغة، إلا من بضعة فساتين كان قد اشتراها لها كلايتون من باريس مؤخراً.

لم تعد خائفة من غدرات الزمن، فلم تعد وحيدة، إنها، بين أيدي

رجل أحبها فعلاً، وانتشلها من حياة الفقر والبؤس والخوف.

عارية وقفت أمامه، لقد تعمدت أن تخرج من غرفة الإستحمام عارية. إنه يحب النظر إلى جسدها، إلى نهديها، إلى ساقيها، إلى كل شبر في جسدها.

ـ كلايتون... لماذا لم تخبرني شيئاً عن هذا المنزل؟

ـ وهل كان ذلك سيغير شيئاً؟

ـ لا... لم يكن ليغير شيئاً. ولكن طالما حدثتك أنا عن سان بطرسبورغ، أتمنى ألا أكون قد بالغت في ذلك إلى حد إزعاجك؟

ـ أبداً... كنت أحب الإستماع إلى ذلك، مقدار حبي لعروستي المميزة، خاصة وأنتِ ترتدين قميص النوم الشفاف هذا. وأشار بيده إلى قميص النوم الذي تحاول ارتداءه، لكنه تقدم منها، أخذها بين ذراعيه، قبلها على عنقها وشفتيها، ويده تخلع قميص النوم عن جسدها، قليلاً قليلاً، حتى عادت عارية فحملها على ذراعيه ووضعها على السرير الوثير وتمدد إلى جانبها. عيناه في عينيها، ويداه تتحركان على جسد الصبية ابنة العشرين عاماً. لم يكن يصدق ما يرى.

ـ أهل تريدني وحدي عارية؟

سمحت زويا لنفسها أن تعري زوجها، دون أن تبتعد الشفاه عن بعضها.

ـ أريدك أن تمنحني كل حبك الآن يا كلايتون... سنمارس الحب على مدى ساعات وساعات.

ـ لكنك متعبة يا حبيبتي.

ـ وجودك معي، وجودك فوقي، يشعرني بالراحة. فابقَ هكذا،... يا إلهي! كم أشعر بالدفء والسعادة...؟ أنا فعلاً جد مثارة... كل ما فيك يثير شهوتي.

لساعات، مارسا الحب، دون أن تنطفىء النار التي تحرق جسد زويا، ولا النار التي تحرق جسده.

ـ لست أدري لماذا أنا خائفة يا كلايتون؟

ـ ومما تخافين يا صغيرتي.

ـ من نظرات الخدم إليّ... إنها لا تريحني أبداً... لا شك، يتساءلون من أكون، وكيف تمكنت من إغوائك طمعاً بمالك، لا حباً فيك.

كانت زويا محقة فيما تقول، فما كانوا يقولونه همساً، تحول مع الأيام إلى فعل، إذ شرعوا يذكرونها بزوجته الأولى، مباشرة حيناً، وتلميحاً أحياناً، كانوا يتحدثون عن أناقتها، عن الحفلات التي كانت تقيمها وتدعو إليها أصدقاءها المميزين الذين يأتون بصحبة زوجاتهم الأنيقات، والعقود الماسية أو الذهبية تطوق أعناقهن والأساور تزين معاصمهن.

أكانت جميلة يا كلايتون؟ تساءلت زويا ذات مساء وهي تجلس بالقرب من المدفأة في غرفة النوم، المدفأة التي لم تكن بحاجة إليها لزرع الدفء في حياتها. فكلايتون يفعل ذلك. فجأة تذكرت ڤلاديمير، وغرفته الموحشة التي استوطن البرد فيها، وكذلك الخوف والجوع.

ـ من هي التي كانت جميلة؟ لم يدرِ كلايتون عمن تتكلم.

ـ زوجتك.. كان اسمها مارغريت أليس كذلك؟

ـ لم تكن جميلة وحسب، بل وأنيقة أيضاً، كانت تعرف كيف تختار ثيابها، ولكن يا صغيرتي زويا...

ـ ولكن ماذا يا كلايتون؟

ـ غداً... سنذهب للتسوق، وسيكون عندكِ أفضل مما كان عندها.

ـ إنك تمنحني أكثر مما أستحق.

ـ إنكِ تستحقين أكثر مما أنا قادر على تقديمه لكِ..

كان فعلاً ينوي أن ينسيها كل عذاباتها. لكنه لن ينسيها حياتها في روسيا؛ هذه الحياة التي تتذكرها دائماً، كلما نظرت إلى بيضة عيد الفصح الذهبية الموضوعة على رف من الرخام في غرفة النوم إلى جانب صور العائلة الموضوعة في أطر فضية وثلاثة تماثيل ذهبية مميزة كانت لوالدتها.

ـ أسعيدة أنتِ يا صغيرتي؟

ـ وكيف لا أكون سعيدة، طالما أنت إلى جانبي؟

قدّمها للعديد من أصدقائه، واصطحبها إلى كل مكان ذهب إليه، كان يتباهى بوجودها إلى جانبه، بالثياب الأنيقة الجديدة.

ـ لماذا يكرهني الجميع؟

لم يكن هذا الإحساس نتيجة أوهام، بل نتيجة تصرف النساء الأخريات، اللواتي كثيراً ما كن يتوقفن عن الحديث حين تقترب منهن، ويبتعدن عنها، هكذا بدون سبب.

ـ إنهن يغرن منكِ...

كان محقاً فيما يعتقد، وهي محقة في تساؤلاتها، عند أواخر شهر أيار، تحول الهمس إلى شائعات متداولة، كثيرون هم من قالوا إن كلايتون متزوج من راقصة رخيصة.

حتى أن أحدهم، لم يتوانَ، ولم يتورع عن سؤاله مباشرة، إن كانت تقدم رقصات خلاعية على مسارح باريس. لكن كلايتون تمالك أعصابه وتجاهل السؤال، مع أنه كان يرغب بتهشيم جمجمته. ذات ليلة، وفي إحدى الحفلات تجرأت سيدة على سؤال أخرى، عما إذا كانت زويا تمارس البغاء في باريس.

ـ أعتقد ذلك. انظري إليها كيف ترقص، بخفة، بخطوات ثابتة وموزونة.

الكل ينظر إليها بعين الشك والريبة، فيما هو يقف مزهواً بها وهي تتمايل بخصرها. إنها في العشرين من العمر، طويلة القامة، نحيفة الخصر، ملائكية الوجه. أما حين أمسكت يده، لتشاركه رقصة الفالس، أحست أنها راغبة في البكاء، تذكرت لقاءهما الأول في باريس، وتذكرت ليالي سان بطرسبورغ، أيام كانت ترقص مع والدها قسطنطين وشقيقها البهي الطلة نيقولاي وهو يرتدي بذته العسكرية الرسمية، تذكرت الحفلة التي كان من المفترض أن تحييها بمناسبة تخرجها من معهد سمونلي، أما اليوم، فلم يعد أمامها سوى النظر إلى بعض الصور التي تذكرها بماشكا، فتختفي الإبتسامة وتنهمر الدموع.

ـ أحبك أكثر مما تتخيلين يا صغيرتي. همس في أذنها وهو يراقصها في قاعة آستور. لكنها بدلاً من أن تجيبه، توقفت عن الرقص وأخذت

تحدق بهلع وكأنها ترى شبحاً. تسمرت مكانها، شحب وجهها «ما الأمر يا حبيبتي؟» تساءل كلايتون.

ـ مستحيل... مستحيل...

أحست بقشعريرة برد، وهي تحدق برجل طويل القامة، جذاب أنيق، وإلى جانبه إمرأة ترتدي فستاناً أزرق براقاً.

ـ أتعرفين من هما؟

لم تكن زويا قادرة على الإجابة. إنه الأمير أوبولنسكي أو لربما إنسان آخر يشبهه تماماً، ولكن التي تمسك يده هي الدوقة أولغا، الشقيقة الصغرى للقيصر التي تعودت زيارتهم في قصر فونتانكا بعد ظهر كل أحد.

زويا...

قال كلايتون، وهو يخشى أن يغمى عليها، خاصة حين لاحظ أن المرأة تحدق بها بشوق ولهفة وتسرع نحوها، غير آبهة بعلية رجال نيويورك، ولا بالنساء الأنيقات المتبرجات، تسرع نحوها فاتحة ذراعيها صارخة بصوت عال «حبيبتي.. أهذا أنتِ؟» وراحت المرأة تمرر يدها على شعر زويا وخديها المبللين بالدموع وكتفيها، وكأنها غير مصدقة ما ترى «أهذا أنتِ يا صغيرتي ... أهذا أنتِ أيتها الكونتيسة الصغيرة؟».

صدم الجميع مما يرون ويسمعون، حتى اللواتي كن يثرثرن ويزعمن أنهن متأكدات من أنها كانت تمارس البغاء.

أخذت الدوقة زويا بين ذراعيها دون أن تعرف أين تقبلها والدموع وحدها تتكلم، دموع الذكريات والتأسف على فردوسهما المفقود.

كان كلايتون يقف إلى جانب الأمير أوبولنسكي حائراً ماذا يقول، سامحا لعينيه أن تذرف الدمع.

ـ ماذا تفعلين هنا يا صغيرتي؟

بكل تهذيب وأدب، وعلى الطريقة الإمبراطورية، انحنت زويا أمامها «أتسمحين يا عمتي الدوقة أولغا ألكسندرونوفا، أن أقدم لكِ زوجي كلايتون أندروز؟»

ـ انحنى كلايتون وقبّل يد الدوقة، فيما احتضنته هي باليد الآخرى «شرف كبير لي أن أتعرف عليك يا صهرنا العزيز... إنتبه فأنت متزوج من جوهرة الجواهر».

إلتفت إلى زويا «ولكن أين كنتِ منذ...؟» كان صعباً عليها أن تكمل السؤال «منذ آخر لقاء لنا في تسارسكوي سيلو؟».

ـ جئت مع جدتي إلى باريس.. توفيت المسكينة بعد عيد الميلاد.

عادت الدوقة لتغمر زويا من جديد، فيما كل من في الصالة يراقب باندهاش وذهول، وما هي إلا ساعات، حتى انتشر الخبر بين جميع أصدقاء كلايتون «زوجته هذه ، إبنة عائلة راقية.. إنها كونتيسة روسية» خبر انتشر كما ينتشر شذا الورد مع الريح. وانتشرت أيضاً أحاديث الأمير أوبولنسكي عن أمها الألمانية الأصل الرائعة الجمال، وعن والدها المشهور بسخائه. «كان صعباً عليّ أن أفقد صديقاً كقسطنطين» وعن الحفلات التي تقام في قصر فونتانكا. زويا ما تزال تتأبط ذراع عمتها وتتكيء برأسها على كتفها. أولغا تعيش الآن في لندن مع عائلة الأمير، وهي الآن في نيويورك لزيارة بعض الأصدقاء.

بسرعة الريح، انتشرت الأخبار في نيويورك عن زويا وعائلتها النبيلة، وأنها قريبة القيصر، وبالسرعة ذاتها، تحولت مشاعر الإستهزاء، إلى إعجاب وتقدير، وصارت مرحباً بها في جميع الحفلات وفي أرقى الصالات وفي بيوت علية القوم.

ألسي دي وولف، تمنت عليها، إعادة زخرفة المنزل وتغيير أثاثه، وليس هذا وحسب، بل اقترحت على كلايتون أن ترمم له ولزوجته منزلاً من المنازل القديمة التي اشترتها على الضفة الغربية للنهر وتحديداً في شارع سوتون. هناك كثيرون من أغنياء نيويورك اشتروا منازل، فلماذا لا يكون لكلايتون منزل هناك أيضاً؛ لكن زويا، كانت لا تعير هذه الاقتراحات اهتماماً، وتفضل البقاء في هذا المنزل ذي السقف القرميدي.

أولى الحفلات، أقامتها زويا، على شرف الدوقة أولغا والأمير أوبولنسكي، قبل عودتهما إلى لندن، ودُعي إليها النخبة من كبار رجال الأعمال والمجتمع في نيويورك. تألقت زويا برداء أسود موشح ببعض أوراق الشجر الخضراء الصغيرة. «فعلاً إنها أميرة» قال كلايتون، وأسرع إلى ألسي دي وولف، ليطلب منها ترميم منزل في شارع سوتون. شرط أن يبقى الأمر سراً. تفننت ألسي دي وولف في زخرفته وانتقاء أثاثه، فعلت المستحيل، لينال المنزل الجديد إعجاب الكونتيسة الروسية الصغيرة. فالكل اليوم، صار يناديها "الكونتيسة"، لكنها دائمة الإصرار والإلحاح، على أنها اليوم هي السيدة أندروز. إنها الآن تبدأ حياة جديدة لا ترتبط بالماضي، ماضي الدموع والأحزان. إنها الآن في نيويورك، وليس في سان بطرسبورغ. فقط ليلة الميلاد الروسي، تحن إلى ماضيها. إنها ليلة مميزة وحزينة في آن.

ولهذا ذهبت مع كلايتون لحضور قداس منتصف الليل في الكنيسة الروسية، حيث التقت العديد من المهاجرين الروس، النبلاء منهم والعادين، ومدّعي الإنتماء إلى العائلة الإمبراطورية أو طبقة الأمراء، حتى أن إحدى النساء التي كانت تخيط قبعات والدتها رجتها ألا تفضح أمرها. كل هذا لم يكن يعني شيئاً لزويا، حياتها كلها مكرسة لزوجها الذي بعد عودتهما من الكنيسة وممارسة الحب، على السرير الوثير جداً في منزلهما الجديد في شارع سوتون، أحبت أن تزف له خبراً ساراً.

ـ ماذا...؟ ماذا؟..

كان ينظر إليها مرعوباً، إذ قد تكون ممارسة الجنس، قد تسببت بأذيتها «ولكن لماذا لم تخبريني من قبل؟»

ـ منذ يومين فقط أكد الطبيب أني سأمنحك طفلاً يا حبيبي الغالي.

كاد كلايتون أن يطير فرحاً... إنه في الثامنة والأربعين من العمر وهي في الحادية والعشرين... وستصبح أماً.

ـ ومتى سيولد؟

ـ في شهر آب.

ـ إذن، وحفاظاً على راحتكِ وسلامتكِ، إنتقلي إلى غرفة نوم مستقلة.

ـ لا... لن أفعل هذا... وإن أنت فعلت، فسألحق بك... لا أريد الإبتعاد عنك، حتى ولو لثوان معدودات.

في اليوم الذي كان مفترضاً، أن يبلغ ألكسي رومانوف، السابعة

عشرة من العمر، وضعت زويا طفلها البكر الذي ما إن أطلق صرخته الأولى، حتى أحس كلايتون، بسعادة لا مثيل لها.

انتظر قليلاً، حتى سمح له بالدخول، لرؤية الطفل ممدداً إلى جانب أمه النصف نائمة بسبب المخدر.

ـ إنه يشبهك يا زويا.

ـ بلون شعره فقط.. إنه يحمل أنفك يا كلايتون.

نظرت زويا إلى زوجها بعين الرجاء «أتسمح لي أن أسميه نيقولا؟».

ـ بالطبع أسمح.

فعلاً كان كلايتون يحب هذا الإسم، إنه إسم شقيق زوجته واسم القيصر أيضاً اللذين طالما تحدثت زويا عنهما، بدفق من الحب والحنان.

ـ نيقولا قسطنطين... تمتمت زويا، وهي تستسلم لفعل المخدر.

نيقولا قسطنطين أندروز... قال كلايتون وهو يسكب الشمبانيا في كأس من الكريستال «بصحتك يا نيقولا...» ابتسم ثم أردف «وبصحتكِ يا زويا».

الفصل الثلاثون

مرّت السنوات وزويا محمولة على أجنحة الملائكة، مغمورة بالفرح والسعادة، تحوّلت إلى محط أنظار الجميع ومحور أحاديثهم، حين يتحدثون عن الأناقة وقوة الشخصية والكرم والسخاء وتنظيم الحفلات.

تخلّت عن أحلامها القديمة، ونذرت نفسها للإعتناء ببيتها وزوجها وبالصغير نيقولا، الذي كانت ترى الشمس مشرقة على شفتيه في صباحات نيويورك الغائمة. لم تعد تشعر بالبرد، فكلايتون يمنحها من حنانه ودفئه، حتى البالية، لم تعد تعني لها شيئاً، إلا في المناسبات الخاصة جداً. كانت مثال الحيوية والنشاط؛ ظلت كذلك حتى أواخر عام 1924، حين بدا التعب عليها بسبب حملها الثاني.

تمنى كلايتون أن تلد له فتاة، تشبه أمها، في كل شيء، في جمالها، في دماثة أخلاقها، في حيويتها وحبها للعطاء، وحتى في قوة شخصيتها وقدرتها على تحدي مصاعب الحياة ومتاعبها وكان له ما أراد، أواخر ربيع عام 1925؛ احتار كلايتون كيف يعبر عن فرحته وهو ينظر إلى المولودة الجديدة، التي لها ذات لون شعر أمها وشقيقها. ولكن، منذ صرختها الأولى، كانت تقول «إني عنيدة مغامرة».

عُمِّدت ألكسندرا ماري أوساشا كما صار الكل يناديها بشوب

العمادة ذاته الذي يتعمد فيه آل كلايتون، ويعود تاريخ ارتدائه للمرة الأولى، إلى عام 1812 ورثت ساشا لون شعر والدتها، ولون عيني كلايتون، ولكن كانت مستقلة الشخصية، ترغب أن تأمر فتطاع، حتى وهي في الثانية من العمر، على عكس أخيها نيكي الذي كان كأبيه في الرصانة والتهذيب، ويتمتع بروح التحدي والوسامة كخاله.

بعد بلوغ ساشا الرابعة من العمر، تحولت هذه الطفلة الصغيرة إلى مصدر قلق لوالديها؛ اللذين لم يتمكنا من إيجاد وسيلة تمكنهما من التعامل معها. إن غضبت، تملأ البيت زعيقاً ونعيقاً، تجعل الجميع في حالة اضطراب نفسي، حتى سافا، كانت تهرب إلى الحديقة. وبقدر ما كانت زويا متواضعة في أناقتها ولا تحب التبرج، حتى أنها نادراً ما كانت تضع أحمر الشفاه، كانت ساشا تستغل غياب والدتها عن البيت، لتتسلل إلى غرفتها، وتزين عنقها، بالعقود الماسية والذهبية، وتستعمل العطور. لم يكن أحد قادراً على إرضاء ساشا، حتى المربية الفرنسية التي ما تزال في مقتبل العمر، راحت تفكر بالتخلي عن عملها، وكلما أحبت زويا أن تقسو عليها، كان كلايتون يحول دون ذلك «إنها فتاة، وجميع الفتيات يرغبن بالتبرج وارتداء ثياب أمهاتهن أو حليهن، خاصة إذا كان لديهن أم مثلك يا زويا».

تبتسم زويا «لكنها قد تتحول إلى كابوس مزعج يا كلايتون. إنها عكس شقيقها. دعني أكبح جموحها منذ الآن».

أبي محق يا أمي... إنها فتاة.

وتعود زويا إلى ذاكرتها العتيقة. تتذكر كيف لم يكن بمقدورها، دخول غرفة نوم والدتها، وكيف كان عليها إطاعتها

كان كلايتون، مثله مثل زويا، يفرط في تدليل ولديه، وساشا خاصة، «إنها تشبه أمها». ولم يكن لديه هم سوى توفير الحياة الكريمة لعائلته، أعماله تسير وفقاً للمخطط الذي رسمه وأرباحه في تزايد، أصدقاؤهم يتكاثرون، وكذلك الحفلات والرحلات، فارتبطت زويا بصداقة حميمة مع إليانور زوجة الرئيس الأميركي فرانكلين روزفلت. لم تكن إليانور جميلة الوجه، لكنها كانت دمثة الأخلاق، محبة، تقدر معنى الصداقة والعلاقات الإنسانية؛ لم تكن تتصرف كزوجة رئيس الولايات المتحدة الأميركية، بل كإنسانة عادية، فتدعو الصديقات والأصدقاء إلى موائدها وتلبي دعواتهم أيضاً.

فترة الصيف في لونغ أيلاند، كانت الفترة الأحب إلى قلوب العائلة عامة وزويا خاصة، تكثر من التنزه على الشاطيء، إن برفقة كلايتون والأصدقاء، وإن وحيدة لتسترجع ذكريات طفولتها في ليفاديا. ما تزال زويا، تحن إلى تلك الأيام، وما تزال تتذكر كل فرد من أفراد عائلتها أو عائلة القيصر، خاصة في عيد ميلاد نيقولا الذي يصادف ذكرى عيد ميلاد ألكسي. وكثيراً، ما كان نيقولا يذكرها بذلك «أوليس هكذا، كنت تتصرفين مع خالي نيقولا رحمه الله؟ إذن دعيني أنا وساشا» وكذلك يفعل كلايتون «أولم تكوني الطفلة المدلله عند أبيكِ؟ أولم يكن والدكِ يغضب أمكِ إكراماً لكِ؟ إذن دعيني أغضبك إكراماً لساشا».

خلال شهر آب. توفي دياغيليف في مدينة البندقية الإيطالية. خبر أحزن زويا.

ـ الآن، تنطوي آخر صفحة من صفحات كتاب عذابي وبؤسي. لولاه، لو لم يسمح لي بالعمل في فرقته، لما كنت تمكنت من مواجهة الجوع في باريس. ومن يدري، لربما كنت اضطررت لممارسة البغاء طلباً

للقمة العيش ليس إلا... إنه الجوع... ما أزال أتذكر كيف كان علينا ألا نأكل حتى حدود الشبع، توفيراً للطعام، ولدفع إيجار تلك الشقة الصغيرة، بالقرب من القصر الملكي.

كان هذا منذ زمن بعيد... التفتت إلى كلايتون والإبتسامة على شفتيها «حتى أتيت أنت يا حبيبي، وأنقذتني».

ـ ولكن... من يدري؟ لربما كان غيري فعل هذا أيضاً.

ـ قلت لربما... هذا صحيح، ولكني، ما كنت لأحبه، كما أحبك أنت...

أخذ كلايتون يديها بيده، وقدم فمه من شفتيها وقبلها «وأنا كذلك، ما كنت لأحب إنسانة أخرى كما أحببتكِ يا زويا».

ـ أنظر كلايتون... كم هو رائع منظر غروب الشمس هنا، إنه آخر غروب لنا في لونغ أيلاند.

ـ أعرف حبيبتي، غداً علينا العودة إلى نيويورك وعلى نيقولا الذهاب إلى المدرسة.

بعد عودتهما إلى نيويورك بأيام قليلة، تناولا الغداء إلى طاولة الرئيس الأميركي روزفلت العائد بدوره من رحلته الصيفية إلى شاطىء كامبو بيللو، وبعد أسبوع، أقام كلايتون حفلة رائعة على شرف الأمير أوبولنسكي الذي وصل مؤخراً إلى نيويورك، بصحبة الدوقة أولغا.

هكذا مرّ شهر أيلول، حفلات ورقص ولهو، وأغدق كلايتون بالهدايا على زويا، فأهداها عقدين من الألماس الخالص. لكن، ما إن أطل تشرين الأول، حتى بدأت سوق الأسهم تشهد اضطرابات مريبة،

تتفاقم يوماً بعد يوم. لم يشأ كلايتون الذي كان وظف كل أمواله في هذه السوق، آملاً بمضاعفة ثروته، إعلام زويا بما يجري، معتقداً أنه لا بد وتعود السوق إلى حالتها الطبيعية؛ لكن اعتقاده لم يكن في محله. فيوم الخميس، الرابع والعشرين من الشهر، كان اليوم الأسوأ. هبطت أسعار الأسهم إلى الحضيض، منذرة باقتراب هبوب العاصفة التي ستقضي على مدخرات الكثيرين من كبار رجال الأعمال والمتمولين الأميركيين، وكلايتون واحد منهم.

يوم الإثنين، كان يوم الإنهيار العاصف، أسعار الأسهم ما تزال تتدنى، وسوق العرض يفوق الطلب. تأكد كلايتون أنه خسر كل شيء. أقفلت السوق عند الواحدة ظهراً، ولمدة أسبوع، كتدبير احتياطي وفي محاولة للجم الإنهيار. ولكن.... ما العمل؟... انهار كل شيء... لم يعد يملك كلايتون سوى المنازل وما تحتويه، وحتى هذه، أثمانها لا تكفي لسداد الديون والعجز.

عابس الوجه، كان يزرع أرض غرفة النوم جيئة وذهاباً، غير قادر على تصديق ما حصل له وللآلاف غيره. منذ أسبوعين كانت الأعمال تسير إلى أحسن.. فما الذي جرى؟ تساؤلات لا تجد من يجيب عليها.

ـ ما الأمر يا عزيزي؟... تساءلت زويا. وهي غير قادرة على رؤية الإنسان الذي تحبه بجنون، ينهار أمامها، وهي لا تعرف لماذا لا تمد له يد العون.

ـ ما الأمر؟ رد كلايتون وعيناه تحدقان بالمدفأة، وكأنه يخجل من النظر إليها.

ـ كلايتون... كلايتون... نعم ما الأمر يا حبيبي؟

تقدمت منه وراحت تحدق بعينيه، فذكرها بوالدها لحظة وفاة شقيقها نيقولا.

ـ ما الأمر يا حبيبتي؟

ـ نعم... نعم... صاحت بلهجة الآمر الناهي.

ـ لقد خسرنا كل شيء... كل شيء.. كنت غبياً يا زويا.

حاول أن يشرح لها، وأن يجد مبررات لما فعله، وحاولت هي ثنيه عن البكاء. منذ تعرفت إليه لم ترى الدموع في عينيه.

ـ يا إلهي كم كنت غبياً... ماذا سنفعل الآن؟

تجمد الدم في عروق زويا... لكنها ابتسمت وهي تتذكر الثورة في روسيا، وما سببته لها، وبالوقت ذاته تذكرت حبه وحنانه، تذكرت كيف أنقذها. فأدركت أن عليها الوقوف إلى جانبه، حان وقت التعبير عن الحب.

ـ سنبيع كل شيء... سنعمل معاً... سنكافح معاً يا كلايتون...

ابتعد عنها، وعاد يذرع أرض الغرفة بخطواته، وهو يفكر بما آلت إليه حاله. خسر كل شيء... إنه إنسان مدمر...

ـ أمجنونة أنتِ؟... أنا في السابعة والخمسين من العمر... ماذا بمقدوري أن أعمل؟ سائق سيارة أجرة كالأمير فلاديمير، وتعودين أنتِ راقصة باليه؟... لقد دُمرنا... دُمرنا يا زويا، وخوفي أن يتعرف الأولاد إلى معنى الجوع...

ـ لن يكون ذلك... لن يكون ذلك يا كلايتون... تأكد أني إلى جانبك. سنبيع كل شيء. وهكذا نؤمن حياة كريمة لأولادنا... عقود الألماس وحدها كافية لإعالتنا سنوات.

مسكينة زويا. لم تكن تدري الحقيقة الكاملة، الحقيقة المرة، حقيقة أن كلايتون مدين بمبالغ طائلة، على أساس أنه يملك المال الكافي لتسديدها ساعة يطالب بها أصحابها. أما اليوم فأين هي هذه الأموال؟

ـ ولمن ستبيعين هذه العقود؟ فالكل خسر ما يملك... ولن تجدي من يملك المال ليدفع لكِ... إنها كارثة يا زويا.

ـ لا يا كلايتون... لا تقل هذا... ما نزال معاً، وما يزال أولادنا أحياء أمام أعيننا. سبق وحدثتك كيف تركت روسيا برفقة جدتي ونحن لا نملك شيئاً، إلا بضعة جواهر، كانت مخبأة في ثيابنا.. وتمكنا من الاستمرار بالحياة.

تذكر الاثنان معاناة زويا في تلك الشقة التعيسة في باريس.

ـ فكر يا كلايتون بما خسر الآخرون... فكر بالقيصر والعمة ألكسندرا... لا تبكِ... أرجوك لا تبكِ... علينا امتلاك الشجاعة لمواجهة الأمور والمتاعب.

عند المساء، كان الصمت ما يزال مسيطراً على كلايتون، فيما هي تحاول التفكير بما قد ينقذ حياة عائلتها. ليس هماً إن بعنا المنزلين الآخرين في شارع سوتون ولونغ أيلاند، وما يحتويان من أثاث فاخر وتحف، ليس هماً إن بعت كل مجوهراتي.

راحت تناديه من الغرفة المجاورة لغرفة النوم، لكنها لم تسمع جواباً. تابعت التفكير بكيفية مساعدته والوقوف إلى جانبه، إنها مستعدة للعمل كخادمة في المنازل، مستعدة لكل شيء. ليس هماً. لم تكن قلقة على المستقبل، بل على زوجها، متسائلة عن الأسباب التي تجعله لا يجيب على نداءاتها.

توجهت إلى الغرفة، فلم تجده. نزلت الدرج نحو الطابق الأسفل وهي تصرخ «كلايتون... كلايتون» ولكن كلايتون، كان جثة هامدة وسطة قاعة الإستقبال، حاولت المستحيل لإعادة الحياة إلى صدره... إنما عبثاً حاولت.

ها هي اليوم، مجدداً، تفقد إنساناً أعطاها ما لا يوصف من عطاء، ها هي تعود وحيدة، تعود إلى الفقر والعوز... وها هي الأحلام تتهاوى واحداً بعد الآخر.

في مقبرة جيسبانويسريزا، وبحضور المئات من رجال نيويورك المميزين، دفن كلايتون، لكن زويا، لم تعر اهتماماً لأحد، كانت غارقة، في دموعها وأحزانها.

الفصل الحادي والثلاثون

أثناء القداس، كان نيقولا يقف إلى جانب والدته، ممسكاً بيدها، والدموع تنهمر من عينيه. ولكن اللحظة الأكثر مأساوية، كانت حين أنشد الكورس ترنيمة آفي ماريا. لم يكن نيقولا، يدرك أن كثيرين من أغنياء نيويورك، سبقوا والده، إلى الأبدية خلال الأسبوعين الماضيين بسبب انهيار أسعار الأسهم.

في طريق العودة إلى البيت، تساءلت ساشا: «أمي لماذا مات أبي؟» أي سؤال هو هذا؟ وماذا يكون الرد عليه؟

ـ لست أدري يا صغيرتي.. أصيب بنوبة قلبية... إنه الآن في الجنة إلى جانب الرب.

ـ وهل هو الآن إلى جانب جدي نيقولا وجدتي ألكسندرا؟ قال نيقولا الصغير.

صُدمت زويا بسؤال ابنها الصغير، الذي إن دلّ على شيء، فإنما يدل على براءة الطفولة، وعلى مدى تأثر هذا الطفل بما روته أمه عن عائلتها. ها هم الذين أحبتهم يذهبون واحداً بعد الآخر. وآخرهم كلايتون الذي تمكن من جعلها تنسى مأساتها في سان بطرسبورغ وتسارسكوي سيلو، وانتشلها من البؤس الذي كانت تعيشه في باريس؛ أين هو الآن؟

هو أيضاً رحل، تاركاً لها طفلين بريئين عليها الإهتمام بهما، ولكن كيف ستخبرهما الحقيقة؟ حقيقة موت كلايتون، وحقيقة المستقبل الذي ينتظرهما؟

صرفت كل الخدم باستثناء خادمة واحدة والمربية. أما السائق، فهو بدوره، سيصبح عاطلاً عن العمل فور التمكن من بيع السيارات وأبدى استعداداً كلياً للوقوف إلى جانبها ومساعدتها في بيع الألفاروميو الخاصة بكلايتون والمرسيدس خاصتها. أما هذا المنزل فقد صار محط أنظار جميع الدائنين، ليس هماً... الهم الوحيد هو الإستمرار بتربية هذين الطفلين وإبعاد شبح الجوع عنهما. فكرت في اللجوء إلى شتى الوسائل التي تمكنها من مواجهة هذا الواقع المأساوي المستجد، فكرت بكل شيء إلا بالإنتحار أو التسلل ليلاً من منزلها هرباً من مطالبة الدائنين وإلحاحهم.

تذكرت جدتها، كم كانت شجاعة وقوية، فلماذا لا تكون هي مثلها؟ فكرت بالعودة إلى باريس، ولكن، سبق للأمير أوبولنسكي وقال إن في باريس ما يقارب الأربعة آلاف روسي يعملون سائقي سيارات أجرة، وأن المئات من النساء امتهن البغاء، إنه الجوع، يدفع المرء إلى فعل ما لم يكن يفكر فيه يوماً. أو إلى فعل ما يكره ويمقت. قبل كل هذا، عليها إطلاع الولدين، على الحقيقة، ساشا ما تزال جد صغيرة، ويصعب عليها استيعاب ما ستقوله لها. إذن لا بد من وضع نيقولا في الصورة.

ـ نيقولا... حبيبي الصغير... عليّ أن أكون صريحة معك. علينا أن ننتقل من هنا...

باندهاش واستغراب، نظر نيقولا إلى والدته.

ـ لماذا؟... بسبب وفاة والدي؟

ـ نعم... لا... الحقيقة بسبب.

ترى كيف ستقول له أننا أصبحنا فقراء، وأن هذا البيت لم يعد ملكاً لنا.

ـ لأننا نواجه صعوبات كثيرة، ولم يعد بمقدورنا البقاء هنا. نظر إليها نظرة رجل كبير، محاولاً أن يتحلى بشجاعة الرجال الأقوياء، أما ساشا فكانت تلاعب سافا؛ ومربيتها تذرف الدمع، فهي غير قادرة على وداع الطفلة التي اهتمت بها منذ ولادتها.

ـ ماما... هل هذا يعني أننا أصبحنا فقراء؟

ـ نعم... ولكن ليس بالقدر الذي تتوقعه... إنما لن يكون عندنا منزل واسع، ولا سيارات... سيكون عندنا الأشياء المهمة فقط، باستثناء بابا... ولكن سنبقى معاً... أتذكر ما قلته لك عن الجد نيقولا، والجدة ألكسندرا والأولاد؟ أتذكر كم تحلّوا بالشجاعة حين نُقلوا إلى سيبيريا؟ عرفوا أنهم خسروا أشياء كثيرة مهمة كانت عندهم، لكنهم أدركوا أن الأهم هو بقاؤهم معاً، هو أن يحبوا بعضهم بعضاً، وأن عليهم أن يكونوا أقوياء... وهذا ما سنفعله نحن، هذا ما هو مطلوب منا اليوم ياصغيري.

بكت زويا وبكى نيقولا معها.

ـ وهل سنذهب إلى سيبيريا ماما؟

ـ لا يا حبيبي... سنبقى هنا في نيويورك.

ـ أين؟

ـ في شقة تتسع لنا جميعاً...

ـ وهل ستكون شقة فخمة؟

فجأة تذكرت رسائل ماشكا من سيبيريا التي تحدثت عن المنزل الذي كانوا يقيمون فيه هناك، وكيف كانت دائماً تقول، سنجعله رائعاً.

ـ سنجعلها فخمة... أعدك بذلك.

بعين دامعة نظر إليها متسائلاً «وهل سنأخذ الكلبة معنا؟».

رغم الحزن والألم، ورغم الدموع التي تبلل خديها وكأنها قطرات مطر، ابتسمت له وهي تقول «بالطبع، سنأخذها معنا».

ـ والألعاب؟

ـ ليس كلها، هذا يعتمد على إتساع الشقة التي سننتقل إليها.

ارتسمت على شفتيه ابتسامة رقيقة «حسناً... شكراً ماما».

لكنه عاد وتذكر والده، فعادت الدموع تنهمر من عينيه وهو يتساءل «وهل سنرحل قريباً؟».

ـ أعتقد ذلك.

قبّل وجنة أمه وأمسك يد شقيقته وخرج من الغرفة تاركاً والدته تصلي لله أن يمنحها القوة التي كانت تتمتع بها جدتها وفجأة عاد ليقول «أحبك يا ماما.. أحبك».

ـ وأنا أيضاً أحبك يا نيقولا... أحبك أكثر مما تتصور يا حبيبي.

تقدم نيقولا من والدته وغمرها بيد واحدة. فيما اليد الأخرى كانت تدس شيئاً في جيب قميصها.

ـ ما هذا؟

ـ إنها قطعة النقد الذهبية التي قدمها لي والدي قبل ثلاثة أشهر... لا أنكر أني مولع بها... ولكن...

ـ ولكن ماذا يا صغيري؟

ـ يمكنك بيعها، من يدري فقد تبعد عنا شبح الفقر.

ـ لا... لا يا حبيبي.... هذه لك... إنها من والدك. تسمر مكانه محاولاً عدم البكاء «أبي لا شك يريدني أن أقف إلى جانبكِ يا أمي». أخذته زويا بين ذراعيها، قبلته بحنان وأعادته إلى غرفته.

الفصل الثاني والثلاثون

أخبار الأزمة الإقتصادية تتصدر عناوين كبريات الصحف. دعاوى طلاق، حالات انتحار، إعلانات عن بيع منازل وقصور، الحلى والجواهر تباع بالمزاد العلني، معاطف الفرو، تعرض للبيع على أرصفة الشوارع أو في ردهات الفنادق، نساء تعودن على أن يصدرن الأوامر للخدم، تحولن إلى عاملات في بيوت من نجا من الأزمة، أو في بيوت من استفاد منها... كثيرون أصيبوا بالجنون، فهاموا على الطرقات يتحدثون إلى أنفسهم، غير مصدقين ما حدث، وغير قادرين على استيعاب نتائج انهيار أسعار الأسهم في بورصة نيويورك.

كل شيء معروض للبيع، حتى أجساد النساء. إنه الجوع...زويا، التي ورثت الشجاعة عن جدتها، ما تزال حائرة في أمرها، باعت المنزل في شارع سوتون بما فيه من أثاث فاخر، بثمن بخس جداً، لم يزد عن ثمن السيارات، إلا بالشيء القليل، كذلك باعت المنزل في لونغ آيلاند، أما مجوهراتها فستباع بالمزاد العلني. استغنت عن خدمات كل الخدم، بمن فيهم مربية الأولاد التي أحست بمرارة لا توصف، كانت تتمنى لو تبقى مع العائلة ولو بدون أجر.

وفي الختام، جاء دور المنزل الذي دخلته زويا حين وصلت نيويورك، فبيع بما فيه من أثاث فاخر، ولوحاته الموقعة من أشهر الرسامين،

والسجاد العجمي، وحتى كؤوس الكريستال وأدوات الطعام المصنوعة من البورسلين الصيني. هكذا توفر لديها، بعد سداد الديون، مبلغ يكفي لإعالتها لشهور عدة، لا تتعدى التسعة، إن أحسنت التدبير، وإلا لن يكفي لما يزيد عن خمسة أو ستة أشهر.

ـ ألن نعود إلى هنا يا أمي؟ قال نيقولا وهم يغادرون المنزل، إلى الشقة الصغيرة في شارع ويست سفنتينث.

ـ لا... يا ولدي لن نعود.

ساشا، ما تزال صغيرة، ولا تهتم بشيء إلا بألعابها، وهذا ما شكرت زويا الله عليه، إذ تكفيها أسئلة نيقولا، التي تحاول إيجاد أجوبة عليها، تكون مناسبة مع عمره.

في الوقت ذاته، ما يزال هناك من يدعو للحفلات، وما يزال هناك من يذهب إلى الحفلات الراقصة في نادي السفراء. لم يعد الرقص يعني شيئاً لزويا. سبق لها ورقصت فأبهرت العيون، أما اليوم، وهي تنظر إلى نيقولا وساشا التي تتأبط لعبتها، فإنها تتذكر مأساة قصر فونتانكا، وتتذكر جدتها إيفيجينيا وشجاعتها وقوتها وقدرتها على التحمل والتحدي. إنها تتضرع لله أن تكون نسخة طبق الأصل عن جدتها.

ـ ماما... قالت ساشا وهي تصعد إلى سيارة الأجرة، فيما نيقولا، يلوح بيده مودعاً المربية، التي كانت تقف على رصيف الشارع، تحاول إخفاء نهر الدموع المتفجر من عينيها.

ـ ماما... أجيبيني... عادت ساشا تقول وهي تشد كم فستان والدتها لجلب انتباهها.

ـ آسفة عزيزتي... ماذا تريدين أن تقولي يا ساشا؟

ـ من سيعتني بنا بعد الآن؟

سؤال، إن عبّر عن شيء، فهو يعبّر عن عدم اهتمام ساشا بوداع مربيتها، وتركها للمنزل، بقدر ما يعبّر عن اهتمامها بمن سيعتني بها. إنها أنانية الطفولة التي أثارت انتباه نيقولا.

ـ أنا يا صغيرتي... أنا سأعتني بك...

ـ أنتِ؟ تساءلت ساشا.

نظر نيقولا إلى أمه وعلى شفتيه ابتسامة ذكّرتها بابتسامة كلايتون، إنها ذكرى مؤلمة... ولكن، كل شيء، الآن، يذكرها، بما خسرت في روسيا.

ـ أنا سأمدّ لك يد العون يا أمي. قال نيقولا وهو يشد على يدها، ويحاول إخفاء دموعه، والتفت إلى شقيقته «سأهتم بكِ يا ساشا».

تباً لهذه الحياة، جعلت الطفل رجلاً، فجأة أحسّ نيقولا، أن عليه الإهتمام بعائلة. خلال شهر واحد، تحولت حياة زويا من النعيم إلى البؤس، من السعادة إلى التعاسة، ولكن عليها أن تقاوم... عليها البحث عن عمل... عليها السعي لإعادة جزء مما خسروه، عليها أن تكون الأم والأب لهذين الصغيرين، في آن.

ـ وستعدين لنا الطعام؟ عادت ساشا لتتساءل وهي تمسد شعر لعبتها أنابيلا. أما ما تبقى من لعب، فهو موضوع قرب سريرها في الشقة الجديدة. كانت زويا، قد هيأت كل شيء قبل الإنتقال، لتجعل طفليها يشعران بشيء من الراحة ساعة دخولهما، وليبدو أن كل شيء مألوف

لهما... ولكن لا بد من أن ذلك سيكون صعباً، إنما فعلت ما يجب عليها أن تفعله.

ـ ما هذه الرائحة؟ قالت ساشا وهي ما تزال تتأبط أنّابيللا وتصعد الأدراج نحو المسكن الجديد، ونيقولا إلى جانبها وزويا تسير أمامهما، والسائق يحمل الحقائق. إنها لحظاته الأخيرة مع هذه العائلة... هنيهات ويودع عشرين سنة مضت لينطلق في البحث عن حياة جديدة، لن تكون حُكماً، كسابقتها. أين سيجد أرباب عمل يعاملونه، كواحد من أفراد العائلة؟ يجلسونه معهم إلى المائدة. مثله، مثل بقية الخدم.

لا سيارات خاصة بعد اليوم، ولا سيارات أجرة. بل وسائل النقل العام.

أدخلت زويا الطفلين إلى غرفتهما. لكل منهما سريره الخاص، وإلى جانب سريره، رصفت ألعابه. فوق رأس ساشا لوحة زيتية قدمتها لها المربية، وإلى جانب سرير نيقولا صورة لكلايتون في زيه العسكري. أما هي، فقد جلبت جميع الصور العائدة لها ولكلايتون والعائلة، وخاصة صور الذكريات مع عائلة القيصر، إن في سان بطرسبورغ، أو تسارسكوي سيلو، أو على اليخت، أو في ليفاديا وبالطبع، لم تنسى بيضة الفصح الذهبية، أما مجوهراتها فستباع بالمزاد العلني، تسديداً لما تبقى من ديون؛ عقود من الألماس، وتيجان الرأس المرصعة بشتى أنواع الأحجار الكريمة، وخواتم يندر وجود مثيل لها، ستباع كلها بالمزاد العلني، ولقاء مبالغ لا تساوي واحداً من المئة من ثمنها الأساسي. فعلاً مصائب قومٍ، عند قوم فوائد.

ـ وأين ستنامين أنتِ يا أمي؟ تساءل نيقولا، بعد أن جال في الشقة

الجديدة ولم يجد غرفة نوم ثانية، بل غرفة، فيها طاولة صغيرة، كانت في المنزل القديم، وكنبة طويلة.

ـ سأنام هنا... وأشارت زويا إلى الكنبة وأضافت «إنها جد مريحة ولطالما نمت عليها في السابق».

حاولت زويا أن تكبت غضبها مما آلت إليه حالتها، ولم تفصح عن ملامتها لكلايتون علناً، بل أبقت ذلك في صدرها. لماذا لم تكن واعياً مدركاً لخطورة ما فعلت؟ لماذا لم تفعل كما فعل غيرك الذين حسبوا للتقلبات حساباً؟ وحيدة تركتني، أواجه ما خلفته من مصاعب ومتاعب... وما نفع كل هذه الأسئلة، فالذي حدث قد حدث، وعليها مواجهة الواقع المستجد، بصبر وأناة، بقوة وعزم، بشجاعة إيفيجينيا التي كانت تنظر إلى والدتها وهي تحترق في قصر فونتانكا، دون أن تحاول مساعدتها لإقتناعها أنه لا مجال لذلك، بل أمسكت يدها ومضت بها إلى تسارسكوي سيلو إنقاذاً لحياتها. هذا، ما على زويا فعله اليوم، عليها النظر إلى المستقبل، لا التفكير بالماضي.

ـ يمكنك النوم على سريري يا أمي... وأنا أنام هنا.

ـ لا يا حبيبي... سأكون مرتاحة هنا... إن أردت مساعدتي، فما عليك إلا الإعتناء بساشا، ساعة أقوم بإعداد الطعام أو أي عمل آخر.

لا بد من إيجاد عمل. قد تعمل بائعة في إحدى المحلات، ولكن، من يعتني بساشا بغيابها؟ نيقولا سيذهب إلى المدرسة الرسمية القريبة، التي تضم أبناء ساكني الأكواخ المنتشرة على ضفة نهر هدسون، والتي يبدو، أن العديد من ساكنيها، كانوا من رجال الأعمال ووسطاء البورصة والمحامين، وبين ليلة وضحاها تحوّلوا من قوم يتنعمون بالرفاهية، إلى قوم

يسكنون هذه الأكواخ، يشعلون النار خارجها، إما لإعداد الطعام، أو للتحلق حولها طلباً للدفء في هذا الطقس البارد، وفي الليل، يخرجون، بحثاً عن طعام، في أي مكان، حتى ولو في براميل النفايات، ولجمع أشياء قد يستفيدون منها، إما لحاجاتهم الخاصة، أو لبيعها والإستفادة من أثمانها. نسيت زويا مأساتها. حين رأت أطفال هؤلاء الناس والجوع انعكس نحولاً على أجسادهم واحمراراً على وجنتاهم من شدة البرد، ناهيك عن الثياب الممزقة التي يرتدونها، والأقدام الحافية. وبالمقارنة مع هذا، فولداها يعيشان في الجنة، وإن في شقة صغيرة.

لم تمنعها هذه المقارنة، من التفكير بضرورة إيجاد عمل. فما لديها من مال، ينضب يوماً بعد يوم؛ ولماذا لا تبحث عن عمل ليلي، حين تكون ساشا نائمة، وبمقدور نيقولا رعايتها أثناء غيابها، يلاعبها، يروي لها الحكايا....

حاولت العمل بالمطاعم، في المقاهي، ووافقت على كل الشروط التي فرضت، من جلي الصحون، إلى تنظيف الأرض، وعدم مشاكسة الزبائن،ولكن... عبثاً حاولت. فكرت بممارسة الجنس لقاء المال، وتذكرت ما كان يقال عنها قبل أول لقاء لها مع الدوقة أولغا والأمير أوبولنسكي، ولكن ذكرى كلايتون حالت دون الإستمرار في هذا التفكير، فهو لو كان حياً، لكان مستعداً على قتل كل من يحاول لمس جسدها، حتى ولو كان ذلك تأميناً للقمة عيش الأولاد. مع أن كثيرات غيرها، يمارسن هذا الآن، وبمعرفة أزواجهن. الجوع كافر، فماذا عساي أفعل؟ لم تعد قادرة على العودة إلى رقص الباليه، فهي تجاوزت الثلاثين من العمر، ومن ثم، مضى زمن طويل ولم ترقص... إذن، لم يعد أمامها سوى الرقص الخلاعي، الرقص وهي شبه عارية. ولماذا لا؟ فهي مستعدة

للقيام بأي شيء إكراماً لعيني نيقولا وساشا، وتعرف كيف تحافظ على وفائها لكلايتون. قصدت ملهى زيغفيلد لم تفاجأ لرؤية نساء شبه عاريات.

ـ هل أنتِ راقصة؟ سألتها المرأة المسؤولة عن الملهى.

ـ كنت.

ـ أين؟

تنبهت إلى أنها ترتدي ثياباً جد محتشمة. ولكن من أين لها الثياب التي تكشف عن الساقين والنهدين؟

ـ كنت أرقص مع الفرقة الروسية للبالية في باريس.

باليرينا؟... إفهميني سيدتي، نحن لسنا مؤسسة رعاية اجتماعية لرعاية راقصات البالية المتقاعدات... هنا قاعة رقص خلاعي إنما دونما مشاكل مع الزبائن.

ـ أنا ما أزال في مقتبل العمر... وسأحاول فعل كل ما تطلبين.

ـ أنا متأكدة أنكِ لم تفعلي هذا من قبل.

المرأة محقة فيما تقول، ولولا الظروف الصعبة، لما كانت ترضى أن ترقص عارية الساقين والنهدين.

ولماذا لا تسمحين لي أن أرقص أمامكِ... أرجوكِ دعيني أجرب.

إلى جانب المرأة المسؤولة، كان يقف رجل في متوسط العمر يمج سيجارة وينظر إليها بتعالٍ.

إسمعي سيدتي... معظم الفتيات اللواتي يرقصن هنا مصابات بالحصبة، وماذا بإمكاني أن أقول للزبائن الذين يدفعون مبالغ لا بأس بها؟ أنظروا إلى أجساد الراقصات المغطاة بالبثور...

لم تسمح له أن يكمل حديثه، إذ أسرعت بالقول «أني على استعداد لإجراء التجربة».

ـ هل أنتِ راقصة محترفة؟

ـ نعم.

وتدخلت المرأة «باليرينا... راقصة باليه».

ـ هل سبق لكِ وأصبتِ بالحصبة؟

بدا واضحاً، أن هذا هو الأهم، فهم يخافون أن تصاب بالعدوى من زميلاتها، وهذا يعني نقصاً في عدد الراقصات، وبالتالي نقصاً في عدد الزبائن.

ـ نعم... كان ذلك منذ سنوات.

التف الرجل إلى المرأة «حسناً يا ماغي، دعيها ترقص أمامكِ، ولا مانع أن نستخدمها حتى عودة المريضات».

كما تشاء... قالت ونادت رجلاً أسود البشرة، اسمه جيمي وطلبت منه أن يعزف على البيانو.

ـ حسناً صغيرتي، ماذا تريدنني أن أعزف لكِ؟

سؤال غريب. وماذا ستقول له؟ إعزف لشوبان أم سترافنسكي أم لبيتهوفن.

ـ ماذا تعزف أنت؟

ابتسم الرجل وهو ينظر إليها بعين الشفقة. أدرك أنها إمرأة من طبقة راقية. اضطرتها الظروف للعمل، ليس عجباً، فهناك أمثالها ممن اتخذن من البغاء مهنة. أحس أن عليه مساعدتها، فهي تبدو كطفلة بريئة.

ـ من أي بلد أنتِ يا صغيرتي؟

ـ أنا روسية الأصل، لكنني أقيم هنا منذ انتهاء الحرب.

ـ أصدقيني القول. هل سبق لكِ ومارستِ الرقص.

ـ كنت راقصة باليه.

ـ كنتِ؟... منذ متى؟

ـ منذ أحد عشر عاماً.

ـ لكن الأمر مختلف هنا... الزبائن لا يهتمون برقص الباليه، بل بالنظر إلى أجساد الفتيات، وبحركاتهن الإغرائية.

إذن ما عليكِ، إلا النظر إلى الزبائن بعين الشهوة، وهز ردفيكِ، وإظهار ساقيكِ وجزء من نهديكِ... وهذا يتطلب لباساً خاصاً.

ـ آسفة... أنا...

لم تتمكن زويا من إكمال حديثها، بسبب تدخل ماغي «إسمع جيمي أنا شخصياً لا أراها قادرة على الرقص. لكن شارلي أصر، على إجراء الإختبار».

ـ حسناً دعيه ينظر إليها وهي ترقص، أوليس هو المدير؟

تضرعت زويا لله وسألته أن يساعدها، إنها بحاجة للعمل، ليس من أجلها هي، بل من أجل طفليها.

ـ «هزي ردفيك» قال شارلي... دعيني أرى ساقيكِ.

رفعت زويا تنورتها خجلى، لكن نظرات جيمي كانت تشجعها على إظهار المزيد.

ـ نحن هنا ليس في دير للراهبات. زعق تشارلي وتابع. والزبائن لا يأتون إلى هنا، لإيفاء نذور أو للصلاة...

ـ سأحاول فعل المستحيل لإرضائهم.

ـ حسناً عودي عند الثامنة ليلاً.

تقدم جيمي وغمرها، نظر إليها، فإذ به يرى الدموع في عينيها لا تقلقي يا صغيرتي... أنا هنا إلى جانبكِ سأكون الملاك الحارس»

ـ لست أدري كيف أشكرك... أنا فعلاً بحاجة للعمل... أنا أم لطفلين... أنا... أنا...

مد جيمي يده ووضعها على فمها «لا تبكي يا صغيرتي أراكِ ليلاً...».

خرجت زويا، لا تدري إن كانت سعيدة أم حزينة. أحست بالفرح لحصولها على العمل، لكن صدى كلمات شارلي، ما يزال يتردد في أذنيها «نحن هنا لسنا في دير للراهبات. والزبائن لا يأتون لإيفاء نذور أو للصلاة... هزي ردفيكِ... دعيني أرى المزيد من ساقيكِ... آه أنظري يا ماغي لها ساقان جميلتان».

ليس هماً، فأنا أعرف كيف أحمي نفسي منه ومن الزبائن الذين سأرقص لهم، ولكن ماذا سأقول لنيقولا؟ لن أقول الحقيقة، بل سأتذرع بألف سبب.

ـ إلى أين ذاهبة يا أمي.

ـ أنا مضطرة للخروج يا صغيري... إنتبه لساشا فهي نائمة في سريرها. لا تسهر كثيراً.

أخذته بين ذراعيها وقبلته بحرارة، وفي داخلها شعور أنها ذاهبة لتعلّق على حبل المشنقة.

ـ ومتى ستعودين؟

ـ لن أعود قريباً..

ـ وهل من سوء يا أمي؟

إنه طفل فطن وذكي... جعلته الظروف رجلاً وهو ما يزال بحاجة للطفولة. إنه القدر المشؤوم الذي أصابه، وأصاب الكثيرين غيره.

ـ لا شيء من هذا القبيل يا ولدي... أعدك بالعودة ، بأسرع ما يمكن.

ثانية عادت وقبلته وأوصته بأخته وبنفسه، ومضت إلى عملها وفي رأسها ألف سؤال وسؤال عما ينتظرها. تباً، لهذه الأيام التي جعلتها ترقص عارية الساقين، وتهز ردفيها لأناس لا هم عندهم، سوى الإستمتاع، برؤية أجساد النساء، ومن يدري، فقد يتحرش أحد بها؟ «لكل حادث حديث» قالت لنفسها، فهي تمتلك القدرة على حماية نفسها، ولن تسمح لأي أحد أن يلمس جسدها، مهما كان الثمن.

عند رفع الستارة، وبداية عزف الموسيقى، صعدت زويا إلى خشبة المسرح، فأبدعت، وأيقنت، أن هناك فرقاً كبيراً بين مشاهدي رقص الباليه، والزبائن هنا، الذين لا يهتمون بتقنية الرقص، إلا إذا كان خلاعياً وماجناً. إنهم يأتون من أجل جمال الفتيات وعريهن، وقدرتهن على إثارتهم.

فور الإنتهاء من أداء وصلتها، عادت زويا إلى شقتها لتجد نيقولا غارقاً في نومه إلى جانب شقيقته، ارتسمت على شفتيها ابتسامة وهي تنظر إلى الملاكين النائمين، لكن نيقولا ذكرها بكلايتون، إنه يشبهه لا بالوجه وحسب، بل وحتى في طريقة نومه، في عدم تذمره، حتى أنه، لم يبدِ أي اهتمام بنوعية فطور اليوم التالي، بل أسرع إلى المدرسة بعد أن قبّل يد أمه ووجنة ساشا.

بعد عام، دون انقطاع، زاد شارلي أجر زويا، دلالة رضاه عن أدائها وحسن تصرفها «فعلاً إنها فتاة تتمتع بمميزات خاصة. تجيد الرقص، تجذب عيون الزبائن، تعرف كيف تثير غرائزهم دون أن تسمح لأحد أن يتحرش بها، وإن حدث، وحصل هذا، فهي تعرف كيف تصده، دون أن تؤذي مشاعره وأحاسيسه» على حد تعبير شارلي.

جيمي، الرجل الأسود العجوز، كان يهتم بها كابنة له، لم يسمعها يوماً، تتحدث عن مغامرة، أو تضحك ضحكة إثارة، ونادراً ما كانت تسمح لزميلاتها أن يروين على مسمعها مغامراتهن مع أصدقائهن الشباب، وعن معاكسات الرجال لهن. كان يعرف أن لا هم لها إلا طفلاها، من أجلهما تتحمل العذاب، ومن أجلهما ترقص شبه عارية، وتسمح للسهارى بالتحديق بساقيها الجميلتين أو باستدارة ردفيها.

بعد ظهر ذات يوم، تساءل نيقولا «ألن نرى أصدقاءنا القدامى بعد الآن؟».

ـ لست أدري يا عزيزي.

بعد ظهر اليوم ذاته. اصطحبت زويا طفليها لحضور حفل افتتاح مبنى الأمباير ستيت. في الطابق الثاني بعد المئة، حيث يمكن للزائرين رؤية نيويورك، وقفت زويا، تمسك نيقولا بيد وساشا بالأخرى؛ كان الطفلان سعيدين جداً، وهي كذلك، إلا أن التفاتة منها نحو الجادة الخامسة، حيث كانت العائلة تقيم، أعادت التساؤلات إليها وأثارت الذكريات، ذكرياتها مع أناس، لم يتقبلوا وجودها بينهم، لاعتقادهم بأنها كانت تعمل راقصة عادية في إحدى حانات باريس قبل زواجها من كلايتون، ولكن ها هي اليوم تقوم بذلك. أين هن اليوم، أولئك اللواتي انحنين أمامها احتراماً وتقديراً، بعد أن عرفن من تكون، وصرن يتباهين، أن أسماءهن مدرجة على لوائح المدعوات لحفلاتها؟

حتى اليوم ما تزال الصحف، تكتب عن مآسي تلك العائلات التي دمرتها الأزمة الإقتصادية. مسحت زويا دمعة عن وجنتها وهي في طريق العودة إلى الشقة، وساشا تسير أمامها بشعرها الأشقر الحريري، ونيقولا ممسك بيدها، لكن هذه الدمعة عادت وانهمرت حين لمحت، إحدى سيدات تلك العائلات تبيع التفاح على الرصيف وتذكرت الدوقة أولغا والأمير أوبولنسكي.

في الثاني من تموز، 1931 اجتاحت نيويورك موجة حر خانقة. لم تعرفها من قبل، منعت النوم عن الأغلب الأعم من سكان مدينة

الحرية. تركت نوافذ الشقة مشرعة المصاريع. حين حان وقت ذهابها إلى العمل، وساشا ما تزال تلاعب لعبتها.

ـ لا تدع أختك تقترب من النافذة يا نيقولا...

إلتفت نيقولا الذي لم يكن يرتدي إلا سرواله الداخلي إلى أمه والإبتسامة على شفتيه، «لا عليكِ يا أمي... سأهتم بها» قبّلت وجنتيهما ومضت. أحست أن النار تصعد من الطرقات فتمنت لو بمقدورها البقاء إلى جانب ولديها. في داخلها إحساس خفي، يدفعها للعودة. إحساس يقول لها، إن خطراً يحدق بطفليها...

حتى المسرح، وبسبب موجة الحر، كان شبه خالٍ من الزبائن. لم يكن عددهم، يتجاوز عدد أصابع اليدين، لم يتجرأ أحد على الخروج من منزله. إنه حرّ خانق، رقصت زويا والإحساس بالخوف، مسيطر عليها، حتى أنها أسرعت الخطى عائدة. وازداد خوفها حين سمعت صفارات سيارات الإطفاء تجوب الشوارع وما إن وصلت إلى الشارع حيث تقع الشقة، حتى رأت ما كانت تخشاه، دون أن تدري ماهو. ألسنة النار تلتهم البناية، ورجال الإطفاء يضربون طوقاً حولها، يمنعون الناس من الإقتراب. حاولت زويا، إختراق الطوق وهي تصرخ بأعلى صوتها «نيقولا.. ساشا... لا... لا...».

تصدى لها أحد رجال الإطفاء «أرجوكِ سيدتي... ابتعدي».

ـ طفلاي... طفلاي.. وتقول لي ابتعدي؟... أرجوك دعني، علني أنقذهما.

أصوات اللهب، مصحوبة بأصوات تكسر الزجاج وانهيار بعض الجدران، تصم الآذان، ورائحة الدخان، تسبب بالاغماء للكثيرين،

لكن زويا، ما تزال تحاول اختراق الطوق المضروب من قبل رجال الإطفاء الذين، يقتحمون ألسنة اللهب بشجاعة نادرة، لإنقاذ من ما يزال من السكان محاصراً، في الداخل.

ـ في أي طابق تسكنين يا سيدتي؟

ـ في الطابق الأعلى.. أرجوك دعني أكمل طريقي.

عبثاً حاولت زويا التقدم ولو خطوة واحدة. ماذا لو كانت النار قضت على طفليها؟ لا شك سيكون هذا اليوم آخر أيام حياتها... ولماذا تعيش بدونهما؟ حياتها كُلُّها مآسٍ. في روسيا خسرت العائلة والرفاهية، وفي باريس خسرت جدتها، وفي نيويورك خسرت كلايتون. والآن؟

كانت اللحظات تمر وكأنها أيام بل أسابيع، عيناها شاخصتان نحو رجال الإطفاء الذين يقتحمون النار ويعودون حاملين بعض السكان، المصابين بضيق التنفس، فيتولى رجال الإسعاف أنعاشهم، ولكن أين ساشا ونيقولا؟ كاد يغمى عليها وهي ترى جزءاً من سقف البناية ينهار، مجدداً حاولت اقتحام المبنى متسللة بين رجلي إطفاء يحاولان إنعاش امرأة مغمى عليها، فإذا بها أمام أحدهم يحمل طفلاً بين ذراعيه. إنه نيقولا يلوح بيده وينادي «أمي... أمي.. أين كنتِ؟»

ـ أنا هنا يا حبيبي.

ـ أنتَ هنا؟ أخذته بين ذراعيها وهو ما يزال يحدق بها وكأنه غير مصدق أنه على صدر أمه لكن عيني زويا، ما زالتا عالقتين برجال الإطفاء الخارجين من المبنى، الذين ما إن عبروا الشارع إلى الجهة

المقابلة، حتى سمع دوي انفجار ناتج عن انهيار قسم من المبنى، مخلفاً جداراً من الغبار والدخان.

ارتعبت زويا... «أين ساشا؟» لكن ساشا كانت تقف على الرصيف الآخر تصرخ بأعلى صوتها «ماما... نيقولا» إنها تستغيث بأي إنسان، ركضت زويا وركض نيقولا معها، ضمتها إلى صدرها وأشبعتها تقبيلاً.

لربما... لربما.. هذا هو عقابي لأني تركتهما وذهبت إلى العمل، إنما كيف لي تأمين مستلزمات حياتهما؟

على الرصيف، كان الثلاثة، ينظرون حولهم، فلا يرون إلا أناساً ينتابهم الرعب. وجداراً من الغبار والدخان «حمداً لله ما يزالان أحياء... ما يزالان قربي» رددت هذا القول أكثر من مرة وهي تتذكر تلك الليلة التي التهمت النيران فيها قصر فونتانكا وجسد أمها أيضاً.

عند الصباح، طلب رجال الإطفاء من سكان المبنى عدم الدخول قبل التأكد من عدم خطورة الدخول، حفاظاً على سلامتهم، فلا يعقل أن يكونوا قد نجوا من النار، ليموتوا بانهيار أحد الأسقف أو الجدران. تذكرت زويا صور كلايتون وماشكا وجميع أفراد عائلة القيصر، والأهم بيضة الفصح الذهبية التي قد تضطر لبيعها يوماً ما. لكن وجود طفليها إلى جانبها أنساها كل شيء.

بعد تمضية الليل، بضيافة أحد الجيران، اتصلت زويا بالمسرح لتعلمهم بما حدث، وبرغبتها في ترك العمل، وعند المساء، ذهبت لتقبض ما يستحق لها من أجر، إنه مبلغ يكفي لشراء بعض الثياب للأولاد، بدلاً من تلك التي احترقت.

«لست أدري ماذا أقول» قال جيمي وهو يشد على يدها، وفي عينيه، دموع تأبى أن تنذرف.

ـ نعم... لا أنكر أني بحاجة للعمل لإعالة طفليّ، ولكن لن أعمل ليلاً... ليس بمقدوري تركهما برعاية الجيران الذين سمحوا لنا بالعيش معهم، حتى تأمين مسكن جديد... ومن ثم... لم تتمكن زويا من إكمال ما تريد قوله، أنه لو حدث أي مكروه، لأي منهما، فهذا يعني موتها المحتم.

ـ إذهبي يا ابنتي، وابحثي عن عمل يليق بكِ. الحقيقة، مكانكِ ليس هنا.

لم تكن قد أخبرته شيئاً، عن ماضيها، لكنه، بحدسه أدرك، أنها سيدة مجتمع، مكرهة على القيام بعملها هذا. ليس رغبة في العري، بل منعاً لتشرد طفليها.

ـ أوليس عندك أهل أو أقارب؟ ألا يمكنكِ العودة إلى روسيا مثلاً، هكذا تكونين بالقرب من أقاربكِ وعائلتكِ.

مسكين جيمي!!! لم يكن يدري، أنها فقدت كل هؤلاء الذين يتكلم عنهم، ولم يتبقَ لديها سوى هذين الطفلين.

ـ سأتدبر عملاً آخر.

ـ والآن... أين ستقيمين؟

ـ إننا الآن عند أحد الجيران كما سبق وقلت لك.

ـ أرجوكِ يا ابنتي، أخبريني عنكِ وعن الطفلين، من حين لآخر.

قبلته على وجنته، وشقت طريقها عائدة، دون التفاتة إلى الوراء، تماماً

كما غادرت شقتها في باريس، لتنتقل إلى الفندق والعيش مع كلايتون، لكنها فوجئت، أن جيمي دس في حقيبة يدها مئة دولار زيادة عما يستحق لها من أجر، كمساعدة، للتمكن من تدبير أمورها؛ وكالعادة، تنهدت وبكت، وصممت أن تعيد له هذا المبلغ، ساعة تتمكن من إعادته، أما الآن فهي بحاجة إليه، هي بحاجة حتى للدولار الواحد، خاصة بعد أن سمح رجال الإطفاء لها ولجيرانها، بتفقد شققهم في البناية التي كانت، قبل أسبوع، طعماً لألسنة اللهب.

سافا، ممددة تحت الكنبة المحترقة في غرفة الجلوس، بدون أية حركة، لقد قضت اختناقاً... حدقت زويا بجثة كلبتها التي جلبتها معها من سان بطرسبورغ، وهزت رأسها أسفاً على هذا المصير؛ لكن ناراً هبت في صدرها. «ماذا لو كان أصاب أحد طفليها ما أصاب سافا؟».

من حسن حظها، أن النار لم تلتهم ما هي بحاجة إليه، فبيضة الفصح الذهبية ما تزال كما هي وكذلك الصور وبعض الثياب، لكن رائحة الدخان تفوح منها.

الفصل الثالث والثلاثون

بعد شكر الجيران الذين استضافوها مع ولديها، انتقلت زويا إلى غرفة في أحد الفنادق القريبة؛ دفعت أجرها، مما قدمه جيمي؛ وما تبقى اشترت به ثياباً للطفلين، لا تفوح منها رائحة الدخان وثوبين جديدين لها.

ذات يوم، وهي، كالعادة، تتناول طعام الغداء في أحد المطاعم، قرأت إعلاناً عن وظيفة في محل لبيع الألبسة الراقية. لم تشأ زويا، إضاعة الوقت، بل ارتدت فور عودتها إلى الفندق ثوباً جديداً.

ـ إلى أين ذاهبة يا أمي؟ تساءل نيقولا.

ـ بحثاً عن عمل.

ـ حدّق الطفلان باندهاش «وهل أنتِ قادرة على ذلك؟» تساءلت ساشا.

ـ سأحاول يا عزيزتي.

استعادت زويا ذكرياتها مع ماري وهما تتسوقان في أرقى محلات بيع الألبسة النسائية في روسيا، وتذكرت، كيف كانت البائعات يتصرفن، في محاولة لإقناعهما بشراء هذا الفستان، أو ذاك الحذاء، أو

تلك القبعة. أوصت نيقولا بساشا، بعد أن أفهمته أنه لا بد من إيجاد عمل يؤمن لهم إستمرارية الحياة، ولو بأدنى مستلزماتها.

فور وصولها إلى المحل المقصود، أجالت زويا النظر بالبائعات فإذا بهن يرتدين ثياباً جميلة، تدل، على مدى اهتمام صاحب المحل بمظهر موظفاته. أين ثيابها من هذه التي يرتدينها؟

ـ كيف لي أن أخدمكِ سيدتي؟ قالت سيدة عجوز بيضاء الشعر وتابعت «أتبحثين عن شيء معين؟» كانت المرأة تتكلم الإنكليزية بلكنة فرنسية واضحة. ابتسمت زويا، وهي تستدير نحوها، لم تكن ابتسامتها تعبّر عما تعانيه من اضطراب نفسي، بل ابتسامة تضرع لله، وأجابتها بلغة فرنسية سليمة «هل بإمكاني مقابلة المدير؟».

ـ رائع... كم اشتقت لسماع أحد يتكلم الفرنسية... أنا هو المدير... هل ترغبين بالمساعدة؟

ـ نعم...

قالت زويا بهدوء ورصانة، «أنا الكونتيسة زويا أوسيبوف أبحث عن عمل» كانت متأكدة، أن لا أحد غير السيدة العجوز يصغي إلى ما تقول.

نظرت العجوز إليها «أهلا» لكنها بالوقت ذاته، كانت حذرة مما تسمع، كثيرات هن الروسيات اللواتي يدعين أنهن أميرات، أو ينتمين إلى عائلة القيصر، حتى الخادمات كن يفعلن ذلك، لكن للعجوز نظرة لا تخطيء. ومن خلال هذه النظرة، ورغم الثياب العادية، التي ترتديها زويا، تأكدت أنها صادقة وأنها فعلاً كونتيسة.

ـ أرجوكِ... إتبعيني إلى مكتبي سيدتي...

لم يكن اللقب يعني لها شيئاً، وفي الوقت ذاته، كانت تعي أنه يعني الزبائن، فلا شك سيتباهين أن الكونتيسة أوسيبوف هي من اختارت لهن هذه الثياب.

في غرفة المكتب، وعلى مقعد جلدي وثير جلست زويا، فيما جلست العجوز على مقعد مواجه لها، وأفهمتها أنها هنا، تنافس محلات شانيل، وأنها فرنسية تدعى آكسيل دبوي، جاءت إلى نيويورك منذ سنوات وافتتحت هذا المحل لبيع الألبسة لنساء أميركا الراقيات الثريات، وبالفعل صرن من زبائنها، أو من زبائن «آكسيل» كما قالت العجوز التي كانت تراقب كل حركة من حركات زويا، وتصغي بانتباه كلي لكل كلمة تقولها.

كانت العجوز، في سرها، تفكر في مدى تأثير وجود كونتيسة على حركة البيع، فهي تعرف زبائنها واحدة واحدة، وتعرف، أن اللقب يؤثر فيهن.

ـ هل لديكِ أية خبرة بمجال بيع الألبسة؟ تساءلت المرأة الفرنسية وهي تمعن النظر في زويا، التي ترتدي فستاناً رخيص الثمن، وحذاء بالياً، لكن جلستها، وحركات يديها وأسلوب حديثها، وحتى تطاير شعرها، تدل على أن طالبة العمل هذه، هي كونتيسة فعلاً، لا بل أميرة.

ـ لا... يا سيدتي... فور تخرجي من الثانوية، اندلعت الثورة، فهربت مع جدتي إلى باريس... ولن أقول سوى الحقيقة.

كانت زويا مستعدة، للسجود عند ركبتي العجوز وتقبيل يديها، في سبيل الحصول على الوظيفة إكراماً لعيني نيقولا وساشا. لم تتمكن زويا

من قراءة تعابير وجه العجوز وهي تسكب الشاي في كوب فضي ذكّرها، بتلك الأكواب والأطباق في قصر فونتانكا وتسارسكوي سيلو. كانت المرأة عجوز، ما تزال تراقب حركات وتصرفات زويا، خاصة وهي ترتشف الشاي، إنها لأمور مهمة بالنسبة لها وللزبائن.

ـ وفي باريس... ماذا عملتِ؟

ـ راقصة في الفرقة الروسية للباليه... هذا ما كنت أجيده. وكان علي العمل لإعالة نفسي وجدتي.

ـ وبعد ذلك؟

ـ تزوجت أميركياً وأتيت إلى هنا، كان ذلك منذ اثني عشر عاماً، وبالتحديد بعد توقيع إتفاقية السلام عام 1919، منذ سنتين، توفي زوجي، كان يكبرني سناً.

لم تخبرها من هو زوجها ولا كيف مات، حتى بعد موته ترغب بالحفاظ على كرامته.

ـ عندي ولدان، صبي وفتاة، عليّ إعالتهما، خاصة بعد أن قضى حريق على كل ما نملك.. أيكفي هذا سيدتي؟ أنا... بحاجة للعمل... إني بعمر لا يسمح لي بالعودة للعمل كراقصة بالية. أما عن بيع الألبسة، فعندي فكرة بسيطة، اكتسبتها من خلال مراقبتي للبائعات في المحلات في روسيا قبل الثورة... في المحلات التي كانت ترتادها الأميرات ونساء العائلة الحاكمة.

ـ هل أنتِ من عائلة رومانوف؟

كثيرات هن إدعين ذلك، ولكن، في تصرفات هذه الفتاة، وفي

أسلوب حديثها، ما يجعل الفرنسية العجوز، تصدق، أنها قد تكون من عائلة رومانوف.

أجابت زويا، وهي ترفع كوب الشاي إلى شفتيها «نعم... وقد ربيت في قصور القيصر رحمه الله» لم تقل زويا أية كلمة أخرى. كان جوابها مقتضياً جداً، وهذا ما لفت انتباه السيدة العجوز، فالأخريات، كن يسترسلن في الحديث عن عائلة رومانوف وبذخها وأسلوب حياتها. والذي لفت انتباهها أكثر هو أن زويا تنهدت وهي تجيب على سؤالها، وأنها أزاحت وجهها عنها لتمسح دمعة بللت خديها، حتى لا ترى العجوز ذلك.

تأكدت العجوز، من خلال حدسها، من صدق ما سمعته.

ـ ماذا لو عملت لفترة تجربة يا سيدتي.. عفواً يا كونتيسة... هذا لقب مهم جداً بالنسبة لي ولزبائني.

ـ لا مانع عندي...

أحست زويا بفرح عظيم. وأخيراً، ها هي تقوم بعمل محترم، لا يمنعها من الإعتناء بولديها والبقاء إلى جانبهما في الليالي. أثناء النهار، هي في عملها، وهما في المدرسة، وفي الليل، يجتمع شمل العائلة.

ـ إني جد شاكرة... صدقيني جد شاكرة.

ـ حسناً لنرى... متى ترغبين البدء في العمل؟

ـ ما رأيكِ مطلع الأسبوع الآتي... أي بعد ثلاثة أيام.

ـ رائع... عليكِ أن تكوني هنا، عند التاسعة تماماً... أسمعتِ الساعة التاسعة تماماً، يا سيدتي الكونتيسة.

أما الآن، وقبل انصرافكِ عليكِ انتقاء ثوب جديد، اختاري إما اللون الأسود، أو الأزرق بلون مياه البحر.

عبثاً تحاول زويا نسيان الماضي، فهناك أشياء كثيرة تعيدها إليه. الأزرق بلون مياه البحر، إنه لون الرداء الذي ارتدته ليلة عادت متأخرة من تسارسكوي سيلو. وتذكرت أيضاً، أن عليها شراء حذاء جديد.

انحنت زويا مودعة العجوز، شاكرة لها كرمها وحسن استقبالها وخرجت دون أن تسأل عن الراتب... ليس هماً... المهم أنها وجدت عملاً، وهي تعرف كيف تحسن التدبير بما ستتقاضاه.

قبّلت طفليها وهي تقدم لهما التفاح الذي اشترته بطريق العودة، وزفت لهما البشرى، وببراءة الطفولة تساءلت ساشا، عما إذا كان هناك ثياب للأطفال. وجاء جواب زويا، بالنفي، لكنها وعدتها، وعداً قاطعاً، أن تشتري لها أجمل الثياب.

«لن أعود إلى الرقص... حمداً لك يا رب». تمتمت زويا، وفجأة تساءلت «ماذا، لو صادف وجاءت إحدى صديقاتها القدامى إلى محل «آكسيل»؟

الفصل الرابع والثلاثون

أيامها في «آكسيل» كانت أيام تعب وإرهاق. كثيرات هن النساء اللواتي، يأتين، وهن لا يعرفن ما يردن، إنهن متطلبات مدللات؛ وبرغم هذا، كانت تحسن التصرف معهن، وتعرف كيف تقنعهن بشراء هذا الرداء أو ذاك؟ حتى لُقبت بصائدة الزبائن.

بحلول فترة الميلاد، صارت زويا محط أنظار الجميع ومقصدهم. فما من إمرأة تشتري شيئاً، إلا بعد أخذ رأيها... أرجوكِ كونتيسة... ما رأيكِ كونتيسة... أي رداء تفضلين كونتيسة، وأي حذاء يناسبه كونتيسة.. آكسيل دبيوي، تراقب كل هذا، بفرح وسرور، وكثيراً ما كانت تعبر عن اندهاشها من أناقة زويا، ومن حسن اختيارها لثيابها وتنسيق الألوان فيما بينها. تعمدت أن تقدمها للزبائن «الكونتيسة زويا ابنة عم القيصر».

هكذا، تحولت الكونتيسة إلى محور حديث صالونات رجال الأعمال وكبار المتمولين، نساؤهم يتباهين بأن الكونتيسة هي من اختارت ثيابهن حتى أن الأمير أوبولنسكي، لم يتوان عن إبداء رغبته في التعرف إلى هذه الكونتيسة، مستغلاً فترة وجوده في نيويورك مع زوجته آليس آستور.

لم يكن دخوله محل آكسيل مفاجأة لزويا، بقدر ما كان لصاحبة المتجر، فما إن وقع نظره عليها، حتى أسرع وعانقها بحرارة، «زويا... كونتيسة

زويا... ماذا تفعلين هنا؟» لم يكتفِ الأمير بعناقها، بل قبّلها بحرارة والدموع تنهمر من عينيه.

ـ كما ترى يا سمو الأمير...

وماذا يطلب منها أن تقول؟ لم ترغب بإخباره شيئاً عما حل بها.

ـ عزيزتي.. صغيرتي الكونتيسة. ستسر جداً عمتكِ الدوقة أولغا حين أخبرها أني التقيتك... ما رأيكِ لو نتناول العشاء معاً؟

بكل تهذيب ولياقة، اعتذرت زويا عن تلبية دعوته، كما كانت تفعل دائماً. كثيرون هم الذين وجهوا لها الدعوات حتى لحضور حفلاتهم في بيوتهم، لم يعد لزويا وقت، ولا عندها ثياب تليق بتلبية هكذا دعوات. لا هم لها سوى الإعتناء بطفليها اللذين ينتظران عودتها من العمل، بفارغ الصبر، في الشقة الجديدة الواسعة والفسيحة، في الشارع التاسع والثلاثين بالقرب من إيست ريفر؛ حيث لكل واحد منهم غرفته الخاصة، بعد عذاب ومعاناة سنتين. كان نيقولا مسروراً جداً بغرفته الجديدة، وكذلك ساشا. أما هي فكانت تقف كل ليلة أمام المرآة، تراقب جسدها وهو يتمايل بالثياب الداخلية فقط، وتتذكر لياليها مع كلايتون، رغم مرور السنين على وفاته، فهي غير قادرة على نسيانه، وما تزال ترفض فكرة إقامة علاقة حب مع أي إنسان آخر.

خلال تموز 1932، علمت أن الملهى، حيث كانت تعمل كراقصة قد أقفل، فتذكرت جيمي، تذكرت كم كان لطيفاً معها، وكيف دس ماية دولار في حقيبتها بعد حريق شقتها، حاولت البحث عنه في كل مكان، لتعيد له، ما سبق وقدمه، ولكنها عبثاً حاولت.

وكم كانت دهشتها كبيرة، حين جاءت إليانور روزفلت لتختار ثيابها

من المتجر، كانت إليانور تساعد زوجها في حملته الإنتخابية لرئاسة الولايات المتحدة. تذكرت كلايتون، وكل الأصدقاء القدامى. بعد فوز روزفلت بالإنتخابات أرسلت زويا له برقية تهنئة، وقبعة من الفرو الغالي هدية لزوجته لتضعها على رأسها في احتفال أداء القسم. حاولت آكسيل عدم تقاضي ثمن القبعة، لكن زويا، رفضت ذلك رفضاً باتاً.

أدركت آكسيل، كل الإدراك، أن موظفتها هذه، هي موظفة غير اعتيادية، وجاء ما رواه أوبولنسكي عن زويا وبنات القيصر لتعتقد كل الإعتقاد أنها إمرأة مميزة. وأنها خلقت في الوقت غير المناسب، وإلا لكانت الآن متزوجة من أمير وتعيش في قصر منيف، كالقصور التي أمضت طفولتها بين أرجائها.

خلال عطلة الميلاد، اصطحبت زويا نيقولا لحضور فيلم طرازان، إنه فتى وسيم وأمير ابن أمير كما تحب السيدة آكسيل أن تقول عنه، كان نيقولا يرغب أن يكون رجل أعمال مثل أبيه؛ لكن ما يزال مبكراً على تحقيق هذه الرغبة، فهو ما يزال في الحادية عشر من العمر، أما ساشا البالغة سبع سنين فكانت تحلم، بأن تصبح ممثلة سينمائية، دون أن تتخلى يوماً عن حمل لعبتها آنابيللا التي نجت من الحريق، واللعبة الجديدة التي اشترتها لها بمناسبة عيد الميلاد، لقد تمكنت زويا، وخلال فترة قصيرة من عملها في متجر آكسيل من جعل طفليها ينسيان سنين البؤس.

مع بداية الربيع، رُقيت زويا إلى رتبة نائب مدير متجر آكسيل، وهذا يعني مركزاً مرموقاً، وعيشة أفضل لطفليها، وتمكنت من إقناع السيدة ديبوي من تكليف ألسي دي وولف وضع تصميم هندسي جديد، للمتجر، يكون أكثر ملائمة مع روح العصر.

«وجودكِ هنا هو بركة من الرب» قالت السيدة آكسيل، وهي تعيد افتتاح المتجر بحضور رئيس بلدية نيويورك والعديد من رجال الأعمال وزوجاتهم، وأهدتها معطفاً من الفرو الفاخر.

بعد سنتين، ويوم عيد ميلاد ساشا الحادي عشر، دعت آكسيل زويا لمرافقتها في رحلة عمل وتسوق إلى فرنسا. نيقولا ذهب لقضاء هذه المدة، بضيافة أحد أصدقائه، أما ساشا، فقد بقيت في المنزل مع مربيتها الجديدة.

ما إن أخذت السفينة السياحية كوين ماري، تبتعد عن نيويورك، حتى استدارت زويا لتنظر إلى تمثال الحرية وهو يختفي شيئاً فشيئاً عن ناظريها، متذكرة، يوم مجيئها لأول مرة، كيف كانت ملامح هذا التمثال تتضح ساعة بعد أخرى. أما الآن فهي تختفي ساعة بعد أخرى. وتذكرت كلايتون الذي توفي منذ سبع سنين.

.بماذا تفكرين يا زويا؟ تساءلت السيدة آكسيل، وهي تنظر إليها بإعجاب، رداء أنيق، شعر يتطاير مع هبوب الريح وعينان خضراوان واسعتان.

ـ كنت أفكر فيما مضى من الزمن.

ـ لكنك تهدرين الزمن يا زويا... كثيرون يطمحون بابتسامة منكِ وأنتِ ترفضين كل الدعوات التي توجه إليكِ. من يدري؟

ـ يدري ماذا؟

ـ في باريس التقيت حبكِ الأول، فمن يدري، فقد تلتقين حبكِ الثاني.

ضحكت زويا «ولكني في رحلة عمل».

ـ أنا أقول من يدري؟

الفصل الخامس والثلاثون

في فندق ريتز، أقامت كلٌّ من السيدة آكسيل وزويا، في غرفة مستقلة. منذ سنوات، افتقدت زويا النوم على سرير وثير، والإستحمام في مغطس فخم. إنها الآن، لا تستعيد ذكرياتها مع كلايتون فقط، بل تلك التي عاشتها في سان بطرسبورغ؛ وفي الوقت ذاته، كانت ما تزال تفكر بكلمات السيدة آكسيل عن الحب وعن باريس.

وقفت عارية أمام المرآة، وراحت تنظر إلى جسدها، إنه ما يزال غضاً، وما تزال في مقتبل العمر، لكن حب كلايتون يبقى هو الطاغي على تفكيرها ومشاعرها. ارتدت ثياباً عادية، ودون إعلام السيدة آكسيل، خرجت، للتنزه في شوارع باريس وطرقاتها، لتتذكر تلك الأيام التي أمضتها مع كلايتون؛ تناولت القهوة في مقهى كافيه دي فوريه تخيلته يجلس قبالتها، يمسك بيدها فوق الطاولة. أحبت الهروب، فاستقلت سيارة أجرة، وذهبت إلى باليه رويال، ووقفت أمام تلك البناية التي عاشت فيها مع جدتها. رباه... كان ذلك، منذ سبعة عشر عاماً، اغرورقت عيناها، وهي تسترجع ذكرى جدتها، وذكرى زيارات كلايتون، لهذه الشقة المتواضعة، تذكرت ليلة التقته لأول مرة في مقر قيادة الجنرال بيرشينغ، ليلة جاءها مدعياً أنه ساعي البريد، وتذكرت، بالطبع، كيف مارست الحب معه في مقر القيادة، وفي غرفة

انطوان. أحبت الهروب من كل هذه المشاعر، فقصدت حديقة توبليريس، وراحت تتمشى بين الأزهار والأشجار، وفي الوقت ذاته تراقب الأطفال يلعبون ويلهون، فتذكرت طفليها في نيويورك. تحولت حياتها إلى نهر من الذكريات نبعه لا ينضب ولا يجف.

عملها في محلات آكسيل، جعل لحياتها معنى، لم تعد تكسب إعجاب الآخرين من خلال تعرية ساقيها، بل من خلال حسن التعامل، ومساعدة النساء على اختيار الملابس التي تلفت نظر الرجال وتشدهم إليهن، حتى الرجال، كانوا معجبين بالكونتيسة كما يناديها الجميع، ونادراً ما سمعت أحداً يناديها بالسيدة أندروز. كلهم ينادونها بالكونتيسة، التي لم تسمح لنفسها يوماً، أن تخبر النساء عن عشيقات أزواجهن اللواتي كن يأتين إلى المتجر للتسوق بصحبتهم.

في باريس، وفي طريق العودة إلى الفندق، أحست زويا أنها ما تزال تلك الصبية ابنة السبعة عشر ربيعاً، تذكرت الأمير ڤلاديمير، لكنها لم تجد وسيلة للإتصال به، فاسمه غير وارد في دليل الهاتف.

عند المساء، دعتها السيدة آكسيل لتناول العشاء، في مطعم مكسيم، لكنها اعتذرت عن تلبية الدعوة، متذرعة بألف سبب وسبب، دون أن توضح السبب الحقيقي، «حتى لا تستعيد ذكرى كلايتون». ما مضى قد مضى، ولا ضروة للاستمرار فيه. لا ضرورة بعد الآن، لاستعادة ذكريات سان بطرسبورغ وتسارسكوي سيلو، ولا دعوات المطاعم، لا ضرورة للتفكير بإيفيجينيا أو الأمير ڤلاديمير وابنته يلينا، عليها نسيان الماضي والإنغماس في الحاضر والمستقبل، عليها إسعاد نيقولا الذي اتصلت به هاتفياً واطمأنت عليه، كذلك اتصلت بساشا التي أملت عليها لائحة طويلة مما ترغب به من باريس، بما فيها الرداء الأحمر

والحذاء الباريسي المناسب له؛ إنها متطلبة كناتاليا، وتساءلت كيف كانت ماشكا ستعامل أولادها، فيما لو كان الله أعطاها العمر وتزوجت وأنجبت، ولكن لماذا هذا السؤال؟ رحلت ماشكا في عمر التمتع بالحياة.

لم تعرف زويا طعم النوم. رحلتها هذه، أحيَت الماضي، ولماذا لا؟ فهي هنا قريبة جداً من مسقط رأسها، هنا عرفت الحب وتعرفت على لذة ممارسته، لم يبقَ أحد إلا وتذكرته، ألكسي، أنستازيا، ماري، تاتيانا، القيصر والعمة ألكسندرا، وبالطبع تذكرت تلك الليلة المشؤومة التي خرجت فيها من قصر فونتانكا بصحبة جدتها وفيودور؛ حتى أنها كادت تشتم رائحة الحريق الذي التهم جسد والدتها.

عند العاشرة، صباح اليوم الثاني، كانت السيدة آكسيل تجلس إلى جانب زويا، في قاعة استقبال فندق ريتز الذي يعتبر واحداً من أفخم فنادق باريس. بانتظار وصول سيارة الأجرة.

كان كل من في القاعة ينظر إليهما، ويبدي إعجابه بأناقتهما. السيدة آكسيل، كانت ترتدي ثوباً أحمر، وسترة سوداء، أما زويا فكانت ترتدي فستاناً أزرق بلون السماء، وشعرها الأشقر، يتدلى على كتفيها، وينبعث من عينيها إشعاع سحري.

ـ تبدوان كسيدتين باريستين بكل معنى الكلمة... ما هذه الأناقة؟

قال الموظف المسؤول، وهو يفتح الباب الخلفي لسيارة الأجرة، داعياً إياهما للصعود، وبلكنة روسية، وبكل تهذيب، أيد السائق رأي الموظف المذكور.

طوال المسافة الفاصلة بين الفندق ومحلات شيابارللي في شارع

السلام. كانت السيدة آليكس، تصغي إلى زويا وهي تتكلم الروسية. لم يسبق لها، أن سمعت إيقاع هذه اللغة لأن زويا، لم تتفوه ولو بكلمة واحدة بلغتها الأم، حتى مع الأمير أوبولنسكي حين زار المتجر. إنما وللأسف، لم يكن السائق يعرف شيئاً عن الأمير ڤلاديمير، وحتى أنه، لم يسمع باسمه من قبل. فتأكدت زويا، أن هذا السائق هو من الروس البيض، ولا ينتمي إلى طبقة الأمراء.

غبريال شانيل، كان المحطة الثانية، بعد شياباريللي، ومن ثم قصدتا مصمم الأزياء بالنسياغا، حيث لم تكتفي زويا باختيار الملابس، بل راحت ترتدي كل ثوب على حده. وتتمخطر به أمام أعين السيدة آكسيل، لترى مدى جماله على جسد إمرأة حقيقية وليس على جسد العارضة الإصطناعية.

ـ «كان من المفترض أن تكوني عارضة أزياء، أو مصممة» قالت السيدة آكسيل، وهما تشربان الشاي في أحد مقاهي باريس الراقية.

ـ أنا مولعة بالثياب الأنيقة.

تنهدت زويا، وأحبت أن تبوح بشيء عن ماضيها، شيء لم تعرفه ربة عملها من قبل، حتى الآن، ورغم انقضاء خمس سنوات ونيف، على تعارفهما، وعملهما معاً، ما تزال السيدة آكسيل تجهل الكثير الكثير عن ماضي زويا.

ـ منذ صغرنا، ماري وأنا، كنا مولعتين بالأناقة، وكثيراً ما كنا نبدي الملاحظات على ثياب والدتي وصديقاتها.

إبتسمت زويا، إبتسامة حزينة وهي تسترجع تلك الذكريات «كم كنا شقيتين؟».

لاحظت آكسيل أن زويا تحاول حبس الدموع في عينيها، «ومن تكون ماري؟... شقيقتك؟».

لا...

ولكن... كيف لا؟ كيف وجدت نفسها فجأة، أمام تلك الذكريات العتيقة؟ وهل تتكلم الآن عن ذاك الماضي المؤلم الذي، عبثاً، تحاول نسيانه أو تناسيه؟ ولمن؟ للسيدة آكسيل التي ورغم السنوات الخمس، ما تزال تتعامل معها كربة عمل ليس أكثر؟

ـ من تكون إذن؟

ـ ابنة عمي... ابنة القيصر..

ـ واحدة من حاملات لقب الدوقة الكبرى؟

ـ نعم، إنها ابنة شقيق الدوقة أولغا التي تأتي مع الأمير أوبولسكي.

أحنت زويا رأسها، وهي تمسك بكوب الشاي بكلتي يديها، وتدلى شعرها فوق الطاولة. أحست السيدة آكسيل، بسكين يخترق صدرها. من غير المعقول، أن تكون هذه الإنسانة، إنسانة عادية، إنها خارقة، ولكن ما العمل، إذا كانت الحروب والثورات، تغني من كان فقيراً وتفقر من كان غنياً؟

أثناء تناول العشاء في الفندق، أجرتا جردة، لما اشترتاه، وما تبقى عليهما شراؤه. حاولت السيدة آكسيل، أن تحوّل العلاقة مع زويا، من علاقة عمل، إلى علاقة صداقة حميمة. لكن زويا، أصرت على الإستمرار بإقفال الأبواب التي تعيدها إلى الوراء. إنها تتطلع إلى الأيام الآتية، لا هم عندها، إلا نيقولا وساشا.

كان الليل طويلاً، ومملاً... لم تتمكن زويا من النوم... أفكار غريبة تراودها. لقد تمكنت السيدة آكسيل من إحداث تغيير، ولو بسيط، في مجرى حياتها. كانت زويا، ترتدي قميص نوم قصير أسود اللون، إنه اللون الذي كان يحب كلايتون أن يراه على جسدها الأبيض، وكثيراً ما كان يقول لها، «إن هذا التناقض في الألوان، يجعلكِ مثيرة يا حبيبتي، مثيرة جدا». وهكذا تجد نفسها، تمد يدها، تلقائياً، ودون إرادة منها، لتفتح باباً على الماضي، رحلة باريس هذه، حلوة ومرة في آن. حلوة، لأنها تعتبر بمثابة فترة استجمام ونقاهة. ومُرّة، لأنها تضع زويا، وجهاً لوجه، أمام فترة سابقة من حياتها. وهل يعقل ما قالته السيدة آكسيل؟ «في باريس عرفت الحب الأول، فمن يدري؟» إنها الآن أم لطفلين وفي السابعة والثلاثين من العمر. فجأة تقفز زويا، لتقف أمام المرآة، تنظر إلى جسدها، وبعفوية زائدة خلعت قميص النوم، لتصبح عارية إلا من لباس داخلي أسود. تذكرت كيف وقفت هكذا، أمام كلايتون لأول مرة في مقر قيادة الجنرال بيرشينغ وتذكرت كيف خسرت عذريتها يومذاك، حتى اليوم، ما تزال غير نادمة على ما فعلته، على العكس، إنها ذكرى حلوة جداً. فهي لم تقدم على ذلك، رغبة في ممارسة الحب، بل تعبيراً عنه.

لاحظت السيدة آكسيل شرود ذهن زويا. وأيقنت أن باريس تعني لها الكثير. هنا عرفت البؤس، والسعادة. هنا عاشت عمر المراهقة، ومن يدري، فقد تكون هنا أيضاً، مارست الحب لأول مرة، ومع كلايتون بالتحديد.

تساؤلات كثيرة راودت عقل السيدة العجوز التي ما مرّ يوم، إلا وازدادت إعجاباً بموظفتها هذه؛ كيف لا؟ حتى الزبائن معجبون بها،

ويعترفون أنها تتمتع بحس رفيع وحاسة سادسة، تجعلها قادرة على تلبية طلباتهم دون الإفصاح عنها.

ـ غداً ستزور معرض كريستيان ديور.

ـ وهل ستعدين الميزانية المخصصة لهذه الرحلة؟

ـ لا... ولكن سنشتري ما هو ضروري.. ويمكننا الإطلاع على الخطوط العريضة لتصاميمه. وننقلها لمصممة أزياء غير مشهورة في نيويورك.

ـ ولماذا نفعل هذا؟

ـ إنها التجارة يا زويا، لتصنعها لنا في نيويورك، وهكذا نوفر مالاً كثيرًا وتزداد أرباحنا. فنحن سنبيعها على أساس أنها من تصميم كريستيان ديور.

إنها المرة الأولى التي تعترف فيها السيدة آكسيل لزويا بسر، من أسرار عملها. ويبدو أن الجو الرومانسي لهذه الليلة، جعل كل واحدة منهما، تعترف بها للأخرى.

ـ الكونتيسة أوسيبوف... نائبة المدير العام لمحلات آكسيل.

هكذا، قدمتها السيدة آكسيل لكريستيان ديور شخصياً، وبحضور ألسي دي وولف التي روت له بعضاً من تفاصيل حياة زويا وأثنت على شخصيتها التي لولاها لكان طفلاها، يعيشان الآن في كوخ من الأكواخ على ضفة نهر هدسون.

بعد الإنتهاء من مقابلة السيد ديور، كان لهما موعد ثانٍ مع السيدة شياباريللي، في قاعة العرض الجديدة، المزينة جدرانها بالعديد من

لوحات سيلفادور دالي، الرسام الذي يعتبر مؤسس المدرسة السريالية في فن الرسم. لكن السيدة شياباريللي لم تتمكن من البقاء معهما طويلاً بسبب ارتباطها بموعد مع السيد سيمون هيرش. وأوكلت هذه المهمة إلى إحدى مساعداتها. بعد تأكيد الطلبية، كانت السيدة آكسيل تتأبط ذراع زويا، وهما تتجولان في شوارع باريس، وكلتاهما تستعيد ذكرياتها في هذه المدينة التي لا يعرف ساكنوها ليلها من نهارها. إنها المدينة التي لا تنام.

لاحظت زويا، أن هناك رجلاً طويل القامة، أسود الشعر، بهي الطلة يسير خلفهما وكأنه يلاحقهما، لكن شكوكها تلاشت حين اتخذ وجهة سير أخرى. المفاجأة، كانت أمام مصعد الفندق «عفواً سيدتي... أنا لا أتابع خطواتكما، بل أقيم هنا أيضاً... سبق لي وشاهدتكما في معرض شياباريللي وفي أحد الشوارع.. المعذرة، إنها مجرد صدفة».

ـ لا عليك سيدي، قالت آكسيلّ

مد يده أنا سيمون هيرش....

ـ أنا آكسيل ديبوي... وهذه مساعدتي الكونتيسة زويا أوسيبوف.

نظر سيمون إلى عيني زويا الخضراوين. ومدّ يده لمصافحتها «أروسية أنتِ؟».

أحنت زويا رأسها، في محاولة للهروب من إلتقاء عينيها بعينيه العسليتين.

ـ نعم، أنا روسية من سان بطرسبورغ.

كان سيمون يقيم في الطابق ذاته أيضاً، وغرفته محاذية لغرفة السيدة آكسيل.

ـ وأنا كذلك... ولكني ولدت في نيويورك... وأمتلك مصنعاً للمعاطف هناك.

ثانية مد يده للمصافحة، مودعاً واتجه نحو غرفته، متمنياً لهما ليلة سعيدة.

تابعت زويا خطواته بإعجاب. إنه رجل قوي الشخصية وجذاب أيضاً.

في غرفة زويا، جلست السيدة آكسيل، لتقيّم مع مساعدتها ما فعلتاه في هذه الرحلة.

ـ إني سعيدة بالتعرف إلى السيد هيرش، من يدري، قد نشتري بعض المعاطف من عنده لموسم الخريف القادم، خاصة إذا كانت الأسعار معتدلة.

ابتسمت زويا «ما يزال أمامنا أربعة أيام هنا، وحتى الآن لم نشتري أحذية وقبعات، وكذلك ثياب السهرة».

ـ لديكِ الحق كل الحق... أما المعاطف الرجالية، فأفضل أن نبتاعها من نيويورك... صدقيني، لو أني أصغر بعشرين سنة لكنت حاولت اختطافه.

ضحكت زويا، وهي تتخيل السيدة آكسيل تجري وراء رجل لتمسك به وتطالبه أن يحبها.

ـ بودي لو أراكِ تفعلين هذا... كم سيكون المشهد مضحكاً.

ـ أنا أحب هذا النوع من الرجال.. وستكونين معي حين أقصد صالة عرضه في نيويورك... لربما يدعوكِ لتناول العشاء، فأنتما روسيان.

كانت السيدة آكسيل، قد لاحظت كيف نظر سيمون هيرش إلى زويا بإعجاب زائد.

ـ ما هذه السخافة يا آكسيل؟ إنه إنسان مهذب ومحترم.

ـ سخافات؟ ولكن أنت... لماذا تتصرفين وكأنكِ راهبة؟... ألم يسبق لكِ ولبيتِ دعوة أحدهم للعشاء أو لقضاء سهرة معه ؟

إنها المرة الأولى التي تتجرأ السيدة آكسيل، وتطرح سؤالاً كهذا على زويا.

ـ أبداً... ما عرفت في حياتي أحداً غير زوجي... لا قبل زواجنا ولا بعده

ـ أيعقل هذا؟ كم عمرك الآن؟

ـ سبعة وثلاثون.. أترين، لم أعد في عمر المغامرات.

ـ لا تكوني بلهاء... حين كنت في عمركِ، كان عندي عشيقان. للأسف، كانا متزوجين...أحدهما أسس لي هذا المتجر الذي هو اليوم واحد من أشهر متاجر الألبسة في نيويورك... يستحيل عليكِ قضاء عمركِ بين العمل والأولاد. غداً سيكبران، فماذا سيكون مصيركِ؟ البقاء وحيدة في المنزل؟ تنهضين صباحاً، فلا أحد يقول لكِ صباح الخير، وفي الليل، لا أحد يقول لكِ «نوماً هنيئا».

ضحكت زويا لحماس آكسيل «لا وقت عندي للحب يا آكسيل. عند السادسة مساءً أعود إلى المنزل، أهتم بساشا ونيقولا حتى العاشرة، أستحم بعدها، ثم أقرأ الصحيفة، وأحياناً رواية، وما أن أضع رأسي على وسادتي، حتى أغرق في النوم.

كانت آكسيل تقدر وضع زويا، وتتحسس معاناتها، وفي الوقت ذاته كانت تدرك أن هناك شيئاً مكبوتاً في داخلها، عليها إيقاظه.

في اليوم التالي، عادتا والتقيتا سيمون هيرش عند مدخل صالة عرض كريستيان ديور.

«أتريان ها نحن نعود ونلتقي؟ بت أخشى أن نكون أوصينا على البضاعة ذاتها».

لم يكن سيمون يهتم لهذا النوع، إنه بدأ يهتم بزويا التي ترتدي ثوب حرير زهري اللون، يجعلها تبدو أصغر سناً بكثير مما هي عليه.

ـ لا ضرر في لقائنا هذا سيد هيرش. نحن هنا، ليس لشراء المعاطف، بل الأحذية.

ـ شكراً لله، قال ومضى في طريقه، بعد أن لوح بيده مودعاً.

ثم عاد الثلاثة والتقوا أثناء الخروج. غرق الكل في الضحك وتعجبوا للصدف التي تجمعهم. لكن سيمون اقترح عليهما وضع جدول موحد للتحركات وهكذا يوفرون في بدل التقليات. وتجرأ في التحديق مطولاً بوجه زويا، قبل أن ينظر إلى ساعته الكارتييه.

ـ ما رأيكما لو نتناول الغداء معاً؟ أم أنكما مشغولتان؟

لم تكن زويا راغبة في قبول الدعوة، لكن آكسيل سارعت مرحبة بالفكرة، وكان سيمون أسرع في إيقاف سيارة أجرة لتقلهم إلى فندق جورج الخامس «إنهم يعدون أشهى المآكل... لقد سبق لي أن زرتهم في رحلتي السابقة... التي أنهيتها في رحلة استجمام إلى ألمانيا... إنما هذه السنة، عليّ العودة إلى نيويورك... لدي أعمال

كثيرة هناك... لن أعود إلى ألمانيا، ما دام هتلر موجوداً في الحكم.

كان هو يتكلم وزويا جالسة على الكرسي إلى المائدة، تراقبه باهتمام كلي.

ـ وهل تعتقد أنه سينفذ تهديداته؟

ـ ما من شك في ذلك. فالنازية أوجدت مناخاً معادياً للسامية... وأعتقد أن هذا الإحساس المتأجج بالعداء للسامية، سيؤدي حتماً إلى اضطرابات في طول البلاد وعرضها، وقد يحاول القضاء على كل من هو من أصل سامي.

كان يتكلم وعيناه، مشدودتان إلى زويا التي لاحظت ذلك، فأحنت رأسها هرباً من نظراته.

ـ لكنه أمر لا يصدق..

ـ بلى... إنه أمر يصدق، فمنذ أن وجد الإنسان، وجد الإجرام معه. عائلتي... تركت روسيا... إثر المذبحة الكبرى أمام القصر الإمبراطوري والآن، أرى هذه المذابح تتجدد في ألمانيا، وإن بشكل مختلف، وبحق اليهود أيضاً.

كان يتكلم ويحاول استراق النظر إلى وجه زويا، جاوز الأربعين من العمر، ولم يتعرف إلى هذا الإحساس من قبل... من أين جاءت هذه المخلوقة، وعن أي كوكب هبطت؟

ـ وأنتِ سيدتي الكونتيسة، متى تركتِ روسيا؟

ـ أرجوك... نادني زويا... فأنا اليوم أدعى زويا أندروز. حتى في هذه اللحظة لم ترغب إلا الحفاظ على ذكرى كلايتون.

ـ تركتُ روسيا بعد الثورة عام 1917.

ـ لا شك كانت لحظة مؤلمة.. تحدثني أمي عن معاناتها يوم مغادرتها روسيا، وبعده... حتى الآن ما تزال تجهش بالبكاء حين تتذكر ذلك.

ـ لا أحد يقدر تلك المعاناة، إلا من يعيشها.

ـ وهل غادرتِ برفقة العائلة؟

تنهدت زويا من أعماق صدرها، حتى أحس سيمون بأسف شديد.

ـ تركت روسيا برفقة جدتي فقط. أما الباقون فمنهم من قتبل قبل ذلك، ومنهم من قتل بعد عام.

لم تشر زويا إلى القيصر ولا إلى عائلته. ولا إلى الوحشية التي قتلوا بها.

ـ وأتيت مباشرة إلى نيويورك، تساءل سيمون.

ـ لا... لا... وارتسمت على شفتيها إبتسامة حزينة فيما النادل يسكب في كأسها النبيذ المعتق صنع 1923 الذي يفضله سيمون وتابعت«أولى المحطات كانت في باريس، حيث أمضيت عامين، تزوجت بعدها وأتيت نيويورك برفقة زوجي».

لم يكن سيمون، قد انتبه إلى وجود خاتم الزواج في إصبعها، لكنه تنبه الآن له، وكذلك السيدة آكسيل التي تبرعت لتقوم بدور الموضح.

ـ الكونتيسة هي الآن أرملة... توفي زوجها منذ سنوات.

ـ إني لجد آسف. قال سيمون الذي بدا مرتاحاً لإيضاح السيدة آكسيل وأردف «وهل لديكِ أولاد؟».

ـ إثنان.. صبي وفتاة... وأنت سيد هيرش؟... هل لديك أطفال؟

ـ لا...

ابتسم سيمون هو يهز رأسه «ما أزال عازباً... لا أرمل ولا مطلقاً... ولا أولاد... تريدني أمي أن أتزوج اليوم قبل الغد، وأن أنجب عشرة أطفال، إنها تحب العائلة الكبيرة».

ضحكت زويا في سرها، وتذكرت أحاديثها مع ماشكا، هي كانت تتمنى لو تنجب ستة أطفال أما ماري، فكانت تتمنى أن تنجب أربعة أو خمسة أطفال، إنما القدر حال دون ذلك. فلا هي أنجبت أكثر من اثنين، ولا ماري عاشت لتتزوج، بل قضت وهي ما تزال تعيش الحلم.

ـ إذن ما عليك إلا أن تتزوج وتفاجيء والدتك بخمسة أطفال دفعة واحدة.

ـ سأبلغها رغبتي بالزواج...سأفعل ذلك فور عودتي إلى نيويورك. حتى لا تعود إلى إنشاد موالها المعهود... على فكرة هل يحق لي السؤال عما اشتريتما، أم أن ذلك أمر سري؟

نظرت آكسيل إلى زويا وكأنها تدعوها للإجابة نيابة عنها.

ـ لا أسرار أبداً سيد هيرش، إلا فيما يتعلق بالمعاطف الرجالية التي هي من اختصاصك.

غرق الثلاثة في الضحك. كان جواباً ذكياً، وتابعت زويا تتحدث عن الفساتين والأحذية والحقائب. خاصة من معرض السيد شياباريللي...

ـ الكنزات الصوفية... الأحذية فهي من معمل كريستيان ديور.

ـ إذن سأزوركم في نيويورك... كان سيمون يخطط لأمر آخر،

وهو سرقة الأفكار، وتصنيع مثيل لها في معمله، وأدركت زويا هذا، فابتسمت «لكننا لن نعرضها، لأنها مباعة سلفا».

ـ أجزم إنها مجموعة رائعة.

تأملت زويا بالرجل الجالس قبالتها، البهي الطلة، الواسع العينين، الطويل القامة، العريض المنكبين، وهي تحدثه عن ألوان مجموعة ثياب ألسا شياباريللي القرنفلية الصارخة، وبالوقت ذاته تأكد لها، من خلال حديثه عن الموضة والأناقة، ونوعية الأقمشة، كما تأكد للسيدة آكسيل، أنه يتمتع بحس فني وذوق رفيع، فهو سليل عائلة اهتمت بالتعاطي مع خياطة المعاطف الرجالية وتحت الطلب في البدء، ثم توسع نشاطها لبيع المعاطف الرجالية الجاهزة، وبعد تقاعد والده وأعمامه، واستلامه إدارة المؤسسة، توسعت نشاطاتها لتشمل المعاطف النسائية وهكذا، لم يعد يعتمد على الأقمشة المصنعة محلياً، بل على الأقمشة الإنكليزية الذائعة للصيت، ولإضافة مسحة جمالية على معاطفه، كان لا بد له من التعاطي مع أشهر دور الأزياء في باريس، عاصمة الأناقة.

ـ في البدء، اعتقد والدي أني أدمّر ما بناه هو وأشقاؤه ولكن يوماً بعد يوم، ومن خلال عملي الدؤوب، تمكنت من كسب ثقته وإقناعه بصواب ما أقوم به...

هز سيمون رأسه، وارتشف شيئاً من النبيذ المعتق قبل أن يعود ليلتفت إلى زويا «وأنتِ كونتيسة... عفواً زويا، كيف بدأت مشواركِ مع الأزياء والسيدة آكسيل؟

كان للسؤال وقع عند زويا، هل تبوح الآن، بما ما يزال مدفوناً في صدرها من أسرار. لم يسبق لها أن حدثت السيدة آكسيل عن ماضيها

إلا بما ندر. إنما اليوم وانطلاقاً من اهتمامها بسيمون، صممت أن تقول كل شيء، ولا تخفي أي شيء. كل ما فعلته، كان من أجل إعالة طفليها، وحتى اليوم، لم تعرف رجلاً غير زوجها.

ـ إنها حكاية طويلة. قالت زويا وهي تبتسم له. ومضت تقول «أزمة 1929، أفقدتنا كل شيء، فمات زوجي إثر نوبة قلبية، وهكذا وجدت نفسي أمام مشكلات صعبة علي ايجاد حلول لها. بعت المنازل الثلاثة التي كنا نملكها، بعت مفروشاتها وأدواتها المنزلية وثيابي وجواهري، لسداد الديون المتراكمة ولم أسمح لأي من الدائنين أن يتقدم بدعوى قضائية حفاظاً على كرامة زوجي الميت، زوجي الذي أحببته بجنون واحترمته، وما أزال. عندي طفلان... فماذا أفعل؟ كثيرات غيري، ممن أصابهن ما أصابني، رحن يبعن ثيابهن على أرصفة الشوارع أو في ردهات الفنادق، أو تطلقن، أو مارسن البغاء. لا رغبة ولا اقتناعاً، إنما لتوفير مستلزمات استمرارية البقاء أحياء وإبعاد شبح الجوع.

عائلات كثيرة انتقلت من القصور والمنازل الفخمة إلى أحياء الأكواخ المنتشرة على ضفة هدسون. صدقاني، فكرت بشتى الإحتمالات، حتى بممارسة البغاء، إكراماً لعيني طفلي، ولكني تخيلت كلايتون، وتخيلت كم سيكون مهاناً وهو في قبره. وفكرت بما سيقول طفلاي فيما بعد، إن عرفا بما كنت أقوم به، لم أكن قادرة على العودة لرقص الباليه، وفي الأخير، وجدت حلاً وحيداً متاحاً لي، لم يكن الأفضل والأنسب، لكنه الوحيد المتاح، فعملت راقصة في أحد الملاهي الليلية، حيث الزبائن، لا يكترثون للرقص، بل لجمال سيقان الراقصة واستدارة ردفيها وبروز نهديها. نعم...

كانت زويا تتكلم بعفوية زائدة. فيما السيدة آكسيل تفتح فمها

تعجباً لما تسمع، أما سيمون فكان ينظر إليها باحترام وتقدير.

ـ نعم، رقصت نصف عارية، أو لنقل شبه مرتدية ثياباً إنما لم أسمح لأحد أن يلمس جسدي أو يدوس على شرف كلايتون.

لاحظ سيمون أنها تكثر من ترداد كرامة وشرف زوجها، فأصبح على يقين أنها الإنسانة المطلوبة.

ـ وذات ليلة، كان الحر شديداً، عدت باكراً إلى الشقة حيث طفلاي وحيدان ينتظراني، فوجدت النار تلتهم البناية، لا أحد يعرف مدى معاناتي في تلك اللحظة. تذكرت كيف التهمت النيران قصر فونتانكا ووالدتي وجثة أخي التي لم نتمكن من دفنها بسبب أعمال الشغب التي كانت تعم سان بطرسبورغ، تذكرت كل المآسي السابقة ورحت أتضرع لله أن ينقذ نيقولا وساشا. الشكر لله فقد أنقذهما رجال الإطفاء. اعتبرت الحادثة هذه، عقاباً إلهياً، لأني أتركهما ليلاً لأذهب إلى العمل، فأقسمت ألا أفعل ذلك ثانية، حتى ولو اضطررت للعمل كخادمة في المنازل، ومن يدري قد يكون أصحاب المنازل هذه، ممن كانوا يتمنون أن أدعوهم لإحدى حفلاتنا أو ولائمنا. تركت عملي كراقصة، وتكرم عليّ أحد الأصدقاء بمئة دولار دسها خلسة في حقيبتي، فانتقلت للسكن في أحد الفنادق الرخيصة، ورحت أنفق مما كنت ادخرته، حتى قرأت الإعلان في إحدى الصحف. يومها، ولأول مرة، قدمت نفسي للسيدة آكسيل على أني الكونتيسة أوسيبوف، ولم أشأ في رواية قصة حياتي.

كانت زويا تتكلم والإثنان مصابان بنوبة من الإندهاش، كانا يصغيان إليها بذهول.

ـ إنها قصة مأساة. قالت آكسيل وتابعت «ولكن لماذا لم تخبريني هذا؟».

ـ لماذا؟ خفت أن تكون سيرة حياتي حائلاً دون موافقتكِ على توظيفي. يومها كنت مستعدة أن أجثو عند قدميكِ وأتوسل إليكِ، أتذكرين سيدة آكسيل أني لم أسألكِ عن قيمة الراتب؟ بعض أصدقائنا الروس، كانوا يلتقطون الحمام من الحدائق العامة لتأمين الغذاء أو العشاء، كان ذاك أثناء الحرب. وهنا، هنا في باريس.

بعد الإنتهاء من تناول الطعام، وقف سيمون أمامها ثم انحنى وقبّل يدها وعيناه عالقتان بعينيها. أدرك أنه يحبها، وأدرك أنها إنسانة جديرة بالإحترام، وأقسم أن يكافح من أجل الحصول على حبها.

الفصل السادس والثلاثون

واقتربت الرحلة من نهايتها. آكسيل ما تزال مندهشة مما سمعته من زويا، أثناء تناول الغداء في مطعم فندق جورج الخامس. زويا تتساءل عما إذا كان سيمون ما يزال هنا أو غادر إلى مكان آخر؛ تركت له بطاقة شكر على دعوتهما للغداء في مكتب الإستقبال، متمنية له السعادة وتحقيق أمانيه الخاصة والتجارية.

في الليلة ما قبل الأخيرة، تناولت زويا العشاء مع السيدة آكسيل في غوردون بليه وتحدثتا مطولاً عما اشترتاه. صباح اليوم التالي، كان يوم تسوق زويا لما طلبته ساشا، فاشترت لها رداءً أحمر وأحذية فرنسية، وكذلك بعض الألعاب، كما اشترت بَذْلة أنيقة لنيقولا وساعة يد كارتييه، كساعة يد والده كلايتون. أما الليلة الأخيرة، فصادفت ليلة الفصح الروسي، فصممت زويا أن تحضر قداس منتصف الليل في كنيسة سان ألكسندر نيفسكي، حيث حضرت، منذ سنوات، قداس عيد الميلاد الروسي برفقة كلايتون وإيفيجينيا؛ فتسللت من الفندق دون إخبار آكسيل، فإذا بالكنيسة ما تزال كما تركتها، لا شيء تغير فيها أو تجدد. بخشوع كلي شاركت أبناء وطنها الأم احتفالهم بذكرى قيامة السيد المسيح، وهي تجيل نظرها بين الحاضرين، علّها ترى وجه صديق أو وجهاً مألوفاً.

أثناء القداس عاشت زويا، صراعاً بين السعادة والأسى، إنها سعيدة بسبب حضورها القداس الذي تحبه، وبمشاركة أبناء وطنها في ترتيله «المسيح قام من بين الأموات ووطيء الموت بالموت ووهب الحياة للذين في القبور». وفي الوقت ذاته كانت تشعر بالأسى.

عند الصباح، استقلت السيدتان القطار من باريس، إلى مرفأ لوهافر، للإبحار عائدتين إلى نيويورك، على متن السفينة السياحية كوين ماري، لتتذكر رحلتها الأولى إلى نيويورك برفقة كلايتون.

على متن السفينة، كانت تجلس وحيدة، عيناها سارحتان في الأفق البعيد، وبضعة دموع تبلل وجنتيها. دموع أسى وشوق في آن. أيام قليلة وتكون مع طفليها، ويعود إحساسها بالحياة.

ـ يبدو أنكِ حزينة.

سمعت زويا صوتاً أثار اهتمامها، فاستدارت لتجد نفسها وجهاً لوجه، مع سيمون.

ـ لا لست حزينة، إنما أستعيد بعضاً من الذكريات.

ـ سيرة حياتكِ أثارت اهتمامي. وأعتقد، أن ما رويته هو قليل من كثير.

ـ إنه الأهم، أما الباقي فلا معنى له... إنه يشبه حياة أي فرد آخر.

لم تكن زويا تلتفت إليه، بل ما تزال تحدق بالمحيط وأمواجه، فيما كان سيمون يتمنى لو بمقدوره أن يأخذ يدها، أو يضمها إلى صدره، إعتقاداً منه إلى أن هذا قد يسعدها، أو يجعلها تشعر بأنها أصغر سناً، وفي الوقت ذاته، كان احترامه يمنعه من فعل ذلك، خاصة وأنه مدرك، أنها امرأة جدية وعملية.

ـ الماضي، يا سيد هيرش هو جزء مهم من حياتنا. كان صعباً عليّ أن أعود إلى هنا، ولكني سعيدة بعودتي، فباريس احتضنتني فترة لا بأس بها، قدمت لي الأمان الجسدي. إنها جزء من حياتي.

ـ لا ريب أن باريس عانت من الحرب، كنت أنوي زيارتها حينذاك، لكن أبي جن جنونه. لم يسمح لي بمغادرة أميركا، لذا أمضيت تلك الفترة في تطوير أعمالي، وأنشأت معملاً للنسيج في جورجيا... يبدو أن لا مجال عندي للخروج من هذه المهنة... ولكن...

ـ ولكن ماذا؟ تساءلت زويا.

ـ ولكن كان صعباً عليك أن تمضي تلك الفترة هنا في باريس.

ـ بالفعل كانت كذلك، ولكن حياتنا في باريس أفضل بكثير من حياة الذين كانوا ما يزالون في روسيا.

كانت زويا تقصد القيصر وعائلته، وبالأخص ماشكا التي، ما مر يوم، تعيساً كان أم سعيداً، إلا وتذكرتها؛ وما تحدثت إلى إنسان إلا ورغبت في ذكرها، حتى حين تحدث سيمون عن الزواج والأولاد.

تنهدت زويا، وهي تحدق بمياه الميحط. إنها الحياة، ترحال بترحال. لا استقرار فيها. لم تكن تدرك هذا من قبل. كانت تعيش حياة الترف والبذخ، كانت ترغب بتحقيق أشياء كثيرة، لا يحق للآخرين، حتى أن يحلموا بها، ولكن ها هي الآن تحلم ولا تصمم. رغبت في قطع الحديث عن الماضي فسألته عن نتائج رحلته هذه.

ـ كانت ناجحة... قال وأعاد لها السؤال ذاته «وأنتما كيف كانت رحلتكما؟».

ـ رائعة، وأعتقد أن السيدة آكسيل مسرورة جداً بما اشتريناه.

ـ ما رأيكِ لو نتناول العشاء معاً هذه الليلة؟

ـ شكراً جزيلاً على هذه الدعوة، ولكن، عليّ سؤال السيدة آكسيل أولاً.

لم تكن زويا راغبة في تلبية دعوته، حتى أنها لم تكن مسرورة لوجوده على الباخرة أثناء رحلة العودة. كانت مدركة أنه معجب بها، وأنه يحاول التقرب منها بشتى السبل والوسائل. لذا صممت على مقاومة هذه المحاولات، دون أن تدري أن السيدة آكسيل راضية كل الرضا عما يفعله سيمون. ولهذا قبلت الدعوة مباشرة دون تردد، وفي الدقيقة الأخيرة، اعتذرت متذرعة بوعكة صحية مفاجئة. هكذا وجدت زويا نفسها تلبي الدعوة وحيدة.

تكلم سيمون عن طفولته وعن شبابه وأفصح لها أنه يهودي، وأن والدته إنسانة متسلطة، لا تسمح لأحد أن يرفض لها طلباً أو يعصي لها أمراً.

ـ يبدو أن كل الروسيات هكذا. أمي كانت هكذا، ولكن أحمد الله على أن جدتي كانت متسامحة جريئة وقوية في الوقت ذاته. لقد أنقذت حياتي من الموت في روسيا، وجاءت بي إلى باريس. لو كانت ما تزال حية، لكنتَ ستعجب بها كثيراً.

ـ طبيعي أن أفعل ذلك...

كان سيمون ينظر إليها ويحاول تمالك أنفاسه، يحاول كبت مشاعره، لكنه لم يتمكن «أنتِ إنسانة رائعة... أتمنى لو تكونين إلى جانبي مدى العمر».

ضحكت زويا «لن تكون سعيداً... أنا إنسانة مدللة ومتطلبة. علمتني الحياة أشياء كثيرة، علمتني تقدير الأشياء البسيطة قبل الكبيرة. وأنا اليوم أهتم بعملي... وبولديّ... وليس بأي شيء آخر.

ـ أتمنى لو تحدثينني عن حياتكِ في روسيا.

ـ ولماذا؟

لماذا يريد أن يعرف كل شيء عن تفاصيل حياتي، أبدافع الحشرية، أم لأمر آخر...؟

ـ أتمنى لو أعرف كل شيء عنكِ... أنتِ إنسانة ممتلئة حيوية ونشاطاً وجد جميلة وبالوقت ذاته، هناك غموض قوي يكتنف حياتكِ.

ـ لكنكِ تعرفِ أكثر من أي إنسان آخر. لم يسبق لي أن أخبرت أحداً، حتى طفليّ، ما أخبرتك إياه، خاصة عن عملي كراقصة مبتذلة. ألاحظت أن السيدة آكسيل كانت جد مندهشة لما سمعت؟

ـ ليس وحدها... وأنا أيضاً... ما عرفت إنسانة بصراحتكِ وما عرفت إنسانة صادقة مع نفسها ومع الآخرين مثلكِ.

ـ أتخيل ردة فعل والدتك حين تعرف هذا... أنا متأكدة أنها ستطردني فوراً... في مطلق الأحوال، فأبواك، بلا أدنى شك، يكرهان الروس.

ـ هل كانت عائلتكِ على علاقة بعائلة القيصر؟

تساءل سيمون وهو يتمنى لو تجيبه بالنفي، فوالدته، تتحدث عن القيصر وكأنه كابوس، وإليه تنسب سبب كل متاعبنا ومشاكلنا، حتى الصحية منها. لاحظ أن سؤاله لم يكن في محله...

احتارت زويا بما تجيب. أتقول الحقيقة، أم تكذب عليه. ولكن لماذا الكذب طالما هي لا ترغب باستمرار العلاقة معه.

ـ نعم... أبي ابن عمة القيصر... وأنا ربيت في القصر الإمبراطوري مع بنات القيصر، كنت أرافقهم أينما كانوا. وماشكا هي بمثابة أخت لي... كدت سأموت حيت تلقيت خبر وفاتها... لكن مجيء كلايتون، أنقذني من حالة الحزن واليأس...

اغرورقت عينا زويا بالدموع، وأخذت نفساً عميقاً، ثم أحنت رأسها، وكأنها لا تريده أن يرى دموعها. مد يده وأمسك يدها وراح ينظر إليها وكأنها إمرأة من عالم آخر، من عالم طالما حلم أن يعرف المزيد عنه، كان يقرأ الكتب عن القيصر، كان يفعل ذلك خفية عن أمه، وإلا لكانت تبرأت منه. وها هي زويا، تقدم القيصر على حقيقته، حدثته عن حنانه، عن حبه للعائلة ولشعبه، حدثته كم تألم حين وقعت المذبحة، وأنه لم يكن يومها في القصر، حتى جعلته يتعاطف مع قضية القيصر ويأسف لقتله بتلك الوحشية.

ـ أتعتقد أن الحرب ستنشب من جديد؟

كان من المستحيل أن يتصور أحد نشوب حربين كبيرتين خلال فترة زمنية قصيرة، لكن الوقائع تدل على عكس ما يرفض الناس تصوره.

ـ أرى ذلك ممكناً... إنما أتمنى أن أكون مخطئاً في رؤيتي هذه.

ـ وأنا أيضاً لا أتمنى ذلك... الحرب شيء مرعب. موت، دمار، خراب، ما زلت أذكر الغارات الجوية على باريس، وكيف هجرها سكانها، ليس بمقدوري التفكير بتلك المعاناة... خاصة اليوم. أنا أم لطفلين.

ـ أرغب برؤية طفليك يوماً ما.

ـ طفلان جميلان، نيقولا جديّ نوعاً ما، أما ساشا فهي طفلة غنوجة ومتطلبة. عودها كلايتون على ذلك... إنهما مصدر سعادتي وقُوّتي.

ـ وهل هي تشبهك؟

ـ لا.. بل تشبه والدها.

بعد العشاء رمقها بنظرة غريبة، تجاهلتها عن قصد وعمد. وشكرت نفسها لأنها لم تدعوه لزيارتها في نيويورك لرؤية الأولاد، رغم إبداء رغبته برؤيتهم أكثر من مرة.

صباح اليوم التالي، كان السباق في الصعود إلى متن الباخرة، حتى أن زويا فوجئت بوجوده وكأنه ينتظرها. حين دعاهما إلى الغداء، لم تتمكن زويا من الرفض، لأن آكسيل أسرعت بالموافقة، وكذلك بالنسبة للعشاء.

في الليل دعاها إلى صالة الرقص، لكنها رفضت وأحبت أن تكون صادقة معه «ربما لأني خائفة».

ـ ومما أنتِ خائفة؟

ـ منك... أتمنى ألا تكون صراحتي مزعجة.

ـ ليست مزعجة وحسب. بل أكثر من ذلك... وهل أبدو مرعباً؟

ـ نوعاً ما... أو قل أنا خائفة من نفسي أكثر مما خائفة منك... منذ زمن طويل لم أتناول طعاماً مع رجل، ولم يدعوني إنسان لمراقصته... لا أحد مطلقاً، منذ وفاة زوجي... ولن أسمح بذلك الآن.

فوجيء بما تقول. ولماذا؟

ـ لأني لست مراهقة، أنا في السابعة والثلاثين، وعندي طفلان هما كل وجودي... ولأني أحببت زوجي بجنون...

ـ لا يحق لي مناقشتكِ بحبك لطفليك، ولكن أن تقولي إنكِ في السابعة والثلاثين فهذا قول مرفوض... إذن ماذا عساي أنا أن أقول... أنا الآن في الأربعين من العمر.

ـ ولكن... الأمر مختلف جداً... أنت لم يسبق لك أن تزوجت. وأنا فعلت.

ـ ما هذه السخافات؟ كثيرات أكبر منكِ سناً، مطلقات وأرامل، ووقعن في الحب وتزوجن.

ـ ربما أنا مختلفة... ولن أفكر بهكذا أمور.

ـ إسمعيني جيداً... أنا لست هنا لأسمع هذه التفاهات، ولن أسمح لكِ بالقول إنكِ متقدمة في السن يا كونتيسة أوسيبوف، أواضح هذا؟ أنا أحبكِ بجنون... وأحذركِ أنا إنسان عنيد جداً، ولن أتوانى عن نصب خيمة أمام محلات آكسيل. هل يعجبكِ هذا؟

ـ على الإطلاق.. يا سيد هيرتش لكن هذا نوع من الجنون...

لم تتمكن زويا من إخفاء ابتسامتها.

ـ حسناً... إذن سأنصب الخيمة فور وصولنا إلى نيويورك، إلا إذا وافقتِ على تناول العشاء معي ليلة وصولنا.

ـ ولكني سأتناول العشاء مع طفليّ... فمنذ ثلاثة أسابيع وأنا لم أجلس معهما ولو لدقيقة. إني جد مشتاقة لهما، وهما كذلك.

فكرت زويا بإقناعه أن يكون صديقاً.. صديقاً ليس أكثر، لكنه فعلاً إنسان عنيد.

ـ حسناً إذن... في الليلة التالية... وأنا لا أدعوكِ وحدكِ. بل مع ولديك أيضاً، لربما يكونان ألطف منكِ.

ـ لا أعدك بذلك... فهما ما يزالان متعلقين بوالدهما.

ـ حسناً... ولكن ماذا عنكِ أنتِ؟ فكري بنفسكِ وبطفليك هما بحاجة لرجل يعاملهما كوالد وأنا سأكون كذلك.

ـ لربما...

لكنه فاجأها بقبلة على شفتيها.

ـ أرجوك لا تفعل هذا ثانية.

ـ لن أفعل.. لكنه عاد وقبلها.

ـ شكراً..

دخلت غرفتها وأغلقت الباب وهي تحلم به يضمها بين ذارعيه.

الفصل السابع والثلاثون

فيما كانت كوين ماري تتهادى فوق مياه المحيط باتجاه نيويورك، كانت زويا تتقرب أكثر فأكثر من سيمون، فلم تعد تتردد بقبول دعواته، إن للغداء، أو العشاء أو الرقص. وحتى لتبادل القبل.

عند منتصف الليلة الأخيرة، كانا يقفان جنباً إلى جنب، على متن السفينة، يتبادلان القبل حيناً والضحك أحياناً واثنان يراقبانهما، القمر والسيدة آكسيل التي كانت تشجع زويا على الإستمرار في العلاقة، وحتى على الإنغماس إلى أبعد الحدود فيها.

ـ لا أحد يدري كم سأشتاق إليكِ يا زويا.

ـ وأنا كذلك... ولكن... ليس بمقدوري الإستمرار يا سيمون.

ـ أنا أحبك يا زويا أوسيبوف...

كان يحب ترداد اسمها لما فيه من إيقاع موسيقى.

ـ دعك من هذا الكلام الذي قد يزيد الأمور تعقيداً.

ـ قريباً سنتزوج... قال بلهجة لا تدعو إلى الشك في أنه صادق بما يقول.

ـ هذا مستحيل.

ـ لا.. ليس مستحيلاً... دعينا نخبر طفليكِ أننا نحب بعضنا.

ـ ما هذا الجنون... لم يمضِ زمن على تعارفنا.

ـ حسناً. ننتظر أسبوعاً أو أسبوعين.

ـ حقاً إنك مجنون.

ـ هل تتزوجينني؟

ـ لا.. وألف لا..

ـ لماذا؟

ـ لأنك مجنون... وقد تكون خطراً جداً

ـ أكون كذلك، في حال عدم موافقتكِ على الزواج مني. هل سبق لكِ ورأيتِ يهودياً روسياً مسعوراً؟ وأين؟ على متن سفينة. فتخيلي مدى الإحباط الذي سيصيب العدد الأغلب من الركاب، وهم يرون واحداً يرمي نفسه من المحيط ليكون طعاماً شهياً لسمك القرش... إذن ما عليكِ إلا الموافقة.

وحتى يمنعها من أن تتفوه بأية كلمة، ضمها إلى صدره وراح يقبلها، وما إن تمكنت من إبعاد شفتيها عن شفتيه حتى رجته أن يكون أكثر واقعية «فمن يدري، قد تتبدل مشاعرك بعد وصولنا إلى نيويورك غداً».

ـ حسناً، غداً مساءً أبلغك بذلك. ولكن إن لم تتبدل مشاعري فهل تتزوجينني؟

ـ لا...

ـ إسمعيني زويا أوسيبوف. لم يسبق لي أن طلبت يد إمرأة. ولكني

أحبك، وأنا لست فتى مراهقاً، بل رجلاً يتحمل مسؤولية كلامه. أنا رجل أعمال ناجح، هكذا يعتقد الناس، أرجوكِ زويا أوسيبوف أن تتزوجينني.

ـ لا يا سيمون، طفلاي ما يزالان صغيرين، ويعتمدان عليَّ. ولا أعتقد أنهما على استعداد لتقبل فكرة وجود رجل آخر غير والدهما... ومن ثم، حتى أنا تعودت على حياة الوحدة.

ـ أعرف هذا... ولكن أرجوكِ فكّري بالأمر.

ـ سأفعل... ولكن لا أعدك بشيء.

عند السابعة من صباح اليوم التالي، وقف سيمون أمام غرفتها يقرع الباب ليدعوها لرؤية تمثال الحرية.

ـ كم الساعة الآن؟

ـ السابعة.

فتحت زويا الباب وهي ما تزال في ثياب النوم وشعرها متدلٍ على منكبيها.

ـ أسرعي لا تكوني كسولة.

ارتدت زويا معطفاً رقيقاً فوق ثياب النوم ورافقته إلى متن السفينة لرؤية تمثال الحرية.

ـ منظر جميل أليس كذلك؟

ـ فعلاً إنه كذلك.

أحنت زويا رأسها وراحت تتذكر كلايتون. كيف دعاها إلى رؤية

تمثال الحرية أيضاً، لكنه كان زوجها... إنه الزمن لا يثبت على حال. لا صيف دائم ولا شتاء.

على رصيف الميناء، كان نيقولا يلوح بيديه الإثنتين لوالدته وفي عينيه نظرات شوق. ركضت زويا وضمته إلى صدرها، فيما كان سيمون يبحث عنها فرآها مع ابنها.

«إنها الفرصة المناسبة، لا تدعها تفلت من يديك»، قالت آكسيل ومضت «إذهب إليها».

هز سيمون رأسه وتقدم من نيقولا «مرحباً... أنا سيمون هيرتش.. وأنت نيقولا أليس كذلك؟».

ابتسم نيكي خجلاً وتساءل: كيف عرفت؟

ـ لأن أمك كانت تتحدث عنك.

ـ وأنا كذلك، كنت أحدث أصدقائي عنها.

أمسك نيكي يد أمه وهو يحدق إليها فرحاً جذلاً.

ـ هل أمضيتِ وقتاً مسلياً؟

ـ نعم ولكني كنت مشتاقة إليك وإلى ساشا. حدّثته زويا بالروسية. وما إن انتهت حتى غرقت في الضحك وكذلك فعل سيمون. فهو أيضاً يتكلم الروسية وأدرك نيقولا هذا.

ـ إذن... أنت أيضاً تتكلم الروسية؟

ـ نوعاً ما... والداي من فلاديفستوك. وأمي ما تزال متعلقة بلغتها الأم...

لم يقل سيمون لكنها تكره الروس.

إستقلت زويا سيارة السيدة آكسيل التي كانت بالإنتظار.

ـ من هو هذا يا أمي؟ تساءل نيقولا باللغة الروسية. وباللغة ذاتها ردت عليه «إنه صديق للسيدة آكسيل... وصادف وجوده معنا على الباخرة».

ـ يبدو إنساناً لطيفاً.

ـ «فعلاً إنه كذلك» قالت زويا والإرتياح بادٍ عليها لما سمعت من إبنها... وعادت لتسأله عن ساشا.

ـ كعادتها... طلباتها لا تتوقف... إنها اليوم تريد كلباً.. وإن لم تحصل عليه، فالويل ثم الويل...

ـ ومن قال إننا سنقتني كلباً؟

ـ لأن طلبات ساشا لا ترد... بل تُلبّى. قال نيقولا بالفرنسية، الأمر الذي أضحك السيدة آكسيل.

ـ هكذا إذن؟

ـ نعم..

ـ ولكن... ليس في كل الأحوال.

كانت زويا تعي أن ساشا عنيدة، ومستعدة لفعل أي شيء، حتى تنال ما تريد، توقفت السيارة أمام شقة زويا فترجل نيقولا أولاً، لينحني أمام والدته قائلاً «أهلاً بكِ في بيتكِ سيدتي».

ابتسمت آكسيل وضحكت زويا. إنها مشتاقة جداً لهذه الشقة

وقضاء الأوقات مع ولديها، لكنها ستشتاق بعد الآن لسيمون الذي يبدو أنه نال إعجاب نيقولا.

ـ يبدو صديقكِ إنساناً محترماً. قال نيقولا للسيدة آكسيل.

ـ أعتقد ذلك. قالت آكسيل وهي تختلس النظر إلى زويا.

لم تكد تدخل زويا الشقة، وتوضب حقائبها حتى قُرع الباب. قفز قلبها من صدرها. هل هو سيمون جُنَّ فأتى؟

لكنها كانت باقة ورد ضخمة مع بطاقة مكتوب عليها «لا تنسي أني أحبك: س» إحمرت وجنتاها، وهي تخبيء البطاقة في حقيبة يدها. والتفتت إلى ساشا التي يبدو أنها كانت لديها لائحة مطالب، لها أول، إنما لا آخر لها؛ أول ما فعلته، كان الشكوى من نيقولا.

ـ لم أكد أصل بعد يا ساشا، فامنحيني وقتاً للراحة.

ـ وهل سنقتني كلباً؟

فعلاً كان نيقولا محقاً، إنها مزعجة، وحتى كل الهدايا التي جلبتها لها أمها من باريس، والفستان الأحمر خاصة، لم تتمكن من تليين مواقف ساشا أو التخفيف من حدة عصبيتها. أما نيقولا فكان ينظر إلى الساعة وابتسامة عريضة على شفتيه، فتقدم من أمه وقبّل يدها «أهلاً بكِ في البيت يا أمي».

ـ أحبك يا ولدي.. إلتفتت إلى ساشا وأنتِ أيضاً يا ابنتي.

وضمت زويا ولديها إلى صدرها وراحت تقبلهما.

ـ ولكن ماذا عن الكلب؟

ـ سأفكر بالأمر يا ساشا... سأفكر... لم تتمكن من إكمال حديثها بسبب رنين جرس الهاتف.

رفعت زويا سماعة الهاتف فإذ سيمون على الطرف الآخر، شكرته على باقة الورد، فيما ساشا مستمرة في الحديث عن الكلب وبصوت عال.

ـ هل اشتقتِ إلي؟

ـ نعم.

ـ رائع... وماذا عن العشاء مساء الغد؟

ـ وماذا عن الكلب؟ وغرقت زويا في الضحك، وكذلك فعل هو، فهو كان يسمع صوت ساشا.

ـ ماذا؟... هل ستتناولين لحم كلب؟

ـ فكرة رائعة...

ـ إذن. عند السابعة مساءً أكون عندكِ.

في الموعد المحدد، كان سيمون يقرع الجرس. شقة صغيرة، لكنها مرتبة جداً، تأكد أن زويا إنسانة رائعة، فازداد حبه لها وإصراره على الزواج منها.

رمقته ساشا بعين متسائلة «من يكون هذا؟» سؤال يعبر عن مدى انزعاجها من وجوده.

ـ إنه السيد هيرتش... وهذه ابنتي ألكسندرا.

مد سيمون يده وصافح ساشا، فيما كان نيقولا يخشى أن تتصرف ساشا تصرفاً أكثر فظاظة.

أثناء العشاء، اعتذرت زويا عن تصرف ساشا، لكنه لم يجد داعياً للإعتذار، وأضاف «ما رأيكِ لو نقوم غداً بعد الظهر بنزهة طويلة. نحن الأربعة».

ـ أتقصد مع الطفلين؟

ـ نعم.

ـ فعلاً إنك رجل شجاع ومخاطر...

ـ ليس بمقداركِ.

ـ حسناً غداً هو يوم الأحد، ولا عمل لدي.

صباح اليوم التالي، ورغم بعض اعتراضات ساشا، بدأت الرحلة الرباعية، مزهواً بنفسه، مغموراً بالسعادة، جلس نيقولا على المقعد الأمامي إلى جانب سيمون في سيارة الكاديلاك السوداء الفخمة، ذات الدواليب المزينة بإطار من اللون الأبيض. فيما زويا ـ ومن المقعد الخلفي ـ تراقب كل شيء وهي تغمر ابنتها وتلاعب شعرها. إنه مصمم، على كسب ود الطفلين، وود ساشا خاصة.

ـ أترغب في القيادة أيها الفتى؟

ابتسم نيقولا ثم أغرق في الضحك. «لكني لا أجيد القيادة...».

ـ لا عليك...اقترب مني وامسك المقود.

اقترب نيقولا من سيمون وأمسك مقود القيادة، فيما يدا سيمون ما تزالان عليه أيضاً. أحس نيقولا أنه رجل، وكان سيمون يوجه له الإرشادات.

أدركت زويا، أن سيمون كان محقاً في اعتقاده، أن نيقولا، بحاجة لرجل يُشعره بالراحة والإطمئنان، إلى رجل يمنحه الحب والحنان، صدقاً لا تزلفاً. حتى ساشا، صارت ترتاح لوجوده.

لم يترك سيمون وسيلة تقرّبه منهما، إلا ولجأ إليها. أغدق بالهدايا على ساشا، وتعامل مع نيقولا، على أنه رجل، حتى، ومع الأيام، صار وجوده معهم، سبب إحساس بالراحة النفسية. ساشا، لم تعد هي ساشا التي كانت قبل شهر، وإن رفضت زويا لها طلباً، فسيمون يلبيه.

ذات مساء، وبعد أن أوى الطفلان، كل إلى سريره، حدق سيمون إلى عيني زويا.

ـ حسناً كونتيسة أوسيبوف؟

ـ حسناً ماذا سيد هيرتش؟

ـ هل نجحت في كسب ودهما أم فشلت؟

ـ الجواب عندك يا سيمون.

ألقت زويا رأسها على صدره، وسمحت ليديه بملاعبة شعرها ومداعبة جسدها.

ـ وجودك... يُسعد نيقولا... لقد أحدثت تغييراً مهماً في حياته، وكذلك في حياة ساشا. إنها تحبك فعلاً.. وترتاح إليك، لكنك أسرفت في تدليلها...

ـ ولكن ماذا عن والدتها؟

ـ ما بها والدتها؟

ـ أتحبني كما تحبني ابنتها؟

ـ وهل لديك أي شك؟ قالت زويا، وهي تقرّب شفتيها من شفتيه.

ـ إذن؟... هل تقبلينني زوجاً لكِ، يا زويا أوسيبوف؟

نهضت زويا، ووقفت قبالته وعيناها تحدقان به. شدها إليه، وأجلسها على حضنه وقبلها بنهم وهو يردد السؤال ذاته.

ـ هل تقبلينني زوجاً لكِ، يا زويا أوسيبوف؟

ـ نعم... نعم... أقبل بك زوجاً لي يا سيمون هيرتش.

عاد وشدها إلى صدره، وهو يقبل شفتيها ووجنتيها وعنقها ويده تلاعب ساقيها، متعمداً رفع تنورتها لتكشف عن ساقيها، حتى الآن لم يتمكن سيمون من ممارسة الحب معها، حتى ولم يتمكن من رؤية ساقيها.

ـ أجادة أنتِ فيما تقولين؟

حتى هذه اللحظة، كان ما يزال يخشى ألا تقبل به. سمع جوابها لكنه ما يزال خائفاً؟

ـ نعم... نعم يا سيمون، أنا جادة فيما أقول.

ثانية شدها إليه، ويداه تداعبان جسدها. عبّر عن رغبته بممارسة الحب معها، لكنها تمكنت من إقناعه ألا يفكر بهذه الممارسة، قبل الزواج.

الفصل الثامن والثلاثون

فوجئت السيدة آكسيل بقرار زويا وتساءلت عن موقف الطفلين.

ـ لم نخبرهما بعد.... لكنه يعاملهما بلطف ويمنحهما الحب ودائماً يصطحبهما في نزهاته، ويدعوهما إلى العشاء أحياناً.

ـ وهل ستتركين العمل؟

ـ لا.. ليس سريعاً.. لقد اتفقنا على تأجيل موعد الزفاف لبضعة شهور، حتى أتمكن من وضع الطفلين في الجو، وأتعرف إلى والديه.

ذات مساء، ودون سابق إنذار، جاء سيمون حاملاً باقة ضخمة من ورود الليلك الأبيض، وعلى شفتيه إبتسامة سحرية.

ـ يبدو أنك جد مسرور يا سيد هيرتش.

ـ ولماذا لا أكون هكذا، طالما أنتِ إلى جانبي، طالما أن حبيبتي هي أجمل إنسانة في الكون.

وضعت زويا الورود في إناء من الكريستال، كانت قد اشترته لتستعيد بعضاً من ذكرياتها في قصر فونتانكا.

ـ ورود جميلة أليس كذلك؟ شكراً.

ـ إنما... أجمل منك لا...

بلطف ورفق أحاط خصرها بذراعيه «دعينا نذهب إلى أي مكان... السماء صافية والطقس معتدل».

كان يعلم أن الطفلين يمضيان عطلة نهاية الأسبوع خارج المنزل، إذن أمامهما يومان، السبت والأحد، فلماذا لا يستمتعان بالحياة معاً؟

ـ فكرة جيدة...

خرجت من غرفة الجلوس، باتجاه غرفة النوم والإبتسامة على شفتيها. فيما أخذ هو ينظر إلى صور عائلة رومانوف، وصور عائلتها هي، وخاصة صورها مع بنات القيصر؛ وكذلك إلى صور نيقولا وساشا، وفيما هو كذلك، وقفت أمامه ترتدي فستاناً أبيض وسترة زرقاء بلون مياه البحر؛ لم تسمح له أن يبدي إعجابه. لأنها بادرته بالسؤال «إلامَ كنت تحدق؟».

ـ كنت أحدق إلى الصور، وصورة نيقولا خاصة، أعتقد أنه يشبه والده؟

ـ نوعاً ما، لكنه يشبه والدي أيضاً.

مدت يدها وتناولت إطاراً فضياً يضم صورة والدها وإلى جانبه صورة أخيها نيقولا «كذلك يشبه خاله».

ـ إنها عائلة مميزة، أرستقراطية.

علت وجه زويا مسحة حزن «رحمهم الله... كثيراً ما أفكر أن على المرء أن يحيا حاضره وينسى ماضيه، وبخاصَّة إذا كان يغُصُّ بالأحزان والمآسي... إنه أمر صعب.... يستحيل عليّ نسيانهم».

أدرك سيمون أن عليه مساعدتها على الخروج من ماضيها، ولن

يكون هذا، إلا بانتظار استعدادها الكُلّي لتبدأ حياة جديدة، ومع إنسان جديد....

ـ دعينا من كلّ هذا الآن... هيا بنا.... وتابع حديثنا أثناء الرحلة.

ـ لا مانع عندي... أنا مستعدة... ولكن إلى أين سنذهب؟

ـ إلى مكان ما... لن أقول لك إلى أين.

ـ وهل يعني هذا، أنك تختطفني يا سيد هيرتش؟

جلست إلى جانبه وعيناها مشرقتان، إنها ذاهبة مرتاحة الضمير، فالطفلان لن يعودا قبل مساء الغد. إذن فلتغرف من السعادة بقدر ما تستطيع.

ـ أتعرفين؟ الإختطاف فكرة جيدة... ولكن كان عليّ أن أقوم بها في باريس وليس هنا...

ـ يبدو أنك متجه نحو كنتاكي... أليس كذلك؟

ـ بلى

كان يقود سيارته ويحدثها عن أمانيه وأحلامه، عن مجموعة أزيائه لفصل الخريف، عن مدى إعجابه باللوحات الإنطباعية عن الحياة والمستقبل. وهي بدورها، حدثته عن اللوحات التي كانت تزين جدران قصر فونتانكا «لكن الأشياء فقدت قيمتها عندي... لقد سبق لي وأوليت اهتمامي لأشياء كثيرة، إنما بعد الذي أصابني، بعد أن اضطررت إلى بيع كل شيء، حتى مجوهراتي وثيابي لسداد الديون. لم أعد أفكر بشيء... طفلاي فقط هما ما يعنياني...».

المشوار طويل والحديث أطول، وكلما مرت دقيقة أحست زويا

بالمزيد من السعادة، أحست أنها لم تعد قادرة على الإبتعاد عنه ولو لساعة واحدة. أحنت رأسها على صدره وأغمضت عينيها، وكأنها تحاول ألا ترى شيئاً إلاه، وألا تشعر بأحد سواه.

ـ أمتعبة أنتِ؟

ـ لا... بل جد سعيدة.

ـ قاربنا الوصول.

ـ إلى أين؟

ـ إنه سر.

ضحكت دون أن ترفع رأسها عن صدره. وما هي إلا نصف ساعة حتى توقف سيمون أمام منزل صغير مبني على الطراز الإنكليزي، مسور بشجر السرو والحور وبينها جميع أنواع الورود المتعددة الألوان، شذاها يفوح، وعصافير تطير حيناً، ثم تغط على غصن أو على وردة. وقفت زويا أمام المنزل مندهشة لجمال ما ترى.

ـ منزل من هذا يا سيمون؟

ـ بودي لو أقول منزلي... إنه منزل سيدة إنكليزية عجوز، حولته إلى فندق صغير، يوفر الراحة لرواده وأشهى المآكل للجائعين. سبق لي وأتيت إلى هنا؛ هرباً من صخب نيويورك وزحمتها، هرباً من جنون المتهافتين على تكديس الأموال وزيادة الأرباح. سبق لي وأتيت إلى هنا، طلباً لذاتي وإراحة لذهني قبل جسدي، أتيت رغبة بالإختلاء مع روحي.

لكنه لم يقل، إنه اتصل بالسيدة ويتمان قبل مجيئه اليوم إلى هنا ليعلمها أنه آتٍ وليس وحيداً.

ما إن وطئت قدم زويا أرض غرفة الإستقبال حتى أحست أنها تدخل مكُلينعث الدفء. مقاعد منجدة بقماش قطني مزركش وطاولات موزعة بشكل يسمح للزوار، لا أن يتناولوا أطيب المآكل أو يشربوا الشاي الإنكليزي بأكواب فضية، بل، يمتعون عيونهم بمناظر طبيعية لا أروع منها ولا أجمل، وأن يتنشقوا عبير الورود والأزهار.

ـ كم هو رائع أن أراك مجدداً سيد هيرتش. قالت السيدة ويتمان وهي تشد على يده مرحبة به وبزويا التي قدمها لها على أنها خطيبته.

ـ ما هذه الأخبار السارة؟

ضحك الثلاثة، فيما كانت السيدة ويتمان تعد الشاي لضيفيها وتحدق، في الوقت ذاته، بزويا. فعلاً إنه إنسان محظوظ... إنها إنسانة، عدا عن أنها جميلة ورقيقة، فهي من سليلة عائلة أرستقراطية. واحتفاءً بالمناسبة، قدمت لهما قنينة نبيذ فاخر صنع 1923، الذي يفضله سيمون. أدركت زويا، أن وجودها هنا، ليس مصادفة، بل مخطط له مسبقاً.

ما إن أخذت الشمس تميل إلى الغروب، حتى أمسكت السيدة ويتمان كأسها، وتركت ضيفيها لوحدهما، بعد أن رمقت سيمون بنظرة خبيثة؛ أخذ سيمون يحدثها عن هذا الفندق الصغير وفخامة أثاثه، في الأعلى غرفتا نوم، في كل غرفة سرير من الطراز الفيكتوري، ومقعد وثير ومرآة مرصعة بالفضة معلقة على الحائط إضافة إلى غرفة استحمام مع مغطس كبير.

ـ تعالي والقي نظرة.

ترددت زويا بالإجابة «ولكن... إذا لاحظت السيدة ويتمان ذلك؟».

كانت زويا، تتساءل عن المكان الذي ذهبت إليه السيدة العجوز، وتتساءل أيضاً لماذا تركتهما وحيدين؟ أين اختفت ولماذا؟

ـ لا تكوني حمقاء. أنا أعرف هذا المكان، كما أعرف منزلي.

أمسك يدها وقادها إلى الطابق الأعلى عبر درج لولبي ومن ثم إلى غرف النوم. ابتسمت زويا، واندهشت لجمال مفروشاتها، كانت الأنوار المتدلية من السقف تلقى على الأسرّة، شعاعاً متعدد الألوان، وعلى الطاولات باقات ورد أبيض، وبدا واضحاً أن الأسرّة مهيأة لاستقبال زبائن، ولكن لا أحد غيرهما هنا. حاولت الخروج والعودة إلى الطابق السفلي، إلا أنه أخذها بين ذراعيه وشدها إليه وراح يقبلها على شفتيها وعنقها، فيما يداه تداعبان جسدها، ومن ثم ألقاها على السرير، وهو يحاول تعرية صدرها، فيما هي تحاول الإفلات منه.

ـ ما بك سيمون، سنفسد ترتيب الأسرّة، وقد تنزعج السيدة ويتمان... أرجوك توقف.

ـ هذا ما أتمناه...

ـ أرجوك سيمون دعني أعود إلى الطابق الأسفل.

ـ لن أسمح لكِ.

ـ يبدو أنك ثمل.

ـ لا لست كذلك... ولكن هل تذكرين ما قلته لي هذا الصباح؟

ـ عما تتكلم؟

ـ حين سألتني عما إذا كنت أختطفك. فاعتبري نفسك مخطوفة ليومين. اليوم وغداً.

ـ أجاد أنت فيما تقول؟ سنمضي الليل هنا؟

ـ نعم... أنتِ وأنا... لقد سمحت لنفسي أن أفعل هذا... أنا أحبك... أحبك...

ـ أعرف ذلك يا سيمون وأنا كذلك.

ارتمت على السرير إلى جانبه وأحاطته بذراعيها وراحت تقبل شفتيه وعنقه «ولكن لماذا لم تخبرني بذلك. كنت...»

مد يده ووضعها على فمها فأسكتها، ونهض من مكانه وخرج وهو يقول «إبقي هنا لا تتحركي».

لحظات قليلة وعاد يحمل بيده حقيبة، تضم كل شيء، قد تحتاجه زويا لقضاء هذه الليلة، فرشاة أسنان، معجون أسنان، أحمر شفاه، صابون الإستحمام، زجاجات العطر، وما شابه، إنما الأهم. هو الثياب الداخلية ورداءين للنوم، رداءين مغريين.

ـ سيمون، ماذا ستقول السيدة ويتمان. فهي تعرف أننا غير متزوجين؟

ـ ماذا بمقدورها أن تقول؟ لكل منا غرفته.

كان هو يتكلم، وهي مدفوعة بالحشرية لمعرفة ما في هذه الحقيبة فتقدمت منها وفتحتها. كادت أن تصاب بنوبة إغماء «سيمون... ألم تنسَ شيئاً؟».

ـ أتمنى ذلك.

عند التاسعة ليلاً تركته وقصدت غرفتها. كان مستلقياً على سريره والنار تلتهم جسده، وهو يصغي لصوت الماء ينهمر في غرفة

الإستحمام، ويتخيل ذاك الجسد، لقد خطط لكل شيء، وها هي خطته تسير كما رسم . بعد أن سكت صوت الماء... بدقائق، قصد غرفتها، برفق قرع بابها... لم تتردد في فتح الباب، رغم أنها ترتدي قميص نوم، لا يصلح إلا لليلة الزفاف. قميص نوم قصير من الساتان العاجي اللون، ساقان أشبه بعامودي مرمر، نهدان بارزان وشعر متدلٍ على كتفين شبه عاريين.

ـ يا إلهي ما هذا الجمال؟ قال دون أن يحاول الدخول. لم يكن راغباً في إجبارها على فعل شيء لا ترغب هي فيه.

ـ زويا...

ابتسمت، وهي تنظر إليه حيناً، وإلى جسدها حيناً آخر، وإلى وجهه المشع نوراً، وشفتيه المرتعشتين.

ـ هل ستبقى واقفاً مكانك؟... لماذا لا تدخل؟

أسرع وأخذها بين ذراعيه، دون أن يدري كيف يتصرف، إنها أشبه بآلهة الحب عند اليونانيين، ويداه تعريانها شيئاً فشيئاً وهي بدورها تخلع ثيابه قطعة قطعة.

كما خلقتني يا رب، وقفا وجهاً لوجه. سيمون لا يدري أين ينظر، إلى الكتفين، إلى الصدر، إلى الساقين؟ إلى الردفين؟ إنها تحفة فنية تقف أمامه.

منذ زمن لم أتعرف على هذا الإحساس، على هذه الرغبة بممارسة الحب. أتذكر الآن، وقفتي الأولى أمام كلايتون، ولكن، يومها كنت طفلة، كنت مدفوعة بقوة الجنس، أما الآن، فأنا مدفوعة بدافع الحب.

حملها على ذراعيه، وبحركة من رجله أغلق الباب، ثم وضعها على السرير وتمدد إلى جانبها، كل يداعب جسد الآخر ويتبادلان القبل. التصق الجسدان حتى أصبحا جسداً واحداً، لا هي راغبة بالإبتعاد عنه ولا هو.

بعد ساعات، غرقا في النوم على سرير واحد، دون اهتمام بارتداء أي قطعة ثياب.

ـ أتعتقد أننا ارتكبنا خطيئة يا سيمون؟

ـ لا... تصرفنا كعروسين في ليلتهما الأولى. هذا هو شعوري.

ـ وأنا كذلك، هكذا شعرت. كنت رائعاً يا سيمون.

ـ أنا؟ وماذا عنكِ إذن؟

الفصل التاسع والثلاثون

كان لتلك الليلة في فندق السيدة ويتمان، أثر كبير على حياتهما. أصبحا غير قادرين على الإفتراق. ويوماً بعد يوم، كانت زويا تخشى لحظة تعرفها على عائلة سيمون، وعلى أمه خاصة.

بعد أسبوعين بالتمام، على تلك الليلة، وبعد ظهر يوم الجمعة تحديداً، كان يتنزهان معاً، حين فاجأها سيمون «الليلة سنتناول العشاء مع عائلتي».

تسمرت زويا مكانها، لم تكن قادرة، لا على الحركة، ولا التفوه بأيّ كلمة. لقد جاءت الساعة التي تخافها.

ـ هكذا؟ لماذا لم تخبرني مسبقاً... كنت هيأت نفسي لمثل هذا اللقاء.

ـ لا تكوني حمقاء، فهذا اللقاء سيتم، إن لم يكن اليوم فغداً...

ـ أجزم أنها سترميني خارجاً.... كان الله بعوني.

كانت زويا محقة في تخوفها، إذا ما إن دخلت المنزل، حتى رمتها والدته بنظرة استغراب.

زويا أندروز؟ أي نوع من الأسماء هذا؟ هل أنتِ روسية الأصل؟ قالت هذا، لأن إسم زويا لا يعرفه أحد إلا الروس.

ـ لا... سيدة هيرتش... أنا روسية.

ـ أنتِ روسية؟ قالت بلهجة العامة عند الروس، التي طالما سمعتها زويا أيام طفولتها، وتذكرت أن الطبقة الراقية في روسيا تتكلم بأسلوب شعري مميز، وأدركت أن السيدة هيرتش ستلاحظ ذلك.

ـ نعم، أنا روسية. صممت زويا على مواجهة الموقف، لأنها مدركة كل الإدراك، أن لا شيء، ولا أحد، بمقدوره الحؤول دون زواجها من سيمون.

ـ ومن أين في روسيا.

ـ من سان بطرسبورغ.

ـ سان بطرسبورغ؟... ساورت الظنون رأس صوفيا والدة سيمون، فتابعت التساؤل «ما اسم عائلتك؟».

لأول مرة، تشعر زويا بالسعادة، لأنها لا تنتمي إلى عائلة رومانوف. لكن إسم عائلتها معروف أيضاً.

ـ أوسيبوف... زويا قسطنطينوفا أوسيبوف.

تـدخـل سـيـمـون، داعـيـاً زويـا إلى الجلـوس «هكذا... ستبقيان واقفتين... تعالا واجلسا وتابعا حديثكما».

ـ ومتى جئتِ إلى هنا؟

ـ بعد إنتهاء الحرب، ولكني أتيت أولاً إلى باريس عام 1917، أي بعد الثورة.

ـ يعني خرجتِ من روسيا مطرودة... لقد نفاكِ الثوار.

ـ يمكنك قول ذلك... لقد تركتُ روسيا برفقة جدتي... وبعد مقتل عائلتي.

ـ وهذا ما أصاب عائلتي أيضاً... قتل جميع أفراد عائلتي في المذبحة التي ارتكبها حراس القيصر القوزاق.

ـ أنا جد آسفة سيدة هيرتش.

تدخل والد هيرتش، طالباً من زوجته الإهتمام بإعداد الطعام في المطبخ تمهيداً لوضعه على الطاولة، حيث الشموع المضاءة.

بعد تلاوة صلاة السبت، راحت السيدة هيرتش تتحدث عن الطعام اليهودي والعادات اليهودية ثم التفتت إلى ابنها «إنه شاب وسيم، كان يفترض به أن يكون حاخاماً، ولكن... اهتم بالأعمال التجارية، متناسياً ذلك الحلم الذي كان يراودني».

تأكدت زويا، أنها مقدمة على الزواج من رجل يهودي ينتمي إلى عائلة جد متدينة، في حين، لا تعرف هي، عن اليهودية شيئاً. ولا تعرف عما إذا كان هو متديناً كوالدته.

بعد الإنتهاء من تناول العشاء جاء دور السؤال الأصعب والأحرج «والدك؟ ما كانت وظيفته؟».

ـ أبي كان ضابطاً في الجيش.

ـ في فوج القوزاق؟ تساءلت السيدة هيرتش بأسلوب استغراب واستهجان.

ـ لا يا أمي... لا. أجاب سيمون مدركاً مدى حراجة موقف زويا، التي كان عليها إثبات صحة ما قاله سيمون.

ـ زويا كونتيسة يا أمي.... صدقيني إنها إنسانة متواضعة جداً، ولهذا لا تذكر اللقب أبداً، إلا فيما ندر.

ـ كونتيسة؟ كونتيسة؟

ـ لا... كنت كونتيسة، أما الآن، وبعد تسعة عشر عام على اندلاع الثورة، لم أعد كذلك، أنا الآن إنسانة عادية... جد عادية.

خيّم صمت رهيب على الجميع؛ قطعه سيمون «عيبها الوحيد أنها ليست يهودية، إن كنتِ تعتبرين هذا عيباً يا أمي».

تقدمت صوفيا من ابنها متسائلة همساً «ولكن أيمكنها أن تصبح يهودية؟».

انفرجت أسارير سيمون، أدرك أنها أعجبت بها لكنه بالوقت ذاته، كان يرفض أن يفرض عليها تغيير دينها وأحب أن يكون واضحاً في ذلك «لا أعتقد أن هذا أمر ضروري يا أمي... وإن قبلت هي، فلن أقبل أنا».

التفتت صوفيا نحو زويا والإبتسامة على شفتيها.

ـ أخبرني سيمون أنكِ أم.

ـ نعم.. أنا أم لطفلين.

ـ هل أنتِ مطلقة؟

ـ لا... لست مطلقة... توفي زوجي بنوبة قلبية. كان ذلك، منذ سبع سنين.

ـ إنه لأمر مؤسف، وكم تبلغ أعمار طفليك؟

ـ نيقولا في الخامسة عشر، أما ألكسندرا فهي في الحادية عشر.

بدا واضحاً أن صوفيا، ارتاحت لزويا. وجدتها صادقة وأماً صالحة تهتم بتربية طفليها. أما سيمون، فقد أحب إنقاذ زويا، فعبر عن ضرورة عودة زويا إلى المنزل، لأن طفليها في انتظارها.

ـ كان لقاء ممتعاً. قالت السيدة صوفيا، «أتمنى أن يتكرر اللقاء».

ابتسمت زويا، وهي تصافحها مودعة، وشكرتها على حسن ضيافتها باللهجة الروسية الأرستقراطية.

يدّابيد، خرج سيمون وزويا، متجهين نحو الكاديلاك المركونة أمام مدخل المنزل.

ـ أنا جد آسف يا زويا، وضعتكِ في موقف حرج. قال سيمون وهو يقود السيارة على طريق العودة.

ـ لا يا سيمون... أحمد الله أنك لست مضطراً لمواجهة والدتي، إذ لكنت واجهت موقفاً أكثر حراجة من الموقف الذي كنتُ فيه.

ـ ما كنت أعتقد أنها ستنهال عليكِ بالأسئلة... لن أفعل ذلك ثانية.

ـ لا... بل عليك أن تفعل. كنت خائفة أن تسألني عن القيصر. وثق أني كنت سأقول لها كل الحقيقة... ولو حصل ذلك، لكانت أصيبت بنوبة قلبية.

ـ معك الحق. كل الحق...

ـ أنا متأكدة أنها كانت ستطردني.

ـ لا يمكنها فعل ذلك. إنها إنسانة متسلطة، وبالوقت ذاته

حنونة جداً. على فكرة هي تعد أطيب حساء دجاج في العالم.

ـ سأطلب منها أن تعلمني كيف تعدها.

ـ لا تفكري بشيء من هذا القبيل سيدة أندروز أو تفضلين أن أناديكِ كونتيسة أوسيبوف؟

ـ ما رأيكِ لو ناديتني زويا هيرتش؟ أوليس هذا أفضل؟

الفصل الأربعون

ذات مساء، رأت ساشا سيمون يقبل والدتها في المطبخ. رمقتها بنظرة احتقار، ودخلت غرفتها، رافضة الخروج منها، حتى ما بعد العشاء، حين وقف نيقولا، أمام باب غرفتها، مهدداً بخلعه إن لم تخرج وتنضم إليهم.

ـ ما بكِ تتصرفين بهذه العدائية... عليكِ الإعتذار منهما ومن والدتكِ خاصة.

ـ لن أفعل ذلك... رأيته يقبلها...

ـ إنها تحبه.

ـ إنما لا يحق لها تقبيله... إنه تصرف مثير للإشمئزاز.

ـ أنتِ التي تثيرين الإشمئزاز... إذهبي واعتذري منهما. رضخت ساشا لطلب شقيقها، وانضمت إلى الجميع في غرفة الجلوس، دون أن تعتذر، أو تبدي أي ندم على تصرفها.

بعد مغادرة سيمون، اقتربت زويا من ابنتها. قبلت جبينها ولاعبت شعرها، وهي تنظر إليها مبتسمة.

ـ ساشا... أنا أحبه.

شرعت ساشا في البكاء والنحيب «ولكن ماذا عن أبي؟ أما تحبينه؟».

ـ لا شك في ذلك، ولكن أين هو والدك الآن؟ لقد رحل... منذ زمن لم يعد موجوداً بيننا... إنه ميت يا صغيرتي، ونحن الان بحاجة لمن يحبنا ويعتني بنا... وسيمون يحبنا جميعاً، يحبني ويحبك ويحب نيقولا.

ـ وأنا أحبه أيضاً. قال نيقولا متدخلاً «هل تنويان الزواج؟».

ـ نعم يا بني.

أصيبت ساشا بنوبة جنون «إني أكرهك... فأنتِ تدمرين حياتي».

ـ لماذا تقولين هذا يا ابنتي؟ أما تحبينه؟ إنه رجل طيب، ومستعد لفعل أي شيء من أجل أن نكون سعداء.

حاولت زويا أن تضم ابنتها إلى صدرها، لتشعرها بحب الأم، وحنانها، لكن ساشا ابتعدت عنها وهي تزعق «أكرهكما معا» كانت ساشا تتلذذ بتعذيب والدتها.

ـ إعتذري وإلا سأصفعك. قال نيقولا وهو يرفع يده.

ـ توقفا عن هذا الشجار... قالت زويا... فالصراخ لا يحل المشاكل، بل التفاهم.

ـ ومتى ستتزوجان؟ تساءلت ساشا، بعد أن مسحت الدموع عن خديها.

ـ حتى الآن... لا ندري...

ـ ولماذا لا تتزوجان مع بداية الصيف؟ هكذا نمضي الصيف

معاً... إقترح نيقولا، وعيناه ترمقان شقيقته ليتفحّص ردة فعلها...

راقت الفكرة لزويا، وهي لا شك فكرة ستسعد سيمون.

ـ لكني لن أرافقكم إلى أي مكان. قالت ساشا.

ـ بلى ستفعلين، وإلا وضعتك في حقيبة سفري، وهكذا لن نكون مضطرين للإصغاء إلى انتقاداتك أو طلباتك.

ـ اكرهك أنت أيضاً... لن أذهب إلى أي مكان معكم.

ـ أتعرفين يا ساشا؟ إنكِ إنسانة غيورة، تغارين من أمي...

ـ إخرس... أنا لست كذلك.

ـ بلى أنتِ كذلك...

كاد أن يغمى على زويا... إنها بالفعل محبطة... إنها حائرة. تحب طفليها، وفي الوقت ذاته تحب سيمون، وغير قادرة على العيش بدونه. وهكذا، أمضت ليلها قلقة مضطربة.

ـ فكرة حسنة... قال سيمون معلقاً على اقتراح نيقولا، إنه يعي مدى أهمية ساشا عند زويا، وفي الوقت ذاته يدرك أنه من الممكن تهدئة ساشا من خلال تلبية طلباتها، التي لا حصر لها، من ثياب جديدة، إلى ألعاب... إلى .... إلى.

ـ لماذا لا نتزوج خلال شهر تموز، ونذهب إلى صن فاليه برفقة الأولاد؟

ـ أما يزعجك وجودهما معنا أثناء شهر العسل؟

ـ بالطبع لا... ولكن ماذا عنكِ أنتِ؟

ـ وتسألني؟

ـ إذن ما رأيكِ يوم الثاني عشر من تموز إنه يوم أحد. مد يده وأحاط خصرها. شعرت بسعادة، افتقدتها منذ زمن طويل.

ـ ولكن ماذا عن والدتك؟

ـ سنتركها مع ساشا، إنهما متشابهتان.

الفصل الحادي والأربعون

يوم الثاني عشر من تموز عام 1936، وفي حديقة منزل السيدة آكسيل، أعلن القاضي، سيمون هيرتش وزويا أندروز زوجاً وزوجة، بحضور عدد قليل جداً من الأهل والأصدقاء، وغياب السيدة صوفيا هيرتش، إحتجاجاً على عدم اعتناق زويا الديانة اليهودية، نيقولا، كان يقف إلى جانب والدته، وقفة رجل، أما ساشا فقد حضرت مكرهة.

عند الرابعة بعد الظهر انتهى حفل الزواج وعاد الأربعة، سيمون، زويا، ساشا ونيقولا، إلى شقة زويا، استعداداً، لقيام العروسين برحلة شهر العسل إلى صن فاليه برفقه الطفلين اللذين أغدق سيمون بالهدايا عليهما، حتى أن ساشا، اضطرت للتعبير عن فرحتها، ليس بسبب الهدايا فقط، بل بسبب سرورها في تلك الرحلة من بنسيلفانيا إلى شيكاغو على متن القطار السريع، حيث نزل الجميع في فندق بلاك ستون. في هذه الليلة، أدركت زويا، مدى أهمية العمر في إضفاء الحيوية على العلاقة الجسدية وممارسة الحب. إنها المرة الثانية التي تمارس الحب مع سيمون. الأولى كانت في منتجع السيدة ويتمان، لكنها أحست، وكأنها ما تزال في العشرين من عمرها، لقد عرف سيمون، كيف يتعامل مع جسدها، وكيف يشبعه.

ثلاثة أشهر فقط مرت على لقائهما الأول، ثلاثة أشهر، غيرت مجرى

حياة زويا، وحياة عائلتها، شعرت وكأنها تحب سيمون منذ زمن طويل. كان سيمون، يصطحب الطفلين يومياً للسباحة وتعليمهما صيد السمك.

بعد شهرين، قرر الزوجان الإنتقال إلى شقة جديدة، أكثر إتساعاً وإراحة. فكان لنيقولا غرفته الخاصة، المجهزة بكل ما يسرّه، وما تمناه، أما ساشا، فقد أصرّت أن تطلي جدران غرفتها، باللون الأرجواني.

ـ لكِ ما تريدين يا صغيرتي، أنا كذلك، كانت جدران غرفتي في فونتانكا باللون الأرجواني.

واستغلت زويا المناسبة لتحدث طفليها عن شيء من ماضيها في سان بطرسبورغ وتسارسكوي سيلو.

ذات بعد ظهر، خرج رجلا العائلة، سيمون ونيقولا، للتنزه في شوارع نيويورك، كان نيقولا، يُسرّ جُداحين يسمح له سيمون الإمساك بمقود الكاديلاك.

ـ «أنظري ماما»... قال نيقولا وهو يدخل الشقة بعد عودتهما «إنه يشبه ساقا»؛ تعجبت زويا لرؤية الكلب الصغير بين يديه، لكن ساشا، وكعادتها، أصرت على أنها تريد كلبّاروسيا، كذاك الذي يستعمل في مطاردة الفرائس. وفي الوقت ذاته، كانت ساشا، تمضي معظم أوقات فراغها في غرفتها. تتسلى بألعابها الكثيرة والمتنوعة.

ـ ماذا عسانا نفعل بالغرفة التي ما تزال فارغة؟

ـ إنها للضيف الجديد، إنها غرفة مولودنا الأول.

ضحكت زويا وهي تهز رأسها.

ـ سيمون....؟ لا شك أنك تمزح... أنا لم أعد بعمر يسمح لي بالإنجاب... أنا في السابعة والثلاثين، وعندي طفلان، بعد سنوات قليلة قد أصبح جدة.

أحاط خصرها بيده، وقادها نحو السرير، حيث تمدّداً جنباً إلى جنب، يتحدثان، يتبادلان النكات والضحكات والقبل الحارة. تذكرت كلايتون، لكن حياتها اليوم، تختلف كلياً عن حياتهما السابقة. إنها وسيمون، يتقاسمان الأفكار والتطلعات ذاتها والأصدقاء نفسهم. إنهما متقاربان في العمر ومدركان مدى أهمية الرباط الزوجي. ولا تنكر أن كلايتون أنقذها من الجوع والفقر في باريس، وانتشلها من وحدتها وحزنها ويأسها حين تزوجها عام 1919، وأتى بها إلى هنا... إلى نيويورك.

أحنت رأسها ووضعته على صدره، لا طلباً للحماية، كما كانت تفعل مع كلايتون، بل تعبيراً عن حب ورغبة في الذوبان بين يديه. إنه يشركها في كل القرارات المتعلقة بحياتهما معاً ولا يفرض عليها رأياً، وإن كان طلب منها، التوقف عن العمل في متجر آكسيل، فلم يطلب ذلك، إلا رغبة منه أن تتفرغ لمنزلها ولولديهما اللذين هما ليسا ولديه، لكنه لا يعاملهما إلا معاملة الأب لبنيه.

ـ والآن كيف سأمضي ساعات النهار بلا عمل؟ تساءلت زويا، وهي تجلس على كرسيها خلف مكتبها الخشبي الفخم في متجر السيدة آكسيل. «نعم... لا شك سأشعر بالملل والضجر...».

لو كان القرار يعود لها، لما كانت زويا وافقت على ترك عملها مع السيدة آكسيل، لكن سيمون، تمكن من إقناعها، رغم هذا، فهي غير

قادرة على تصور نفسها أن لا تأتي يومياً إلى هنا... ولو لبضع ساعات.

ـ أتعرفين سيدة آكسيل؟ إنكِ تتكلمين كسيمون... هو أيضاً يطالبني بالإنجاب.

ـ إنه محق...

ـ ولكني لست قادرة على البقاء في المنزل... هكذا... كامرأة عجوز.

ـ لا أعتقد ذلك...

وانهمرت الدموع من عيني السيدة آكسيل وهي تمد يدها مودعة زويا التي حضر سيمون لاصطحابها إلى المنزل.

ـ إعتنِ بها يا سيد هيرتش... إنها امرأة نادرة.

ضحك سيمون وهو يصافح السيدة آكسيل التي كانت السبب في تأجج علاقة الحب، بينه وبين زويا «أعتقد أنه عليك وضع حواجز من الشريط الشائك أمام محلاتك، للحؤول دون عودتها إلى هنا... من الآن وصاعداً، عليها اكتشاف عالم آخر، غير عالم الأزياء والنساء والرجال وعشيقاتهم».

يوماً بعد يوم، تكشّف لزويا، أن الملل بدأ يتسرب إلى يومياتها؛ رغم أنها تزور آكسيل أحياناً ولساعات، ورغم أنها تكفلت بإيصال ساشا إلى المدرسة وإعادتها إلى المنزل، ورغم أنها تعودت زيارة المتاحف، وزيارة سيمون في مكتبه من حين لآخر، وإبداء الرأي في تصاميم المعاطف بشقيها الرجالي والنسائي.

ـ سيمون... حتام أبقى هكذا؟ ما رأيك لو أعود إلى العمل في متجر السيدة آكسيل؟

ـ ولكن لماذا لا تفكرين بشيء جديد؟

وبماذا ستفكر؟ فهي لا تجيد إلا الرقص وبيع الألبسة!!! غرقت في الضحك وهي واقفة أمامه في غرفة النوم عارية الساقين، كما يحب، أن تكون، حين يكونا وحيدين. إنها ما تزال جميلة، ولا أحد يصدق أنها أم لابن في الخامسة عشر من عمره. كان ينظر إليها بعينين شهوانيتين. كل ما فيها يشده إليها، يثيره، يشعره بالحياة والسعادة.

ـ لماذا تضحكين هكذا؟

ـ لا شيء... تذكرت، يوم كنت أعمل راقصة عارية وكيف كان الزبائن ينظرون إلى ساقي العاريتين، وتخيلتك واحداً منهم.

ـ أنا...؟ أنا لا أحب رؤيتك تهزين ردفيك. وضحك هو أيضاً، تخيلها كيف كانت ترقص في ذاك الملهى، لكنه أثنى على ما فعلته، إنها بالفعل إنسانة قادرة على مواجهة التحديات، تتحمل المسؤوليات؛ وتمنى لو تعرف إليها، قبل ذاك الزمن لكان تزوجها وحال دون عملها كراقصة. وأنقذها من حياة العوز. أما اليوم، فهي ليست بحاجة لأحد، لقد تمكنت من إنقاذ حياة طفليها، مثيلاتها، ما زلن حتى اليوم يسكنّ في قرية الأكواخ على ضفة نهر هدسون، ومنهن من احترفن البغاء، اقترب منها، وهو يقدم لها كأس النبيذ المعتق.

ـ ولكن، لماذا لا تفتتحين متجراً خاصاً بكِ؟

ـ مثل آكسيل؟... لا... لن يكون عملاً لائقاً.

ـ إذن...

ـ إذن ماذا؟

ـ إفعلي شيئاً مغايراً... ألبسة للأطفال مثلاً، أحذية، حقائب؟... ومن ثم معظم زبائن السيدة آكسيل، يذهبن إلى باريس، لشراء بعض الفساتين والمعاطف... يمكنك بيع المعاطف التي تنتجها مصانعي.

ـ فكرة رائعة... ولكن... من أين لي رأس المال؟

لم تكن زويا تعرف شيئاً عن ثروة سيمون، كل ما تعرفه أنه معيل لها ولطفليها ووالديه وأعمامه، ولا شك إن هذا يستوجب مبالغ طائلة.

ـ إرتدي ثيابك...

تعجبت زويا لما يطلب. فهو من طلب أن تُعرّي ساقيها حين يكونان وحيدين فما به اليوم؟

ـ لنتكلم جدياً... فإما التحدث في المشاريع، وإما الإستغراق في التمتع بالنظر إليكِ...

ـ سيمون... ماذا عن الرأسمال؟

ـ لا عليكِ... أنتِ حتى الآن، لا تعرفين شيئاً عن ثروتي، إنما ثقي أني أملك ما يكفي ويزيد.

وراح سيمون يحدثها عن مشاريعه التي يديرها، وعن مؤسساته وأمواله، وهي تنظر إليه مندهشة لما تسمع، حتى أنها تكاد لا تصدق ما يقول.

ـ أجديّ أنتَ فيما تقول؟ ولكن ماذا عن والديك؟

ضحك ملء شدقيه. «أمي لن تغادر هذه الشقة التي تقيم فيها مع والدي إلا لسبب وحيد لا ثاني له.. هو الموت. على عكس أبي تماما».

ـ لم أكن أتوقع أنك رجل ناجح بهذا القدر. أعرف أنك ناجح في أعمالك.

ـ لا تكترثي للمال يا عزيزتي. فأنا أمتلك معامل النسيج في جورجيا، حيث اليد العاملة الرخيصة، إضافة إلى معامل الخياطة وشركات متنوعة. إذن فلا تخافي، ولن يتأثر أحد. على العكس قد يكون للعمل الذي ستقومين به، تأثير إيجابي جداً على زيادة الأرباح...

ـ هل يعني هذا، أنكِ ستمدني بالمال اللازم؟

ـ نعم... وبلا أي شك، أو تردد... أعرف أنكِ مطلعة كلياً على كل شيء، فأنتِ لستِ بحاجة لمن يعطيكِ النصائح، أتذكرين يوم التقينا في باريس، كنتِ أنتِ من يختار المجموعات النسائية، أما السيدة آكسيل فكانت توافق على ما ترينه مناسباً دون تردد.

ـ وكيف سأبدأ؟

ـ في البدء، عليكِ البحث عن الموقع المناسب، ومن ثم نذهب إلى باريس لشراء ما يجب شراؤه.

توقف عن الكلام وراح يحك جبينه. «إسمعي، نحن الآن في بداية العام، وإذا سار كل شيء كما تشتهين فيمكنكِ دعوة صديقاتكِ وزبائنكِ المرتقبين لحضور حفل الإفتتاح، قبل موسم الخريف، أي في الأسبوع الأول من أيلول».

ـ تسعة أشهر فترة كافية جداً.

ـ نعم... سأطلب من أحد أصدقائي إيجاد المكان المناسب.

ـ أحقاً ما تقول؟

ـ نعم وبجدية أيضاً... دعينا نبدأ... وبعد عام نرى نتيجة ما قمنا به. إن نجحنا نستمر، وإن فشلنا، فلا بأس... نتوقف...

لم يعد لزويا حديث، سوى الحديث عن مشروعها الجديد، وليلة الميلاد، اصطحبها سيمون لحضور القداس في الكنيسة الروسية، حيث التقت الأمير أبولولنسكي، فقدمت له زوجها الثاني سيمون.

ـ كيف لم تتزوجيه؟ تساءل سيمون، وهو يقود سيارته الكاديلاك في طريق العودة إلى المنزل.

ـ لم يكن مهتماً بي... إنه يفضل الأميركيات على الروسيات.

ـ إنه إنسان مغفل...

في اليوم التالي، كانت زويا تتناول طعام الغداء مع السيدة آكسيل، وأخبرتها عما تنوي فعله لكنها تخشى من تأثيره على سير العمل في متجرها. لكن السيدة آكسيل، شجعتها.

«إن المنافسة عمل مشروع... ها هو شانيل ينافس كريستيان ديور، وبالرغم من هذا فهما صديقان... فإياكِ أن تتراجعي».

وبعد أيام، ذهبت برفقة سيمون لإلقاء نظرة على بناية لا تبعد كثيراً عن محلات السيدة آكسيل. كان هناك طابقان معروضين للإيجار.

ـ لا أعتقد أننا بحاجة لأكثر من طابق قالت زويا.

ـ على العكس، أرى أننا بحاجة للإثنين معاً. الطابق الأول للألبسة النسائية، والثاني للألبسة الرجالية.

ـ هذا يعني أننا سندفع بدل إيجار مرتفعاً.

نظر سيمون إلى المالك متسائلاً عما إذا كان يرغب ببيع البناية المؤلفة من خمسة طوابق. لأنه في هذا الحال، وبناءً لحسابات أجراها في ذهنه، يكون أوفر.

ـ زويا، إشتري المبنى بكامله.

ـ ماذا؟ وماذا أفعل بالطوابق الثلاثة الأخرى؟

ـ نؤجرها.. وإن نجحنا في أعمالنا، نتمدد سنة بعد سنة، وهكذا نشغل الطوابق الخمسة.

ـ أمجنون أنت؟

كانت زويا، تعيش لحظات هي أشبه بالأحلام؛ ولا تدري إن كانت أحلام يقظة أم أحلام نوم. إن ما تسمعه لا يصدق، لكنه حقيقة واقعة. جاءت لتعاين طابقاً للإيجار، فإذا بها تصبح صاحبة مبنى من خمسة طوابق... كان كلايتون كريماً معها؛ إنما ليس بهذا القدر، فهو لم يشجعها يوماً، على الإنطلاق بالحياة مستقلة عنه، كما يفعل الآن، سيمون.

أيام، وبدأت ورشة العمل في الترميم ووضع التصاميم، فخصص لها، سيمون مكتباً خاصاً في مؤسسته، مع سكرتيرة خاصة، لتساعدها على إجراء الإتصالات وتأمين المقابلات. بعد الأزمة التي أدت إلى وفاة كلايتون، لم تذكر الصحف الإقتصادية أي خبر عمّا حل بها، أما اليوم،

فها هي النيويورك تايمز، تخصص عاموداً عن مشروع الكونتيسة أوسيبوف وزوجها سيمون هيرتش الذي يعتبر من أكبر مشاريع الإستثمار الإقتصادي.

خلال شهر آذار، سافرت زويا برفقة زوجها إلى باريس، لسببين، الأول من أجل شراء ما تحتاجه محلات سيمون، والثاني، شراء ما تحتاجه المحلات الجديدة التي، ستبدأ، قريباً، وإن بعد بضعة شهور، تستقبل زبائنها، لم تكن زويا بحاجة لأخذ موافقة السيدة آكسيل قبل تأكيد أية طلبية، وكذلك لم تكن مقيدة بميزانية محددة، فسيمون لم يحدد مبلغاً معيناً، بل أبقى ذلك رهن إشارتها.

بعد شهر، عادت زويا إلى نيويورك، لتصدم بخبر طرد ساشا من المدرسة لسوء سلوكها، استغلت غياب والدتها، فراحت تضع أحمر الشفاه على شفتيها، والأبشع أنها ضبطت وهي تقبل أحد الأساتذة عنوة. ماذا ستقول لسيمون الذي رفض إلا أن تكون في أرقى مدارس نيويورك، وتكفل أن يدفع كلَّ النفقات؟

ـ أسعيدة أنتِ؟... لماذا فعلتِ هكذا يا ابنتي، أما فكرتِ بسيمون الذي لا يبخل عليكِ بشيء؟

تركت زويا غرفة ساشا، لتعود إلى غرفة نومها، وتجد سيمون بانتظارها ورأسه على يديه «أنا جد آسفة يا سيمون... إنه أمر فظيع...».

ـ وماذا قالت؟ تساءل سيمون، متذكراً كيف حاولت ساشا، أن تجعله ينظر إليها كامرأة مكتملة الأنوثة، وبأسلوب منحط قذر، دون اعتبار أنه بمثابة والدِها، ودون اهتمام بأنها ما تزال في الثانية عشر من العمر. لكنه لم يقل شيئاً لزويا.

ـ هل هي محبطة؟

ـ وإن كانت كذلك...

ـ والآن. ماذا علينا أن نفعل؟

ـ أعتقد أنه عليَّ البحث عن مدرسة أخرى، ولكننا في منتصف نيسان، ولا أعتقد أن مدرسة قد تقبلها دون شهادة حسن سلوك، أو تأمين أستاذ خصوصي.

ـ فكرة جيدة... إنما أفضل أن تبحثي عن إمرأة للقيام بهذه المهمة.

لكن زويا، لم تتمكن من العثور على مثل هذه الأستاذة. بل وجدت أستاذاً في مقتبل العمر، تعهد أن يحسن سلوكها، لكنه، لم ينهِ الشهر إلا وولى هارباً، إذ صارت ساشا تستقبله بثياب نوم والدتها، وحتى أنها لم تخجل فطلبت منه أن يقبلها.

حاول نيقولا أن يتدخل، لكن اللطم والضرب كان من نصيبه «إنك أزعج إنسان على وجه الكرة الأرضية يا ساشا».

في هذه الأثناء، كان العمل، في المحلات، جارٍ على قدم وساق.

ـ حسناً سيدة هيرتش، كيف ترين؟ أكل شيء كما تتمنين؟ تساءل سيمون، وهو يقف في قسم الأحذية النسائية.

نظرت إليه والدموع في عينيها، حائرة ماذا تقول «إنه أشبه بقصر يا سيمون، هذا ليس متجراً بل قصرا».

تقدم منها وقبلها «إنه أقل مما تستحقين يا حبيبتي».

عند المساء، كانا معاً يحتسيان الشمبانيا، ويعدان لائحة بأسماء

المدعوين لحفل الإفتتاح بعد أسبوع، وفي الوقت ذاته بما سيسميان المتجر.

ـ وجدته. قالت زويا.

ـ وما الذي وجدتهِ حبيبتي؟

ـ الإسم... هيرتش وشركاه.

ضحك سيمون، مد يده شدها إليه وقبلها وهو ما يزال غارقاً في الضحك.

ـ ما الذي يضحكك؟

ـ براءتكِ يا حبيبتي.. أما رأيت الأضواء فوق المدخل الرئيسي للمتجر؟

ـ لا...

ـ إن إسمه مكتوب بالأنوار والأضواء.

ـ ولماذا؟

ـ لأني أسميته «كونتيسه زويا». هذا ما تريده الناس، إسم أرستقراطي ليستقطب أرقى نساء نيويورك.

كثيرة هي الصحف التي كتبت عن متجر «كونتيسة زويا» وعن حفل الإفتتاح الذي حضره كبار رجال الأعمال وكبار الصحفيين. وعدد لا بأس به من ممثلات وممثلي هوليود. ما من أحد نظر إلى الكونتيسة إلا ورأى الدمع في عينيها، إنما الذي أبكاها فعلاً كانت تلك الباقة الضخمة جداً من الأوركيديا البيضاء التي أرسلتها السيدة آكسيل «حظاً سعيداً يا صديقتي».

بعد شهرين، ليس أكثر، وجدت زويا نفسها مضطرة للاتصال هاتفياً بشانيل وكريستيان ديور والطلب منهما إرسال المزيد من الألبسة النسائية والأحذية والحقائب. حتى هنري فورد جاء شخصياً لشراء معطف من الفرو ليقدمه إلى زوجته هدية عيد ميلادها.

لم تكن زويا تدري كيف تشكر زوجها... أعطاها الأمان، رعى طفليها، وها هو يقدم لها المستقبل، ها هو يجعلها حديث المجتمع المخملي في نيويورك.

سكبت كأسين من الشمبانيا، أعطته واحداً ورفعت الآخر «بصحتك يا أغلى البشر».

ـ وبصحة الكونتيسة زويا.

الفصل الثاني والأربعون

كما توقع سيمون، سارت الأمور في متجر «الكونتيسة زويا». ما إن انقضى عام، حتى افتتحت زويا جناحاً خاصاً بالألبسة الولادية المستوردة من أوروبا في الطابق الثالث، الأمر الذي أدخل الفرحة إلى قلب ساشا، التي لم تترك مناسبة إلا وزارت هذا الجناح، وأخذت منه ما حلا لها، مما أثار قلق والدتها، فمنعتها من الاستمرار بذلك، على عكس نيقولا، الذي فرح بتوسع أعمال والدته، وأبدى رغبة في ترك المدرسة والانخراط في مجال العمل معها، لأنه كان يعتبر، رغم تفوقه على زملائه الطلبة، أن استمراره بمتابعة الدراسة، إضاعة للوقت وهدراً لطاقاته، كان يدرك، أنه لن يجد أذناً صاغية عند أمه التي كانت تخطط لدخوله إلى جامعة برينستون.

كانت ساشا، ابنة الثلاثة عشر ربيعاً، تتذمر من اعتبارها، ما تزال طفلة، فرفضت دعوة سيمون لحضور فيلم والت ديزي «سنو وايت والأقزام الأربعة».

ـ أنا لم أعد طفلة.

ـ إذن تصرفي على هذا الأساس. قال نيقولا... «وكُفّي عن محاولات تقليد والدتكِ، وسرقة ثياب نومها لارتدائها خلسة».

رغم قلقه مما يجري في ألمانيا من اضطهاد لليهود، كان سيمون يسعى جاهداً، لإسعادهم. أواخر عام 1938، تأكّد له أن حرباً ثانية لا بد واقعة. إنما ما من أحد في نيويورك، أو في الولايات المتحدة، كان مهتمّاًبالموضوع لاعتقادهم أنهم بمنأى عنها، لذا، تابع الأميركيون، حياتهم العادية فواظبوا على إقامة الحفلات الصاخبة، والسهر في صالات الرقص، وكذلك، لم تتأثر تجارة زويا، بتوقعات نشوب الحرب، بل على العكس، راحت تخطط، لافتتاح أجنحة أخرى في الطابقين الشاغرين، بدعم وتشجيع من سيمون.

ـ ما عليكِ إلا التحدّي والاستمرار في قطف ثمار نجاحاتك؛ وطالما أنتِ مستمرة في عرض الأفضل، فإنكِ ستستمرين مقصداً للزبائن.

واستمرت زويا، فوجدت نفسها مضطرة لتخصيص ساعات أكثر للعمل، والبقاء خلف مكتبها؛ وكل همها تأمين مستقبل نيقولا وساشا التي لم تكن سوى إنسانة طائشة، لا تقدر عواقب أي عمل تقوم به، حتى مدير المدرسة الجديدة، ضاق ذرعًابتصرفاتها، فاتصل بزويا مشتكياً من تصرفاتها، وتكرار غيابها. وبعد نقاش طويل، وافق على عدم طردها، شرط أن تحسن سلوكها، وأن تتصرف كإنسانة ناضجة، ستحتفل قريباً بعيد ميلادها الرابع عشر.

ناقشت زويا الأمر، مع سيمون، مبدية استعدادها، لترك المتجر يومياً للعودة بساشا إلى المنزل، لئلا تعود للعب الهوكي، وتدخين السجائر مع شلة من أصدقائها.

ـ لا أعتقد أن عليكِ فعل ذلك، فهي فعلاً لم تعد طفلة، بالمعنى الحرفي للكلمة، وبإمكانها تدبير أمورها الخاصة.

كان سيمون يدرك، أن سبب إزدهار محلات «الكونتيسة زويا» هو وجود زويا شخصياً، فالكثيرون من الزبائن، لا يشترون شيئاً إلا بعد استشارتها، أو بناءً لنصيحتها.

ـ ولكن ما عليّ فعله إذن يا سيمون؟

ـ عليها هي... أن تحسن التصرف.

ـ كثيراً ما أفكر، أني أنا المسؤولة، وأنها تدفع ثمن أخطائي الماضية... أنا قلقة جداً عليها.

ـ وأية أخطاء تتحدثين عنها؟

ـ كنت أتركهما ليلاً وأذهب للرقص، وبعدها كنت أتركهما طوال النهار.

ـ ولكن؟... لماذا كنتِ تفعلين ذلك؟ أليس من أجلهما؟ ليس بمقدورك فعل شيء، يا حبيبتي زويا، على العكس، عليها هي أن تعي مسؤولياتها. وأن تعي أنها تحصل على كل ما تريد، وأن عندها أماً تعبدها. المشكلة، أنها مدللة، أكثر من اللزوم، حتى نيقولا يدللها. ها هو نيقولا... لماذا لا يتصرف مثلها؟ هل مرّ يوم يا عزيزتي إلا وكان لها مطلب؟ إن لم تطلب رداءً جديداً، تطلب حذاء، ناهيك عن رغبتها الدائمة في التنزه.

بعد عيد الميلاد، أحست زويا بتعب شديد وبدت كأنها مريضة، فاقترح سيمون الذهاب معاً برحلة إلى صن فاليه للتزلج، فثارت ساشا، إلا أن سيمون، كان صارماًمعها، أفهمها أن عليها البقاء هنا في نيويورك؛ والذهاب إلى المدرسة يومياً.

لكن ساشا خبيرة في تنكيد حياة أمها، فاتصلت بها متذرعة أن الكلب مريض، وتبين لاحقاً أنها كاذبة. سكبت الحبر على سجادة غرفة الجلوس، عادت للعب الهوكي وتدخين السجائر فاضطر الحبيبان، لقطع رحلتهما والعودة إلى نيويورك، للبقاء إلى جانب الولدين.

طلب سيمون من زوجته مراجعة الطبيب، لأنه يبدو واضحاً أنها مريضة «حتى والدتي طلبت مني ذلك يا زويا... أنظري إلى وجهك في المرآة، فتدركي أنكِ مريضة فعلاً.. لا تقولي، إنه مجرد إرهاق جسدي».

ضحكت زويا، فالسيدة صوفيا، لم تكن تهتم لأمر صحة زويا بل لجعلها تعتنق الدين اليهودي... لكنها اليوم تبدي قلقها على صحة زوجة ابنها.

لم تكن زويا مستعدة لسماع ما سيقوله الطبيب.

ـ ماذا؟... أنا...؟

لم تصدق ما سمعت، إنها الآن في الأربعين من العمر، والحمل في هذه السن غير مستحسن، قد ينعكس سلباً على صحتها، وصحة الجنين، وعلى سير العمل بشكل خاص.

ـ نعم أنتِ حامل سيدة هيرتش. قال الطبيب، وبعد بضعة أسئلة أضاف وبحلول شهر أيلول ستصبحين أماً.

أنا....؟....أنا...؟

أصغت باندهاش لما قاله الطبيب، واستمر اندهاشها طوال اليوم، حتى وهي تتناول العشاء مع الأولاد وسيمون، الذي كان متلهفاً ليعرف

ماذا قال الطبيب، لكنه لم يتجرأ على فعل هذا قبل خروج ساشا ونيقولا، والبقاء وحيدين.

ـ ماذا قال الطبيب؟

تساءل سيمون بنبرة تبين مدى حبه لها، فهو غير قادر على العيش لحظة واحدة بدونها، أو إن إصابها مكروه.

ـ سيمون... أنا...

كاد سيمون يفقد صوابه «أنتِ... ما بك....؟ ما بك؟».

ـ أنا حامل.

ـ آهٍ عزيزتي كم أنا سعيد.

لم تشأ زويا إخباره أنها تفكر بإسقاط الطفل، إدراكاً منها لخطورة عملية الإجهاض، لكنها في الوقت ذاته، فهي لم تعد بعمر مناسب للإنجاب، حسب اعتقادها على الأقل.

ـ كيف تبدو سعيداً يا سيمون... أنا في الأربعين من العمر وليس من الجائز أن أرزق طفلاً وأنا في هذه السن.

ـ أهذا ما قاله الطبيب.

ـ لا.. بل قال «تهانينا»... ولكن؟... ماذا عن المتاجر...؟ وماذا عن الطفلين؟...

ـ لا شك سيكونان سعيدين.

جلس على كرسيه وهو ينظر إليها، وكأنه يمتلك الكون بأسره.

ـ مع مطلع العام الدراسي القادم، نيقولا سيكون في برينستون، أما

ساشا فلن تعود الطفلة الصغرى في هذه العائلة، وعليها أن تتكيف مع الواقع الجديد، أما بالنسبة للمحلات، فيمكنك الذهاب لساعات وتعودين للإستراحة في منزلك.

ـ وهل تعتقد أن بضعة ساعات هي كافية؟ أمجنون أنت؟

ـ لا... لست مجنوناً... لكني مجنون بحب زوجتي... التي ستجعلني أباً.

ـ أيعقل أن يحدث هذا وأنا في الأربعين؟

ـ لماذا؟... فكّري قليلاً، وبهدوء يا حبيبتي... لستِ أول سيدة تنجب في هذا العمر. يمكنكِ تمضية أيامكِ في مكتبك. من الآن وحتى لحظة الوضع، بعدها تمضين فترة نقاهة، ومن ثم تعودين لمزاولة أعمالكِ المعتادة... إنما الأهم، الأهم، هو أنه سيكون لدينا طفل صغير يدخل السعادة إلى هذا المنزل، لكل من فيه، أوليس هذا رائعاً يا حبيبتي؟

احتارت زويا... إنه يريد أن يتكلل حبهما بالإنجاب، ويرعى، في الوقت ذاته، طفليها وكأنهما طفلاه، فماذا عساها أن تقول له؟

ـ وغداً حين يكبر، لا شك سيهزأ مني، إذ من المفترض أن أكون جدته لا والدته.

ـ لماذا؟ فأنتِ ما تزالين جميلة، وتبدين وكأنكِ في الثلاثين من العمر... وأنا أحبك بجنون، وسأبقى أحبك بجنون.

ـ ولكن ماذا عن ساشا... كيف سنخبرها؟

ـ نخبرها الحقيقة، نقول إننا ننتظر مولوداً...

ـ لا شك ستثور.

وفعلاً، لم يكن أي منهما قادراً على تصور مدى ثورة ساشا التي ستشبه الإعصار.

ـ ماذا؟... ماذا سأقول لأصدقائي؟ سيهزؤن مني... لا ريب سيفعلون ذلك.

ـ حبيبتي، لن يتغير شيء أبداً... ستبقين طفلتي المدلله.

ـ كل هذا لا يهمني... ولن أبقى معكم، إذا أصريتِ على الإنجاب.

في اليوم التالي، لم تعد ساشا من المدرسة. هددت ونفذت تهديدها. وبعد يومين، اكتشف سيمون أنها تقيم في منزل إحدى صديقاتها، فصمم أن يتعامل معها بقسوة، لأول مرة، يجد نفسه مضطراً لاتخاذ مثل هذا القرار.

ـ إجمعي أشياءكِ التي جلبتها معكِ، الآن... الآن، وستأتين معنا إلى المنزل، شئتِ ذلك أم أبيتِ... ساشا، عليكِ أن تحسني التصرف، وإلا سأضطر لاحتجازكِ ضمن زنزانة وليس داخل غرفة.

كانت ساشا، تنظر إليه مستغربة. لم يسبق له أن خاطبها بهذا الأسلوب الصارم والجازم، فأدركت، أن لا خيارات أمامها، سوى إطاعته والعودة إلى المنزل.

ـ إسمعيني ساشا أندروز. قال سيمون فور العودة إلى المنزل، ممنوع عليكِ إزعاج والدتكِ وأخيكِ، بأي شكل من الأشكال، أعرف أنكِ قادرة على ابتداع المزعجات. إني أحذركِ وإلا، سأوسعك ضرباً، بحيث لن يسلم سنتمتر واحد من ضرباتي.

كانت زويا تسمع وترى، وفي الوقت ذاته تبتسم. فهي لم يسبق لها

أن رأته غاضباً، ولم تسمع منه هكذا كلاماً، وهي متأكدة، بقرارة نفسها، أنه لن يسمح لنفسه بضربها.

ـ إذهبي الآن إلى غرفتكِ. قالت زويا.

دون أية حركة مزعجة، أو أن تتفوه بأية كلمة، خرجت ساشا من غرفة الجلوس متجهة نحو غرفتها، وتبعها نيقولا «أعتقد أنه كان عليه أن يفعل هذا من قبل، فعلاً إنكِ أصبحتِ جد مزعجة، ولا تقدرين العواقب». لكنه استغل وجوده مع شقيقته، لتهدئة أعصابها، وأغداق الحب عليها والحنان، ثم عاد ليمد يده لأمه، مبدياً استعداده لمساعدتها في تربية الطفل.

ـ ألن تكون مزعوجاً، أن ألد طفلاً وأنا في هذا السن؟

ـ ما تزالين صبية يا أمي...

ثم تقدم من سيمون، قبّل وجنته «مبروك يا أبي» فانهمرت الدموع من عيني سيمون. إنها المرة الأولى التي يسمع فيها أحداً يناديه «أبي». أخذ نيقولا بين ذراعيه، ضمه إلى صدره، ثم قاده إلى غرفة ساشا، التي ما إن رأت سيمون، حتى انتابها الخوف، لكنه مد يده الأخرى وضمها إلى صدره أيضاً، مانحاً إياها الحب ذاته الذي يمنحه لنيقولا... «ساشا حبيبتي.. ابنتي ساشا.. لا أحد يعرف كم أحبكما... تأكدي يا صغيرتي، لن يتغير شيء أبداً».

الفصل الثالث والأربعون

خلال حزيران عام 1939، قامت شركة بان أميركان بأول رحلة جوية إلى أوروبا، أحب نيقولا أن يزور بريطانيا جواً، لكن سيمون، وكذلك زويا، كان ما يزال يخشى السفر بالطائرات لمسافات بعيدة، فأرسله في رحلة إلى كاليفورنيا، وساشا ذهبت لتمضية أسبوع في مخيم للفتيات، بناءً لرغبتها وليس بناءً لرغبة والدتها أو سيمون.

في هذا الوقت، كان سيمون، ما يزال يتابع أخبار موجة العداء للسامية، في ألمانيا وبعض الدول الأوروبية الدائرة في فلكها. الصدمة الكبرى كانت في إعلان توصل روسيا وألمانيا إلى عقد إتفاقية عدم اعتداء. لم تكن زويا تعير مثل هذه الأخبار اهتماماً، لأنها مشغولة جداً في استمرارية أعمالها، وتحضير جهاز الطفل المنتظر أن يولد قريباً. فيما نيقولا مسرور جداً بالسيارة التي قدمها له سيمون. فكان يتباهى أمام رفاقه، ورفيقاته خاصة.

ـ شكراً يا سيمون... شكراً على كل ما تقدمه لطفلي.

كانت زويا تقدر سيمون جداً وتحترمه، وتقدر له ما يفعله من أجل نيقولا وساشا.

حاول سيمون أطلاعها على آخر الأخبار السياسية، لكنه وجدها غير مرتاحة.

ـ هل أنتِ بخير يا حلوتي؟

ـ نعم... لكني متعبة جسدياً، ولهذا لست قادرة على مرافقتك إلى السينما. يمكنك الذهاب وحدك.

ـ لا... لن أذهب وحدي. سأبقى معك... سأبقى إلى جانبك.

باكراً أوت زويا إلى فراشها، فيما بقي سيمون، جالساً على الكرسي في غرفة النوم، يحتسي الشمبانيا، وينظر إليها حائراً ماذا يفعل ليجعلها تشعر بالراحة، سمع أنيناً خفيفاً، قام من مكانه وجاء ليقف إلى قربها، فيما هي استوت في فراشها ويداها على بطنها.

زويا؟... ما بكِ؟ لا تتحركي...سأستدعي الطبيب.

ـ لا تخف... إنه مجرد سوء هضم.

لكن سوء الهضم، لا يتسبب بهذا الألم الذي تأكد لها أنه أشبه بآلام المخاض، أسرع سيمون بنقلها إلى المستشفى والخوف عنده يتزايد؛ لم يعد سيمون مكترثاً، لجنس المولود، حتى ولا بالمولود، بقدر اكتراثه بسلامتها وعودتها إلى البيت لتزرع الفرحة فيه.

أدخلت زويا إلى غرفة العمليات، وسيمون يزرع أرض قاعة الإنتظار ذهاباً وإياباً. نسي السياسة، وأخبارها، ونسي موجة العداء للساميّة، وحصر تفكيره بالتي أحبها منذ لقائهما الأول، والتي يقدرها ويحترمها ويعتبرها إنسانة مميزة.

فيما هو شارد الذهن، أحسّ بيد تلامس كتفه، فاستدار ملهوفاً، فإذ به وجهاً لوجه مع الممرضة.

ـ أكل شيء على ما يرام؟

ـ ابتسمت الممرضة وتابعت «أصبحت أباً لطفل جميل سيد هيرتش».

حدق بالممرضة قليلاً، وغرق بالبكاء فرحاً. لقد أصبح أباً وزوجته بخير. «لقد أصبحتُ أباً لثلاثة أولاد». لم ينظر سيمون يوماً إلى طفلي زويا، إلا وكأنهما ولداه.

بعد ساعة سمح له بالدخول إلى غرفة زوجته المستلقية على سريرها، والطفل إلى جانبها... كانت زويا ما تزال متعبة، وتعاني من آثار آلام الوضع.

ـ إنه يشبهك يا سيمون.

انحنى وقبّل جبينها، والدموع تبلل خديه. إنها دموع الفرح. لم يعرف يوماً، سعادة كالتي يتعرف إليها الآن.

ـ ماذا سنسميه؟

ـ ما رأيك بماتيو؟ كانت زويا ترغب بإرضاء أمه فاختارت إسماً يهودياً.

ـ ماتيو هيرتش.

ـ ماتيو سيمون هيرتش. تمتمت زويا، وأغمضت عينيها وغرقت في النوم.

الفصل الرابع والأربعون

كان للمولود الجديد أثر كبير في حياة العائلة. حتى ساشا، سُرّت به، وشعرت بسعادة كبرى وهي تحمله على يديها، وفي الوقت ذاته، كانت أخبار ملاحقة اليهود في ألمانيا ودول أوروبا الشرقية تقلق بال سيمون، فأنشأ هيئة إغاثة، لمساعدتهم على الهرب إلى دول أوروبا الغربية أو أميركا.

مع بداية شهر كانون الأول، بدأت زويا التفكير بتوسيع نشاطها التجاري، فأميركا ما تزال بعيدة جداً عن ساحات القتال الدائرة في أوروبا وشمالي إفريقيا والشرق الأوسط. حتى أيلول1941، كان الرئيس الأميركي روزفلت، مصرّعلى عدم إشراك بلاده في هذه الحرب، لكن سيمون، كان مدركاً، أنه لا بد من يوم سيأتي، وتجد أميركا نفسها، تشارك فيها، حتى وهو يشارك زوجته الفرحة في افتتاح الجناح الجديد في الطابق الرابع من المبنى الذي اشتراه لها، كان متخوفاً من ذلك، يومها، كان ماتيو تجاوز السنتين من العمر، وساشا، تجاوزت الستة عشر. إنها فتاة جميلة، طويلة القامة، نجلاوية العينين، مبتسمة الفم، شقراء الشعر، أصبحت قبلة أنظار الشباب، لكنها، ما تزال مصممة على إكمال دراستها، ساشا اليوم، هي غير ساشا قبل سنتين.

ليل السابع من كانون الأول، كان سيمون وزويا، يناقشان معاً، سير

الأعمال التجارية في مؤسسة الكونتيسة زويا، وماتيو جالس على ركبتيه؛ فإذا به، يسمع عبر الراديو، خبراً هز كيانه ووجوده «بسلاح الجو الياباني شنّ غارة على مرفأ بيرل هاربر». وقف الإثنان مذهولين مندهشين، حتى أن ماتيو، الذي أنزله والده عن ركبتيه، راح يشد طرف تنورة أمه ليلفت انتباهها إليه. لكنها كانت تفكر بنيقولا ابن العشرين ربيعاً، إنها لا ترغب برؤيته يرتدي البذة العسكرية، حتى لا يكون مصيره كمصير خاله.

ـ وما الذي سيحدث الآن؟

ولماذا التساؤل؟ بدا واضحاً، توقعات سيمون، عن أميركا والحرب، لن تبقى توقعات، بل ستبصبح حقيقة وواقعاً. وإن كانت زويا، لا تريد لابنها مصيراً كمصير خاله، فهي في الوقت ذاته، ترفض رفضاً باتاً أن يتجند سيمون للدفاع عن أميركا التي احتضنت عائلته بعد هروبها من روسيا. أميركا التي أعطته الكثير، وإن لم يكن من أجل أميركا، فمن أجل أبناء دينه الذين يلاحقون في شوارع وارسو ودول أوروبا الشرقية، ويذبحون، لا لسبب إلا لأنهم يهود.

ـ أرجوك سيمون، فكر بعائلتك.. فكر بهذا الطفل الصغير، كلنا... كلنا هنا بحاجة إليك يا سيمون...

سبق لزويا وتعرفت على مأساة الحرب، وتجرعت مرارة كأسها، ما تزال حتى اليوم، تتذكر مشهد احتراق قصر فونتانكا، وأمها تركض من نافذة إلى أخرى، والنار تأكل جسدها.

ـ سيمون... أنت لا تعرف مدى حبي لك...

ـ زويا... أتطلبين مني البقاء إلى جانبكِ والوطن كله يحترق... تأكّدي، سأعود إليكم سالماً...

ـ دعك من كل هذا الكلام وفكر بماتيو.

ـ إني أفكر فيه، ومن أجله سأشارك في الحرب، وإلا، فلن يعرف ابني معنى الحرية، إن انتصر هذا اللعين، فهذا يعني الدمار للإنسانية والقضاء على كل ما بناه الإنسان، وما حقق من إنجازات.

حاولت زويا إقناعه، بشتى السبل والوسائل، حتى أنها استعملت أنوثتها الصارخة، إنما عبثاً حاولت.

بعد ثلاثة أشهر، أمضاها يتدرب في موقع بينينغ Bening العسكري في جورجيا على فنون القتال، عاد سيمون إلى المنزل بإجازة لا تتعدى الأسبوع، قبل التحاقه بإحدى المعسكرات في سان فرنسيسكو. كانت فرحة زويا، بعودته، لا توصف. ورغبت في تمضية هذه الإجازة معه، في منتجع السيدة ويتمان، حيث مارسا الحب لأول مرة. لكنه رفض ذلك، مفضلاً البقاء في المنزل إلى جانب الأولاد، خاصة بعد عودة نيقولا من برنستون. كان سيمون مولعاً بنيقولا، وكان هذا الولع متبادلاً، حتى نيقولا كان يناديه أبي.

ـ إعتنِ بأمك وأخوتك يا نيقولا. قال سيمون وهو يشد على يده مودعاً في محطة القطار. بكى نيقولا، كذلك زويا، وحتى ساشا بكت بصدق. أما ماتيو، فشاطرهم البكاء، وهو لا يدري أن أباه، ذاهب إلى حيث، قد يكون القدر بانتظاره.

ـ سأفعل ذلك... ولكني أفكر بالإنخراط في الجيش أيضاً.

ـ ليس الآن... ما عليك الآن، سوى الإهتمام بدراستك.

لكن نيقولا كان هو، أيضاً، مصمماً على الإلتحاق بسلاح الجو، وهذا ما أفشى به لأمه، ليلة عيد ميلاده السابع عشر. تساءلت زويا، هل عادت المآسي لملاحقتي؟

ـ ما هذا الذي أسمعه؟... أما يكفي أن والدك، هو الآن على خطوط النار.

ـ أمي، هذا واجبي نحو وطني، أما تعلمين هذا؟

ـ لا... لم أعد أفهم شيئاً، الخوف يسيطر عليّ، ويعطل قدرتي على التفكير والوعي. يريدك سيمون أن تكمل دراستك... ألم يطلب هو نفسه، هذا منك؟

ـ ولكن، بإمكاني متابعة الدراسة بعد انتهاء الحرب.

كان وما يزال، يعتقد أن وجوده على مقاعد الدراسة هو إضاعة للوقت، إنه يرغب أن يكون كسيمون الذي يحارب اليوم على جبهة المحيط الهادي، والذي يراسلهم من حين لآخر. يخبرهم بما هو مسموح أن يقوله ليس أكثر، المهم أن رسائله، كانت تعيد الفرحة إلى قلوبهم. عبثاً حاولت زويا إقناع ابنها، الذي أرسل إلى بريطانيا، ليتدرب على قيادة الطائرات الحربية.

وحيدة، كانت زويا في شقتها، تفكر بما آلت إليه حالها. منذ زمن بعيد، فقدت أباها وأخاها وأمها، خسرت الوطن بكامله ثم عادت وخسرت زوجها الأول. وها هي الآن. تخشى أن يكون مصير زوجها أو ابنها، كمصير أولئك الذين، يصعب عليها نسيانهم؛ كانت مستغرقة بالتفكير إلى درجة أنها لم تسمع القرع المتواصل على الباب، وحين سمعت، ترددت كثيراً قبل فتحه. إنها

تصلي لله أن يعود الإثنان، قبل وقوع كارثة، غير قادرة على تحملها.

ـ نعم..

قالت وهي تنظر إلى الشاب الواقف أمامها، مرتدياً البذة العسكرية الرسمية، والذي لو كان مخيّراً، لما أتى إليها. أخذ ينظر إليها، وهو يفكر بالعودة إلى حيث أتى.

ـ برقية لكِ يا سيدتي... أنا آسف، جد آسف.

وما إن أمسكت زويا البرقية، حتى استدار وولى هارباً، إنه لا يريد رؤية الدموع في عينيها، ويلعن الساعة التي كلف بها القيام بهذه المهمة.

فضّت زويا المغلف، «بكل أسف نبلغكِ وفاة زوجكِ سيمون هيرتش ليلة أمس» وتوقفت عن القراءة. كل الباقي هو مجرد كلمات تافهة لا معنى لها. هوت على ركبتها، وراحت تفكر بابنها، وبالجندي الذي سلّمها البرقية.. هل سيعود ثانية مع برقة ثانية؟

الفصل الخامس والأربعون

حين عادت ساشا، وجدت أمها غارقة في البكاء والنحيب. فأدركت أن أمراً جللاً قد وقع؛ وكان للخبر وقع الصاعقة. أول شيء فعلته هو الإتصال بالسيدة آكسيل، التي سرعان ما وصلت، وراحت تهدىء زويا، وتشجعها على التفكير الواقعي، خاصة بالإعداد لمراسم الدفن. وكيف يكون هذا؟ إنها عاجزة، حتى عن الكلام. كل ما تمكنت من فعله، هو الذهاب برفقة ساشا إلى منزل والديّ سيمون. لم تقل لهما أية كلمة...

بعد الإنتهاء من مراسم الدفن، عادت آكسيل مع زويا إلى المنزل، لتقيم معها ليل نهار، غير مكترثة لمحلاتها وسير العمل فيها.

- والآن يا عزيزتي، كل شيء يولد صغيراً ثم يكبر، إلا الحزن، يولد كبيراً ومن ثَمَّ يصغر.

على من تقرأ مزاميرك يا داود؟ زويا عاجزة عن فعل شيء، عن التفكير بأي شيء، إلا بسيمون الذي أحبته بكل جوارحها، بسيمون، الذي لم يكن زوجاً حنوناً وحسب، بل وصديقاً وفياً، لم يكن أنانياً، بل معطاء، تعامل مع ولديها، وكأنهما ولداه، ساعدها على تحقيق ذاتها.

- عليكِ مواجهة أحزانكِ... عودي إلى عملكِ...

ـ لا أستطيع ذلك... خسرت سر وجودي وجوهر حياتي، فهل تريدين مني التفكير بالتوافه؟

ـ عملكِ ليس من التوافه.... عليكِ تحمل مسؤوليتك. نحو أولادكِ، نحو نفسكِ، نحو زبائنكِ... أنتِ المسؤولة عن اتمام ما بدأه سيمون. أراد لكِ تحقيق ذاتكِ وساعدكِ على ذلك، فإكراماً لذكراه، تابعي بناء ما بدأتما ببنائه معاً.

خرجت السيدة آكسيل من غرفة الجلوس، وعادت بعد قليل وهي تحمل كأسي شمبانيا واحداً لها والآخر لزويا التي رفضت حتى مد يدها إليه، لكن آكسيل العجوز، بما تمتلك من خبرة في الحياة وحنكة، أقنعتها بذلك.

ـ لذكرى سيمون. قالت السيدة آكسيل وهي ترفع كأسها، وتحبس الدموع في عينيها. ومضت تقول «أما تحبين أن تشربي كأساً لذكراه؟ سبق لكِ وواجهتِ المصاعب، فما بالكِ الآن يا زويا هيرتش؟».

لم تبارح السيدة آكسيل شقة زويا، إلا فيما ندر، حتى تمكنت من إقناعها، بضرورة استمرار الحياة. فصارت تذهب إلى العمل، تجلس خلف مكتبها، تغلق الباب، وتبكي، ساشا، تصرفت كفتاة ناضجة، حاولت تغيير مناخ الحزن المسيطر على المنزل، واهتمت كثيراً بماتيو الصغير، الذي من خلاله، تمكنت من إعادة الرغبة في الحياة إلى تفكير والدتها، فعادت الإبتسامات ترتسم على شفتيها من حين لآخر، وخاصة حين تحتضن ماتيو الذي أدركت أن عليها الإعتناء به، وتوفير كل مستلزمات وجوده، إنه ثمرة الحب الذي جمعها بأبيه.

عبثاً حاول كاتب العدل، الإتصال بها، لإطلاعها على وصية زوجها. ولماذا؟ فهي غير قادرة على إدارة مصنعي النسيج، ومعمل خياطة المعاطف، بسبب عدم تفكيرها، إلا به.

ذات يوم، كانت تجلس خلف مكتبها تحدق بصورة سيمون والدموع تبلل خديها. حين دخلت عليها مساعدتها لتبلغها أن هناك من يريد مقابلتها ويلح على ذلك، حتى ولو انتظر ساعات. تعجبت لإلحاحه، وتساءلت عن الأسباب الداعية، فاعتقدت أنه قد يكون أحد الزبائن الذين لا يرغبون بفضح علاقاتهم المشبوهة.

ـ فليتفضل.

كانت زويا مصممة على طرد هذا الإنسان، إذا كان جاءها لما اعتقدت أنه السبب.

وقف الرجل أمامها، وقفة رجل محترم، وجهه غير مألوف لها.

ـ السيدة هيرتش؟

منذ زمن لم تسمع أحداً يناديها بالسيدة هيرتش، فالكل يناديها الكونتيسة زويا.

ـ نعم.. أنا هي.

ـ أنا بول كيللي... ومكلف بتنفيذ وصية المرحوم زوجك. لقد حاولنا الإتصال بكِ. إنما لسوء الحظ لم نفلح بذلك... إني أقدر الظرف الذي تمرين به، ولكن هناك أموراً مهمة ومستعجلة، وهذا ما دعاني للحضور شخصياً وإلحاحي على مقابلتكِ.

- أعرف ذلك... الحقيقة، لم أكن أرغب بمقابلة أحد... من الصعب جداً التفكير بمثل هذه الأمور.

ساد صمت لوقت، كان بول يحدق بها، ويدرك مدى حزنها ومعاناتها.

- ثانية أعتذر، وأبدي تقديري للظرف الذي تمرين به، ولكن عليّ معرفة متى ترغبين أن نلتقي لقراءة وصيته، على كل يمكنني الآن إطلاعكِ، على أنه أوصى بأن تكوني أنتِ المشرفة على إدارة جميع مؤسساته حتى بلوغ ابنه الحادية والعشرين من العمر. وأوصى لوالديه وأعمامه، بمبالغ كافية لجعلهم يعيشون حياة الترف على مدى العمر، ولم ينسَ ولديكِ، كان كريماً جداً معهما، إذ أوصى بمليون دولار لكل واحد منهما... شرط عدم التصرف بهذا المبلغ، قبل بلوغ الحادية والعشرين.

لم تصدق زويا ما سمعت «أعتقد أن هناك خطأ ما فيما قلت يا سيد بول... مليون دولار لكل واحد من ولديّ؟».

إنه مبلغ لم تكن تحلم به مطلقاً، إنهما ولداها، وليسا ولديه... «مسكين سيمون رعاهما في حياته وحتى بعد مماته، رفض إلا أن يستمر في رعايتهما» قالت زويا سراً.

- نعم... سيدتي، ليس هناك أي خطأ. مليون دولار لكل منهما. كما أوصى أن يشارك ابنكما ماتيو إدارة جميع المؤسسات حين يبلغ سن الرشد. إنه يمتلك يا سيدتي ستة معامل نسيج، متعاقدة كلها مع الدولة لتزويد الجيش الأميركي بالملابس اللازمة.

- صدقني أتمنى لو أنه ما يزال حياً، فهذه كلها أمور مادية لا تعني لي شيئاً. ولكن أية عقود هذه التي تتكلم عنها. لم يسبق له أن حدثني عنها.

- لم تكن قد صُدّقت رسمياً، لكنها الآن، صارت قانونية، بعد مصادقة المراجع الرسمية عليها....

الصدمة كانت، بعد أن شرح الكاتب العدل، أهمية هذه العقود.

- أيعقل هذا؟ أحقاً ما تقول؟

- نعم سيدتي، ستصبحين أنتِ وابنكِ ماتيو من أغنى أغنياء أميركا. وبالوقت ذاته هناك نسبة لا بأس بها من أرباح هذه المؤسسات لابنكِ نيقولا... شرط أن يكون واحداً من الذين يشاركون بإدارتها.

تساءلت زويا، وما نفع كل هذا بغياب سيمون... نحن بحاجة لحبه وحنانه، لابتساماته.

- وهل المدراء الحاليون قادرون على إدارة هذه المؤسسات؟

ابتسم الرجل وهو ينظر إليها، إنها فعلاً جميلة جداً، ولا أحد يصدق أنها إبنة ثلاثة وأربعين عاماً، كما تشير الوثائق التي بين يديه.

- أعتقد ذلك... وعليهم إطلاعنا على سير العمل دورياً، وكذلك أنتِ، باعتباركِ المدير العام لتلك المؤسسات. كان رحمه الله، يثق بك ثقة عمياء.

أشفق الرجل عليها وهو يرى الدموع تنهمر من عينيها، «كان يعني، وما يزال، أهم بكثير من كل هذه الأشياء». لكن هل يدرك هذا الرجل مدى تعلقها بزوجها.

- أحببته بكل جوارحي وما أزال... شكراً لك على كل شيء. تأكد أني سأجيب على كل مكالماتك، من الآن وصاعداً.

- أتمنى ذلك، وأعتذر عن إزعاجك بحضوري، لكني كنت مضطراً

إلى فعل هذا... إنه متجر رائع... على فكرة، زوجتي هي إحدى زبائنكِ.

ـ إذن، دعها تسأل عني حين تأتي لاحقاً...

ـ أتمنى إغلاق الأبواب بوجهها، إكراماً لي... لأنها جد متطلبة... وماذا عن نيقولا.

ـ إنه الآن ملحق بسلاح الجو الملكي في بريطانيا.

أبدى السيد بول، إعجابه بها كسيدة أعمال ناجحة، تدير هذه الإمبراطورية، محققة أحلام زوجها.

ـ أرجوكِ لنبقى على تواصل، إذ لربما هناك أمور يمكنني مساعدتكِ في حلها.

وهل بإمكانك إعادة سيمون؟... بالطبع لا...

ـ سأمضي بعض الأوقات في مكتب زوجي لأكون مطلعة على كل شيء.

ـ إنه الصواب بعينه... وتأكدي سأطلعك على كل شيء. ما رأيك لو نلتقي هناك؟ الأسبوع القادم... أو هل ترغبين أن أزوركِ هنا؟

ـ لا... سنتقابل هنا. أريد أن يعرف الجميع أننا معاً، أنت وأنا نشرف على الأعمال.

كما دخل، خرج بول كيللي، بعد أن انحنى وقبّل يدها احتراماً وتقديراً، وعادت هي إلى أعمالها، إنما بجدية أكثر. لقد أدركت أن سيمون يريدها أن تكون قوية شجاعة.

الفصل السادس والأربعون

منذ أواخر عام 1942، شرعت زويا تخصص يوماً كاملاً كل أسبوع، للعمل في المقر الرئيسي لمؤسسات زوجها، وبالطبع بالتعاون مع السيد بول كيللي. وشهراً بعد شهر، تحولت العلاقة بينهما إلى نوع من الصداقة، فصارت تناديه بإسمه دون لقب . وكثيراً ما كان يتبادلان النكات أثناء العمل، وحتى تلك التي تتضمن تعابير جنسية.

كان بول معجباً بها، كامرأة جميلة. وكسيدة مجتمع وربة منزل وكسيدة عاملة، قادرة على إدارة أعمالها بذكاء خارق، فلا تنسى شيئاً، ولا تهمل قضية، وتتعامل مع الموظفين بلياقة واحترام.

ـ هل لي بسؤال؟

ـ نعم، يمكنك أن تسأل ما تشاء.

ـ كيف وصلتِ إلى ما أنتِ عليه اليوم؟

ـ من طريق الخطأ... صدقني من طريق الخطأ.

وراحت تروي له حكايتها منذ خروجها من روسيا حتى هذه اللحظة التي تقف فيها أمامه دون إخفاء أي شيء. وجد بول في صراحتها المتناهية، فرصة سانحة، ليبوح بأسراره، حتى العائلية منها،

فحدثها عن زوجته التي لا تهتم به، ولا بالمنزل، كل همها أن تعاقر الخمر وأن تتسوق، حتى أنها تشتري ثياباً، لا ضرورة لها مطلقاً. هذا الأمر ليس غريباً على زويا، فهي تعرف الكثيرات اللواتي يقصدن محلاتها للتسوق، قتلاً للوقت ليس أكثر.

ـ إذن لماذا لا تنفصلان؟

ـ هنا بيت القصيد. نحن كاثوليك، ولا طلاق في مذهبنا إلا بموافقة الطرفين. وهي ترفض الطلاق، ونظراً لحالتها النفسية بت أعتبر نفسي مسؤولاًعن أي أذى يصيبها أو تتسبب به لنفسها، وبخاصة إذا هجرتها وتركت المنزل.

ـ وهل تعتبر هذه حياة؟

ـ لا.. ولكني مجبر على التكيف مع الواقع، لا أنكر أني أقمت علاقات مع بعض النساء، إنما، ليست علاقات حب. وهذا ما زاد من عذابي... حتى أنها ترفض مرافقتي لزيارة الأولاد ورؤية أحفادنا.

في هذه اللحظة كان بول يفكر بها، إنها تعمل طوال النهار، وتعود ليلاً لتهتم بأولادها وبيتها.

تطورت العلاقة، فصارا يتناولان طعام العشاء معاً.

ـ وكيف ماتيو؟

ـ رائع... يملأ حياتي فرحاً، يشعرني أني ما أزال في أواسط الثلاثينات من العمر. أما ساشا، فهي سبب عذابي، تعود متأخرة إلى البيت، وكثيراً ما تكون ثملة.

ـ وماذا عن نيقولا؟

ـ ما يزال يخدم في السلاح الجوي الملكي البريطاني.

ـ وماذا عن متاجر الكونتيسة زويا؟

ـ تتوسع عاماً بعد عام، كنتُ أنوي الذهاب، إلى أوروبا، للإطلاع على آخر تصاميم الأزياء، الرجالية، الولادية والنسائية، لكنني خائفة.

ـ وأنت بول، لماذا لا تذهب إلى كاليفورنيا لزيارة ولديك اللذين يقيمان هناك. تساءلت زويا، وهي تقدم كأس شمبانيا، بعد أن دعته إلى شقتها.

ـ من غير المنطقي أن تمضي حياتك هكذا.

ـ هل تطلبين مني الهرب من الأصدقاء إلى الوحدة القاتلة؟

ـ معك حق... الوحدة قاتلة، لكني كيفت نفسي مع هذا الواقع.

ـ أرجوكِ، لا تتعودي على الوحدة... فلا أريد لكِ ما حصل لي.

ـ لكني سعيدة جداً في حياتي.

ـ لا... لستِ سعيدة... وإذا كنتِ كذلك، فما هو سر سعادتك.

ـ إقتناعي بما أنا عليه وفيه.

فعلاً، إنها مقتنعة بقدرها؛ لذا لا ضرورة مطلقاً للتفكير بالماضي ومآسيه. فلنفكر بالحاضر والمستقبل... فعلاً إنها سعيدة، أعمالها تتوسع، وها هو بول كيللي يسليها كل يوم اثنين، حين يعملان معاً. إنه إنسان جذاب ومرح.

كانت هي تتكلم وهو يحدق بها. لقد أحبها منذ أن التقاها لأول

مرة في مكتبها. يومها، أُعجب بجمالها. أما اليوم، وبعد انقضاء فترة من العمل معاً، واكتشافه لذاتها، صار الإعجاب حباً. لكنه متزوج، فماذا بإمكانه أن يقدم لها أو يعرض عليها سوى أن يكونا حبيبين.

شدها إلى صدره، فأحنت رأسها عليه، قبلّها على شعرها ووجنتيها وشفتيها فلم تبدي أية مقاومة، على العكس استسلمت واعترفت بحبها له.

ـ لكنه الجنون بعينه يا بول.

ـ لماذا؟ ألأني متزوج؟

ـ لا.. إنما لا يحق لي فعل ذلك...

كانت تقول هذا، وهي مدركة كل الإدراك أنها بحاجة إليه. إنها بحاجة إلى الحب وليس للزواج، فقد أقسمت ألا تتزوج بعد سيمون، لكنها بحاجة إلى الحب. بحاجة إلى من يملأ الفراغ العاطفي في حياتها. ساشا تعود قبيل بزوغ الفجر ثملة سكرى، تفوح رائحة السجائر من شعرها، ومن ثيابها. ولا تسمح لها بتوجيه اللوم ولا تسمع النصح؛ فكيف سيكون تصرفها بعد بلوغها الحادية والعشرين واستلام المليون دولار التي أوصى بها سيمون؟ نيقولا في لندن... تصلي من أجل عودته إليها، وماتيو طفل صغير. فعلاً إنها بحاجة إلى الحب.

ـ إسمعني بول، لن أكون قادرة على منحك الكثير من الوقت.

ـ يكفيني بضع ساعات كل أسبوع.

ـ ولكن ماذا عن زوجتك؟ ماذا لو عرفت بعلاقتنا؟

ـ لن تعرف، إلا بعد صحوها من السكر، وهذا ما لن يحدث.

بعيد منتصف الليل بقليل، حاول بول تقبيلها مجدداً وهو يودعها عند مدخل الشقة، لكنها رفضت ذلك، فهي لن تسمح لأحد أن يمس سمعتها بالسوء، وخاصة لابنتها ساشا التي أقل ما يقال عنها أنها مصدر تعاستها.

بعد الإطمئنان على ماتيو، ألقت زويا جسدها على السرير، وراحت تستعيد طعم قبلات بول، لقد تصرف بنبل وشهامة، منحها الحب. «سأشتاق إليه، ولكن لن أتصل به».

وفجأة رن جرس الهاتف، قفز قلبها من مكانه، مدت يدها وتناولت السماعة، وما إن وضعتها قرب أذنها حتى سمعت صوت بول فارتاحت.

ـ ما بك بول؟

ـ أتسمحين لي بأن أحلم بكِ؟

ـ تحلم بي أم تتخيلني يا بول.

ـ وما الفرق؟

ـ الحلم لا إرادي، بينما التخيل هو كذلك. على كلٍ يحق لك أن تحلم وأن تتخيل.

ـ شكراً حبيبتي.

راحت الأيام تمر مسرعة، لقاءات على الغداء أو على العشاء، قبلات وممارسات حب، وتمضية عطلات نهاية الأسبوع معاً، كلما سمحت الفرص؛ والأعمال من نجاح إلى آخر. رغم الحرب، افتتحت جناحاً جديداً للبذلات الرجالية في الطابق الخامس، ورغم هذا، فلم تعرف

زويا معنى السعادة الحقيقية. فساشا يوماً بعد يوم يزداد تصرفها سوءاً، ولا تهتم إلا بإرضاء شهواتها وغرائزها، وإن عادت إلى البيت، فتعود مباشرة إلى غرفة نومها وتغلق الباب خلفها، ولا تخجل أبداً أن تقف عارية أمام والدتها أو مربية ماتيو.

تابعت زويا عملها كالمعتاد. كل اثنين في المقر العام لمؤسسات سيمون، وبرفقة بول، يعملان بجد، وعند المساء يتناولان العشاء. لقد حرصا كل الحرص، على أبقاء علاقتهما الخاصة بعيدة عن الآخرين وعيون الناس. لم تفكر يوماً بالزواج، لا به ولا بغيره، رغم كثرة طالبيه، وشهراً بعد شهر، كان الإحترام يزداد بينهما وكذلك الحب، إنه الصديق المميز، واليد اليمنى في العمل، حتى ساشا كانت تقدر له مساعدته لوالدتها في إدارة الأعمال، دون أن تحاول يوماً التفكير بما يجمع بينهما، إنها منهمكة بحياتها الخاصة ليس أكثر.

الفصل السابع والأربعون

في الثاني عشر من نيسان عام 1945، وقبل ثلاثة أسابيع من انتهاء الحرب على الجبهة الأوروبية، توفي الرئيس الأميركي روزفلت.

وعشية عيد ميلاده الرابع والعشرين، عاد نيقولا إلى أحضان والدته سالماً معافىً. وبعد يومين، من إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما، استسلمت اليابان وهكذا انتهت الحرب على جبهة المحيط الهادي. خرج الأميركيون إلى الشوارع يرقصون ويغنون تعبيراً عن فرحهم وسرورهم. أما نيقولا كان يراقب الناس في الشوارع، من على شرفة منزله يمسك يد أمه، ويبكي بصمت، متمنياً لو أن سيمون ما يزال حياً. لقد مضى زمن طويل على وفاة والده كلايتون أندروز.

كان نيقولا فرحاً بما ترك له سيمون من إرث، وفي الوقت ذاته قلقاً على أخته. مستغرباً تصرفاتها. إنها لم تعد في عمر، يسمح لأحد أن يشبعها ضرباً بهدف تهذيبها وتأديبها؛ ومن غير المعقول أن تسجن داخل غرفتها. إذ لربما تقفز من النافذة للذهاب إلى الملاهي الليلية لشرب الخمر وتدخين السجائر ومعاشرة شبّان السوء الذين لا قيمة للأخلاق عندهم ولا احترام للعادات الإجتماعية أو التقاليد والأعراف، إنهم عبثيون.

الإثنان حائران ماذا يفعلان؟ إنها الآن، تملك ثروة كبيرة، إنها تملك

مليون دولار. أواخر شهر كانون الأول تزوجت سراً من شاب متسكع مثلها، لا هم له إلا العربدة واللهو. وخلال آذار 1946, اتصلت ساشا بوالدتها لتبلغها أنها تنتظر مولوداً، قد يبصر النور أواخر آب أو أوائل أيلول. تضرعت زويا لله، أن يكون هذا المولود، سبباً في تغيير سلوكها والعيش باستقرار وهدوء. لكن الله لم يستجب لصلواتها، إذ حتى بعد ولادة مارينا أواخر شهر آب، بدا واضحاً. أن هذا الطفل لا يعني لها شيئاً، فما تزال كما كانت، سهر وعربدة وشرب خمر وتدخين سجائر، والمربية هي التي تهتم به.

حتى ماتيو لم يكن يرتاح لشقيقته ساشا، ويتجنب الحديث معها، ولهذا تساءل يوم أبلغ قسم بوليس فلوريدا والدته، خبر وفاة ساشا إثر حادث سير. تساءل «وهل كانت ثملة؟» بينما كان مولعاً أشد الولع بشقيقة نيقولا الذي لم يترك فرصة سانحة إلا واصطحبه إما للتنزه، أو حضور مسرحية للأطفال، وحتى لصيد السمك.

بعد الإنتهاء من مراسم دفن ساشا. وجدت زويا نفسها مجبرة على الإهتمام بمارينا، الطفلة البريئة، ابنة الأربعة أشهر. فكثيراً ما كانت تبوح لبول، أنها لم تعد في العمر المناسب لتربية الأطفال، لكن بول، وانطلاقاً من حبه، كان دائماً يقول لها أنها ما تزال صغيرة وجميلة.

كانت تمدد مارينا إلى جانبها على سريرها، لتنظر إلى تلك البراءة، إلى ذاك الوجه الجميل، إلى تلك العينين المغمضتين. وتتساءل «أي ذنب ارتكبته هذه الطفلة؟» ثم تتذكر ساشا ممددة في النعش فتغرق في البكاء. أيامها الحلوة كثيرة، لكنها دائماً تتذكر مآسيها إن في سان بطرسبورغ أو في باريس، وحتى هنا في نيويورك.

عام 1947، كان عام صرعة الأزياء التي أطلقها كريستيان ديور، فاصطحبت زويا، ابنها ماتيو وحفيدتها مارينا، معها إلى باريس، كان الكل يعتقد أنها والدة مارينا. وهذا ما كان يدخل الفرحة إلى صدرها، فقد جعلت الآخرين ينظرون إليها، على أنها دون الأربعين من العمر؛ أو على الأقل، هذا ما كان يردده بول دائماً على مسمعها، إنه يثيرها في كلامه، كما في الفراش، يا له من صديق وحبيب؟

في باريس حدثت ماتيو عن جدتها إيفيجينيا، عن طفولتها في سان بطرسبورغ، عن ألعابها، وعن ماري وشقيقاتها بالطبع. كانت تحدثه وكأنه في العشرين من العمر، مع أنه لم يبلغ العاشرة بعد، لكنه، كان يصغي باهتمام ويبدي سروره لما يسمع.

عام 1951، أنهى نيقولا دراسته الجامعية، ودخل معترك العمل في مؤسسات سيمون. إنه الآن في الثلاثين من العمر وماتيو في الحادية عشر. أما مارينا، فبلغت الرابعة. رغم هذا، ما تزال زويا مصممة على إدارة محلات الكونتيسة زويا، والإنتقال من نجاح إلى آخر، إنما بوتيرة عمل جديدة. صارت تعود باكراً إلى المنزل، لتكون إلى جانب ماتيو ومارينا التي بدأت تسير على خطى جدتها يوم كانت في عمرها، إذ بدأت تتعلم رقص الباليه، لقد تغيّر الزمن وتبدّل، فيما مضى كان رقص الباليه أو أي ضرب من ضروب الرقص يجلب العار للراقصة، أما اليوم، فهو يكسبها الإحترام والتقدير. لم تكن زويا تشعر أنها تجاوزت الخمسين من العمر، أولادها سبب سعادتها، وكذلك بول الذي فقد زوجته منذ بضعة أشهر.

ـ زويا... بعد اثني عشر عاماً من الحب، أيحق لي اليوم أن أطلب يدك للزواج؟

اثنتا عشر سنة من الحب والصداقة والعمل معاً، لم تفكر زويا خلالها ولو لمرة واحدة أن تتزوج أي رجل حتى ولو كان بول. إنها سعيدة في إدارة أعمالها، وتربية ماتيو وإعالة مارينا. والآن؟ في السادسة والخمسين، فهل تتزوج للمرة الثالثة؟ .

ـ قبلته على شفتيه، بول... هذا أمر صعب... لم أعد في العمر المناسب للزواج.

ـ بلى... أنتِ ما تزالين صغيرة جداً في نظري ما زلتُ أحبك.

ـ قد يكون ذلك، ولكني سأتفرغ للإهتمام بماتيو ومارينا. لن أكون زوجة بعد اليوم... سبق لي وأعطيت كلايتون كل شبابي. وأعطيت سيمون، ما تعجز أية امرأة عن إعطائه، أما الآن، فقد جاء دوري، جاء دوري لأعطي ذاتي... إني الآن أفكر بالسفر، أفكر العودة إلى روسيا، وإلى سان بطرسبورغ بالتحديد أو إلى ليفاديا حيث ذكريات الطفولة والمراهقة.

كانت تدرك كل الإدراك أن مشاريعها هذه لن تتحقق معه، فهو بلغ السادسة والستين، له مكانته، له منزله الخاص ونمط حياته وأصدقاؤه.

ـ وهل هذا يعني نهاية علاقتنا. نهاية ما بيننا من حب؟

من جديد قبلته على شفتيه «هذا متوقف عليك... إن كنت راغباً في استمرار هذه العلاقة، فأنا مستعدة، وسأبقى أحبك إلى مدى العمر».

ـ فعلاً أنتِ محقة... فنحن ، أنت وأنا، لم نعد كما كنا، ولكن، هل ستزورينني من حين لآخر؟

ضحكت زويا... «نعم سأفعل، وسأمضي عطلة نهاية الأسبوع معك، تمنحني الحب، وأنا أمنحك جسدي وحبي».

الفصل الثامن والأربعون

بداية عهد كنيدي، عرفت محلات الكونتيسة زويا، تحولاً نوعياً وجذرياً، إن على المستوى النوعي، أو على مستوى الشهرة، فصارت مقصد زوجات آل كنيدي اللواتي ارتبطن بعلاقة صداقة مع زويا، فصرن يستقبلنها على مائدة العشاء في البيت الأبيض.

عام1961، وفي حزيران تحديداً، تخرّج ماتيو من جامعة هارفرد. أراده نيقولا مساعداً له في الإدارة العامة لمؤسسات سيمون، لكنه أبدى رغبته للعمل مع والدته التي وافقت شرط ألا يقفل أبواب المؤسسة، حتى ولو شبت النار فيها، إلا بعد التهامها كلياً.

في طريق العودة جواً إلى نيويورك، لاحظت زويا، أن نيقولا، يخفي أمراً ما.

ـ حسناً نيقولا... ما الذي تخفيه عني؟

ـ أمي.

ـ لا تخفِ شيئاً، هاتِ قل ما تريد أن تقول.

ـ الحقيقة أني، وأنا في التاسعة والثلا ثين من العمر، أرغب بالزواج مجدداً.

ـ وماذا عساي أفعل؟ أصفق ابتهاجاً أم أبكي؟ ولكن أتمنى ألا تكون كزوجتك السابقة.

ـ لا يا أمي... إنها إبنة عائلة متواضعة، بنت نفسها بنفسها تعمل الآن مدعياً عاماً، تعيش في واشنطن، مرحة، تحبني، وفوق هذا، تجيد الطبخ وتهتم بالشؤون المنزلية... وأنا أحبها بجنون. ما رأيكِ لو تتناولين العشاء معنا هذه الليلة؟

ـ لا بأس، سأذهب أولاً إلى المؤسسة ومن ثم إلى شقتك، أيرضيك هذا؟

أمام باب شقته، كانت جولي بانتظاره، وما إن أوقف سيارته، حتى أسرعت وقبلته وصعدت معه، وأخبرها أنه دعا والدته لتتناول العشاء معهما.

ـ ماذا؟ لماذا لم تعلمني مسبقاً؛ لكنت ارتديت ثياباً أفضل.

ـ لن تهتم أمي لما ترتدين.

ـ حسناً، لكنها أنيقة جداً. هكذا تبدو في الصور.

على المائدة في أحد مطاعم نيويورك الفخمة، دار حديث طويل بين زويا وجولي، تحدثتا بصدق وصراحة عن كل شيء، وكأنهما صديقتان منذ زمن، وأعجبت كلّ منهما بالأخرى، وتعبيراً عن حبها لهما معاً، تركتهما يكملان تناول العشاء وعادت إلى مكتبها لإنجاز بعض الأعمال العالقة، وصممت أن تقدم بيضة الفصح الذهبية لهما كهدية بمناسبة الزواج.

بعيد منتصف الليل عادت زويا إلى شقتها، فقصدت غرفة نوم مارينا

مباشرةً، التي ما إن سمعت وقع أقدام جدتها حتى استوت في سريرها. جلست زويا إلى جانبها، وراحتا تتحدثان عن الباليه، فأخبرتها مارينا أنها ستقدم عرضاً منفرداً في قاعة لنكولن للرقص التي يقصدها نخبة القوم والمثقفون. اغرورقت عينا زويا، وراحت تستعيد الذكريات العتيقة. تذكرت ماري، وتلك النافذة، في قصر تسارسكوي سيلو، فروت مجدداً لحفيدتها الكثير عن ماضيها، وعن حبها لهذا النوع من الرقص وعبرّت لها بوضوح، أنها تجسد أمانيها وأحلامها، لذا فهي جد مسرورة بما تقوم به مارينا التي أصبحت راقصة أساسية وهي في الخامسة عشر من العمر.

الفصل التاسع والأربعون

عام 1963، وضعت جولي مولودها البكر، إنها طفلة جميلة تشبه الإثنين معاً، أباها وأمها وقد أسمياها زوي وليس زويا، أي أنهما أعطيا إسم زويا نبرة أميركية.

كانت جولي قد وطدت علاقتها مع حماتها، حتى صارتا صديقتين حميمتين وروت زويا على مسمعها قصة حياتها، وكثيراً ما كانتا تتناولان العشاء معاً، أو الغداء، ولا تترك زويا مناسبة إلا وأغدقت بالهدايا عليها.

ـ والدتك إنسانة رائعة يا نيقولا... قالت جولي، إنها لا تشبه الحماوات.

مارينا في الحادية والعشرين من العمر؛ إنها راقصة أساسية في فرقة الباليه، جالت العالم كله بما فيه مدينة لينينغراد التي هي سان بطرسبورغ سابقاً؛ حيث زارت القصر الشتوي وكذلك فارينسكي. كانت مارينا تتحدث وزويا تبكي، تبكي أيامها الماضية في كل هذه الأماكن التي تتحدث عنها مارينا اليوم، وكأنها تعيد جدتها خمسين عاماً إلى الوراء.

كانت زويا، ما تزال تحلم بالعودة إلى روسيا.

ـ ومتى تنوين تنفيذ هذا الحلم يا أمــي؟... إنكِ الآن في

السبعين من العمر، لكنكِ ما زلتِ تبدين وكأنكِ في الخمسين.

ـ دعك من هذا المزاح.

ـ لا يا حماتي... أنتِ فعلاً كذلك، وإلا لماذا تتهافت نساء نيويورك على شراء عطر الكونتيسة زويا التي أطلقه ماتيو منذ عام؟

ـ وما نفع هذا وهما يرغبان ببيع المؤسسة لتصبح مصنعاً لمأكولات الكلاب...

ـ وأنت ماذا تريدين يا أمي؟ تساءل ماتيو.

ـ أتذكر ماذا قلت لك يوم استلمت إدارة المؤسسة؟

ـ نعم أذكر. لا تقفل أبواب المؤسسة، حتى ولو نشبت النار فيها، إلا بعد التهامها كلياً.

ـ إذن..؟

ـ إذن ماذا يا أمي؟

ـ كنت أنوي التقاعد، ولكني غيّرت رأي.

ـ تأكدي... لن يكون إلا ما تريدين.

ـ أما زلت ترغبين باصطحاب زوي إلى أوروبا؟ تساءل نيقولا

ـ بلى.. ولكن ستسمح لها بذلك؟

ـ لكل حادث حديث.

الفصل الخمسون

بعد ثمانية وثلاثين عاماً، على افتتاح محلات الكونتيسة زويا، قررت زويا، أن تترك العمل وتخصص أوقاتها للإستجمام والتنزه والسفر إلى أوروبا، وباريس خاصة، ومن يدري؟ قد تعود إلى روسيا.

تعمد نيقولا وماتيو إقامة حفل تكريم لوالدتهما قبل أن تتقاعد، وتصبح حرة في الذهاب إلى حيث تشاء، فاختارا تاريخ حفل الإفتتاح ذاته ليكون تاريخ الوداع.

باقات الورد، ومن كل نوع ولون، توزعنا في كل زاوية من زوايا الطوابق الخمسة، وبحضور نخبة الزبائن والمجتمع المخملي في نيويورك، وقف ماتيو ليشكر الإنسانة التي أعطت ما عجز عظام الرجال عن إعطائه.

ما إن انتهى من كلمته حتى أمسك يد أخيه نيقولا وتوجها إلى حيث زويا جالسة على كرسي فخم محاط بالورود، وخلفهما سارت جولي وإلى جانبها زوي ومارينا.

وقف الخمسة أمامها ثم انحنى كل واحد منهم ليقبل يدها وجبينها والدموع تبلل وجنات الجميع.

كانت زويا تبكي وهي تتذكر سيمون وما فعله من أجلها ومن أجل

ولديها. نظرت إلى مارينا، فتمنت لو أن ساشا ما تزال حية، تذكرت الجميع وهي تستعد للخروج من الباب لآخر مرة، وإلى المطار مباشرة. لقد ولى عهد السفر بالسفن. كانت تحلم بالعودة إلى باريس برفقة زوي، ومن ثم إلى إيطاليا.

وسط التصفيق ونثر الورود سارت زويا نحو المدخل الرئيسي للمؤسسة لتجد حفيدتها بانتظارها والإبتسامة على شفتيها.

ـ جدتي... جدتي...

ـ سأخبركِ شيئاً مهماً... شرط ألا تخبري والدي.

ـ أعدكِ بذلك.

ـ لن نذهب إلى باريس فقط.

ـ ماذا؟ إلى أين إذن؟

ـ إلى حيث كنت تحلمين. إلى ليفاديا.

حدقت زويا بالسماء، «شكراً لك يا رب أعدتني إلى جذوري».

وسنزور كل مدن روسيا يا جدتي.

زويا

الثلج يتساقط ... وزويا مغمضة العينين حالمة تصغي لرنين أجراس الخيول التي تجر العربة. منذ صغرها وهي تحب هذه الموسيقى وتحلم أن تصبح راقصة باليه، في الوقت الذي تدرك فيه استحالة تحقيق هذا الحلم، فهي واحدة من طبقة النبلاء، ومثقفة أرستقراطيا ورائعة الجمال إضافة الى أنها مقربة جدا من القيصر ألكسندر ورفيقة ابنته الحبيبة. زويا، التي كانت محط أنظار كل ضباط القيصر، زملاء شقيقها نيقولا الذي يغير عليها أكثر من روحه.

زويا التي تحظى بكل هذا الحب والرفاهية والرعاية تأتي الثورة البلشفية لتأخذ منها أحب الناس لها شقيقها ثم والدها وأمها والقيصر وعائلته كلها وتجعل منها إنسانة وحيدة، فقيرة مشردة في باريس ترعاها جدتها دون معيل ويتقاسمون معا، في منزل فقير، ما يحصلون عليه من بيع بقايا المجوهرات التي استطاعوا إخراجها معهم من روسيا. فقدت كل شيء، حتى أحلامها ولم يبق لديها ما تعيش فيه ولأجله سوى ذكرياتها..ذكريات الطفولة في سان بطرسبورغ، ورحلاتها مع بنات القيصر على متن اليخت الفاخر.

ولكن الحياة مستمرة ... وكل صباح يأتينا بجديد. ما هو مصير زويا المحبوبة؟ ما هو مصير بطلة هذه الرواية التي تخطف القارىء وتسكن قلبه كما سكنت قلوب من عاصروها ... هل ستأتي الأيام بما يعيد النضارة إلى هذه الزهرة التي نبتت في مروج روسيا وملأ عبق أريجها الكرة الأرضية برمتها من سان بطرسبورغ الى نيويورك؟

قرأت زويا وعشقتها... أما أنت فإني أدعوك إلى قراءتها... وحسب.

الناشر



